عزة بـندق

Azza Bondok

من ميم إلـى نـون

From (M) to (N)

إلى الأرواح المغتربة داخل أوطانها وخارجها..

كالسلحفاة، أحمل بيتي على ظهري وأمشي.

جلوريا أنزالدوا

مُقَدِّمة..

أنا فرحانة. شعور عام بالرضا لم أستشعره منذ فترة طويلة. لا أعلم مصدره، بلى أعلم و لكن أقصد لا أعلم إن كنت أستحقه، بلى أستحقه. في الواقع أنا أستحقه عن جدارة، عن شعور بالإكتئاب دام لما يقرب من أربعين سنة. كيف بدأت كل هذه التعاسة؟ سؤال جيد و الإجابة : ليست لدي فكرة. آه أقصد ربما كنت أعرف و لكن لا أريد إخباركم. لمَ أكتب إذن؟ سؤال آخر جيد. تمام لنبدأ من البداية و سأكون صادقة فيما أقول. أو فلنقل أني سأحاول تحرِّي الصدق فيما أقول.أصبحت جدة منذ ساعات قليلة. أنا "ميم". أصدقائي يدعونني "ميم". في الواقع ليس لدي أصدقاء، أعني لدي صديقة واحدة، أو ربما أكثر قليلاً الان. "نون" الفتاة التي كدت أن أقتلها ليلة رأيتها أول مرة. أحيانا كثيرة تلعب الصدفة دورا مجنونا في كيفية تعرفك على آخر، و الباقي يرجع لك. في حالتي هذه، كنا كلنا مجانين، الصدفة التي جمعتنا، ونون وأنا.

بِدَايَة..

1

بُـحَيـرة الـغُـرُوب

الرابع و العشرون من يناير، يتساقط الثلج بجنون في هذا الوقت من العام. أقفلت الطرق و شلت تماما لليوم الثاني على التوالي . عربات الخدمات و الإطفاء لا تكف عن جرف الثلج، والثلج لا يكف عن التساقط. يذكرك هذا بلعبة القط و الفأر. ألغيت الرحلات بالطبع لسوء الأحوال الجوية. في الواقع رحلتي كانت الأخيرة، ازدحم مطار JFK بالرواد الساخطين الذين لم يتمكنوا من استباق العاصفة .

بعض أصدقائي اضطروا للمبيت في فندق المطار. كنت محظوظة. ليس لأن رحلتي لم تلغى فحسب. ولكن لأني كنت قد اتفقت و كازوعلى حجز تذكرتّي العودة معا. هو من اليابان وأنا من مصر. و أقول أني محظوظة لأني لم أكن لأتحرك خطوة في هذا الطقس المجنون من دونه. وصل هو مبكراً عني ساعتين، وقضى الوقت في شرب القهوة الساخنة في مقهى المطار، والعمل على جهاز اللاب توب.

شئ أساسي يجب أن تعرفوه عن كازو هو أنه يعمل و يعمل و يعمل. وصلت أنا و بعد الإنتهاء من إجراءات الوصول و إستلام الأمتعة اتجهت لساحة المطاعم، حيث اتفقنا أن نلتقي. كان قد فقد قليلا من وزنه ولكن لم يكن هذا هو التغيير الوحيد.

- مستر كازونوري ياماساكي؟ باغتُّه

- هاه نون! مرحبا صديقتي العزيزة.

- كازو، قصصت شعرك أخيراً.

قلتها و أنا أمرر يدي بحركة سريعة على رأسه. ضحك ولم يقل شيئا. شئ أخر يمكنكم معرفته عن كازوهو أنه لا يتكلم كثيراَ، ولهذا أحبه أنا كثيراً. توقفنا عند البوابة الأخيرة التي تفصلنا عن الشارع في محاولة منا لنقيس مدى سوء الوضع.

بساط أبيض يتقافز عليه الكثير من الأسود و الأحمر و الأزرق . ناس تجري و تهرول هنا وهناك. عربات تزمجر و أخرى لا تقدر على الحراك. رجل يفقد توازنه و يسقط. امرآة تضحك عليه. عمال يرشون الملح الخشن في الممر الذي تم جرفه منذ قليل . ستظل نيويورك من أكثر المدن إزدحاما بثلج وبدون ثلج. أشار برأسه ناحية الشارع

- جاهزة لخوض المعركة؟

هززت كتفي

- ربنا يستر.

شنطة كبيرة و كاري أون و أخري هاند باج و معه المثل، مع كل هذا الثلج وكل هذه الهرجلة، لفظة معركة وصف غير مبالغ فيه.دقيق كازو في اختيار كلماته القليلة. خرجنا الشارع لتقابلنا موجة من الثلج ضربت وجهينا مرحبة بنا على طريقتها الخاصة .

- اتشووووو!

نظر لي باستغراب فضحكت

- هي هي هي. هذا أول تعارف رسمي لي مع الثلج.

أحكمت الكوفية حول رقبتي و أخذت أتلفت بحثاً عن تاكسي. أشار كازو للهرج من حولنا

- علينا أن نمشي .

أومأت موافقة. مشينا باتجاه الباص، كان شارعاً واحداً ولكن هذا الجو و الحقائب معنا جعلا المهمة مستحيلة. أنا أجر الشنطة الكبيرة و الكاري أون و (كازو) يجر الشنطة الكبيرة و الكاري أون و يحمل الهاند باج.

مسكين (كازو). يتوقف ليلقي نظرة على ليراني لازلت بنفس النقطة التي تركني بها، يترك الحقائب، و يعود ليأخذ مني الشنطة الكبيرة. يسبقني وبصبر ينتظر حتى ألحق به. وبعد الكثير من التعثر و الوقوف و العودة للوراء وتبادل الحقائب، وصلنا الباص.

أعطينا التذكرتين للسائق، الذي سارع بحمل الحقائب ووضعها في بطن الباص الجانبي. تنهد كازو عندما أدرك أنه قد تخلص أخيرا من الحمولة. زحف بنا الباص ببطء عبر الشوارع المثلجة ونحو محطة القطار الرئيسية بنيويورك، شارع 42 شرق ، بالقرب من الجادة الثالثة.ومن المحطة نأخذ القطار المتجه لبوكيبسي، أو كيبسي كما يطلق عليها الأمريكان.

كنا قد قررنا الذهاب لنيويورك أنا و أصدقائي في سبتمبر الماضي .

- تذكرة ذهاب و عودة من فضلك.

- لا تبدين أنكِ من هنا.

- اه أنا من مصر، و أدرس هنا في جامعة فاسار-Vassar.

- أوه جميل أنت هنا في كيبسي إذن؟

كان سؤالا بديهيا لا يحتاج جوابا في الواقع، و مصحوبا بابتسامة رائعة.

- لا، فاسار في بوكيبسي.

رفع حاجبيه في دهشة، صمت لحظة يتأكد مما إذا كنت أمزح، ثم برقت عينيه الزرقاوين في مرح، لقد قرر أنني أمزح، الحمدلله تم إنقاذي من الإحراج.

****

جامعة فاسار للفنون الحرة من أعرق الجامعات الخاصة وأقدمها. محظوظة بمدينتها التي تقع في المنتصف بين نيويورك و ألباني .تعتبر بوكيبسي واحدة من مدن كثيرة في شمال أمريكا الشرقي الواقعة في حضن وادي هدسون .

يخترق الوادي نهر هدسون. وهو نهر هجين تختلط مياهه المالحة والعذبة. ويستسلم الوادي للمساته السحرية فيعمل النهر تعويذاته وينثرها فوق كل ورقة شجر وكل قطرة ماء. اكتشفه البحار الإنجليزي

هنري هدسون سنة1609 . ينبع النهرمن جبال أديرنوداك عند بحيرة دموع السحاب شمال نيويورك، ويصب في الأطلنطي.

إن كان للسحاب دموع وللدموع فائدة فقد تسببت في خلق كل هذا الجمال.يتجمد نهر هدسون في الشتاء ولا يزيده هذا إلا رونقا وسحرا.يمتد النهر لمسافة 315 ميل ويعمل كحد سياسي بين نيويورك و نيوجرسي .

بوكيبسي نقطة إنطلاق ممتازة لتتعرف على وادي هدسون المشهور بإمتلاكه لجبال من الأشجار التي تتلون بألوان رائعة وخلابة في الخريف،بالإضافة لعشرات وعشرات من الأشجار النادرة التي يضمها حضن الوادي. وجسر هدسون كعبة للجولات و الزيارات الأسرية والطلابية لمن يجيئون لفاسار أول مرة أو لمن يمرون ببوكيبسي. باختصار هدسون جنة من جنان الله على الأرض. تنهدت

- راجعة لك يا وادي الخير.

****

أنت تتمنى نوماً هنيئاً لأسرتك و تنام، لتستيقظ على بساط أبيض يغطي كل شئ. ترى متى خلق الله كل هذا البياض؟ ضممت الكوفية حول رقبتي وعدلت من البالطو الأحمر الطويل الذي أرتديه،ألقيت نظرة أخيرة من النافذة على الثلج بالخارج و أدرت مقبض الباب.

الساعة السادسة صباحاً، الوقت باكر. توقعت أن أنام أكثر فقد وصلت بالأمس فقط. وكان وصولا مرهقا في الحقيقة. سيتأخر كازو في النوم اليوم بالتأكيد. و لكن لا بأس فهذا أفضل، سأستمتع بأخذ لفّة سريعة حول البحيرة المتجمدة قبل أن أبدأ يومى. اليوم ليس به محاضرات أصلا و رسميا نحن لازلنا بأجازة الشتاء.

تبدأ الدراسة في الخريف وتنتهي في الصيف، يتخللها أجازة قصيرة في الخريف و أجازة طويلة في الشتاء و أجازة أطول في الصيف، ليس سيئا أبدا. يبدأ الطلاب في التوافد على الجامعة من منتصف يناير . قضوا ما يزيد أو يقل قليلاً عن الشهر مع أسرهم و أصدقائهم للإحتفال بالكريسماس. فقط القلة هم من بقوا في حرم الجامعة، الطلاب الدوليون (المطاريد) الذين لا يمكنهم تكبد حق العودة لأسرهم، إما لبعد المسافة أو لقلة المال أو الاثنين معا.

تخيل معي حرم الجامعة الدافيء الجميل الممتلئ بالأشجار المزهرة و الورود الجميلة، و السناجب، لا تنسى السناجب التي تركض مختبئة بين فروع الشجر ، و أيضا القارض أو (وومب ووومب) كما يسميه الفاساريون، تخيل كل هذا يختفي و يُغطى بلحاف هائل من الثلج.

أيضاً يتقلص عدد الطلاب و العاملين وهيئة التدريس ليقتصر على مجموعة الطلاب الدوليين تعيسي الحظ. ولكن الجانب المشرق أنهم يبقون معاً و يقضون النصيب الأكبر من الوقت في الحديث و التندر و النوم ، الكثير من النوم. أه و الأكل طبعا.

صحيح يتم إغلاق المقصف الرئيسي أو (القلعة) كما أسميه و أصدقائي ، و لكن يظل الكانتين الفرعي مفتوحاً طوال شهر الأجازة بالتأكيد. يشفق من تبقى من الموظفين و العاملين به على الطلاب فيقدمون لهم الشوربة الساخنة بالمجان.

نزلت من الباب الخلفي، ولم أنس وضع كرتونة صغيرة كي أمنع غلقه بشكل كامل. يجب وضعها بحرص و إلا انطلق جرس الإنذار. اعتدنا أن نضع الكرتونة الصغيرة كي لا نضطر للإلتفاف و إستخدام البطاقة الممغنطة للدخول من الباب الرئيسي. صدقني في هذا الجو، لا بأس من أن تعد الخطى.

لو كنت محظوظا ستعود لتجدها و تفتح الباب، و إن لم تجدها، لن تفتح الباب و سيعني هذا أن رجال الأمن اكتشفوا فعلتك و هم يقومون بدورية إستكشاف في المبنى السكني. و حينها ستضطر إلى الإلتفاف و الدخول من الباب الرئيسي للمبنى.

الأمن يقوم بعمله على أكمل وجه من دون أن يشعرك بوجوده. إجراءات الأمن تنفذ بدقة وسرعة. وعند وجود أي شبهة تهديد تسارع إدارة الأمن بإرسال إيميلات تحذيرية للجامعة بموظفيها وطلابها مع ذكر الإجراءات الوقائية المفترض اتباعها تبعا للموقف.

تملك الجامعة حرما واسعا به بحيرة وملعب تنس وملاعب جولف إلى جانب المزرعة والمحمية الطبيعية. الكثيرون من الزوار و الطلاب يأتون للتمتع بكل هذا واستكشافه. فاسار مجتمع مفتوح بكل المعاني الكثيرة التي قد تفهمها من الجملة. مع هذا لا وجود لأي فرد أمن على البوابة ليسألك أن تخرج هويتك ويفتح معك سين وجيم. طوال وجودي لم يحدث أن استوقفني أحدهم.

اه تذكرت مرة كنت أقوم بنقل بعض الأدوات و الكتب. كنت قد جمعتها في كرتونة واحدة كبيرة وكانت ثقيلة بعض الشئ. سمعت صوت عربة تقترب وتتوقف على بعد خطوات مني لتطل من نافذتها إحدى أفراد الأمن وبابتسامة سألتني إن كنت بحاجة إلى مساعدة أو توصيلة؟ فشكرتها حيث كنت على بعد خطوات من السكن.

الجامعة بها تسعة منازل رئيسية للطلاب. أسكن في المنزل رقم 7 ، (سترونج) أو قوي، هذا اسم المبنى. منزلي من أقدم و أولى المنازل التي تم بناؤها عام 1893.

يسمى (سترونج) لأنه المنزل السكني الوحيد في الجامعة الخاص بالفتيات فقط، وليس مختلطاً كباقي المنازل. هو مليء بالفتيات القويات والمستقلات. (سترونج) به أقل عدد من الأدوار، ثلاثة فحسب، . تمكنت أنا من أن أكون واحدة من 162 طالبة التي يتسع لهن المنزل. أنا أسكن بالدور الأول غرفة 134. بجانبي ماتيلدا 133 و آن 135 . مصر و فرنسا و ألمانيا نجحوا في تكوين صداقة ثلاثية قوية مثل المبنى تماما.

ألقيت نظرة على نافذة ماتيلدا و آن، الستائر مغلقة، آن لابد نائمة،أما ماتيلدا فقضت أجازة الشتاء مع زوجها و ستصل اليوم مساء . في المبنى المقابل، وفي الغرفة المقابلة مني يسكن كازو، و صديقتي الأرجنتينية ناتاليا بالغرفة التي تجاوره. ناتاليا و آن لم تسافرا. بقيتا معا وهذا جيد أن إحداهما لم يكن عليها البقاء بمفردها.

لم أعد أشعر بالبرد، ما أن تخرج و تمشي قليلاً حتى يعتاد جسدك الحرارة، عينك هي التي تحتاج وقتاً كي تقدر على إحتواء كل هذا البياض. عندي رغبة عجيبة في الإرتماء بحضن هذا الثلج. أحس بأنه سيكون دافئاً، أكثر دفئاً من ناس كثيرين.

من الجيد أني لبست البوت الطويل البلاستيكى المقوي ذو الأرضية الخشنة والألوان المبهجة، اشتريته عندما كنت في بورتلاند مين Portland Maine الخريف الماضي. قمنا بإجراء قرعة، هناك الكثير والكثير من الأماكن، القليل من النقود و الوقت. سان فرانسيسكو أو شلالات نياجرا.

استبعدنا سان فرانسيسكو بسرعة، فهي في الساحل الغربي و بحاجة إلى ست ساعات من الطيران الداخلي. كما أنها من أكثر المدن السياحية غلاء في الأسعار، ربما سنذهب في الصيف.

شلالات نياجرا كانت خيارا لا بأس به، ليست بعيدة فهي في الشمال أيضاً، تبعد بضع ساعات عن نيويورك نستطيع الذهاب بالباص، المشكلة التي واجهتنا، أو واجهتني أنا على وجه الدقة هي في إجراءات السفر، مصر بحاجة إلى فيزا و الفيزا بحاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثة أسابيع للصدور، للتأكد من أني لست إرهابية محتملة. ونحن معنا فقط أسبوعين. شكرا يا كندا ! سنذهب إلى بوستن.

و بوستن لم تخذلنا أبدا. مدينة رائعة تطل على المحيط الأطلنطي. أحببتها من أول نظرة، في الواقع أحببتها أكثر من نيويورك. بوستن أكثر هدوءا و أقل ازدحاما إلى حد ما.

المتحف المائي الذي يمتد لعدة طوابق، الشوارع الواسعة يتخللها رائحة ملح الأطلنطي، ولن أنسى هارفارد بالتأكيد. مستحيل أن تذهب إلى بوستن دون أن ترى جامعة هارفارد. هارفارد العريقة مزار سياحي، والحرم الجامعي بالكاد يخلو من الجولات الآتية و الغادية. في الواقع أنا أشفق على الطلاب في هارفارد لاضطرارهم التعامل مع كل هذا الصخب.

أما بورتلاند مين فهي قصة أخرى، أصغر من بوستن و أكثر هدوءا، و أكثر مطراً. فمنذ خطت أقدامنا المدينة، ولثلاثة أيام متتالية، طوال فترة بقائنا، لم يتوقف المطر. كنا نسير في الشوارع وقد تبللت أحذيتنا و جواربنا، لذا كان لابد من شراء بعض البوتات المضادة للمطر. مطر و محيط أطلنطي و كافيه دافيء تتحلق حول طولاته أنت و أصدقائك، وإستاكوزا، الكثير والكثير من الإستاكوزا.

مررت بالمبنى الرئيسي. يمتد لمسافة 500 قدم ويرتفع لخمسة أدوار. كان ماثيو فاسار مشغولا بإيجاد فكرة لتخليد اسمه،و في إحدى جولاته بأوروبا قرر تأسيس جامعة للفتيات لربط اسمه بهذا الإنجاز الإنساني الضخم. كان (فاسار) معجبا بالتصميم الروماني لقصر تويلر بفرنسا ، المقر الرئيسي لنابليون الأول. تم تجديد القصر في عهد نابليون الثالث وقت الإمبارطورية الثانية،وظل مقرا ثابتا للحكم الملكي إلى أن تعرض لحريق أثناء الثورة.

ومن القصر المهيب استقى فاسار التصميم و عيّن مقاول وعمدة بوكيبسي في هذا الوقت،للقيام بالمهمة التي تكلفت 178000$. المبنى الرئيسي واجهة مشرفة و عريقة بالفعل. هو أول ماتقع عليه عينك حين تدخل من البوابة الشمالية. كان مسكنا لكثير من الشخصيات المشهورة.

خرّجت فاسار الكثير من مشاهير الفن والإعلام والسياسة والرياضة. جاكلين كينيدي،جين فوندا و ميريل ستريب و آن هاثاواي وليزا كودرو.أنتوني بوردوين و جستين لونج والكثير غيرهم.

اتجهت يساراً، بضع خطوات لأمر بمبنى ساندرز الذي أدرس به الكتابة الإبداعية. أه تذكرت الآن، على أن أقوم بتعديل قصتي القصيرة قبل توزيعها على زملائي لمناقشتها أمام بروفيسور سمبسون في اللقاء القادم.

تجاوزت المبنى و بدأ الطريق في الإنحدار، تمهيداً للدخول في حرم البحيرة. ساعدتني أرضية البوت الخشنة في ألا أنزلق نزولا. البحيرة المتجمدة أمامي الأن. هناك بعض الطلاب بدأوا التزلج مبكراً. تمام، لست المجنونة الوحيدة التي قررت الخروج الآن. تعالت الضحكات و الصرخات، بقيت على الجانب الآخر من البحيرة، بعيدا عن صخب الطلاب قدر استطاعتي. من الجيد أنهم يمرحون. في بعض الأوقات تقول اللافتة بأنه ممنوع التزلج خوفاً من هشاشة الثلج في أول الشتاء، لكن نظرا لكمية الثلج التي تتساقط بلا إنقطاع قبل عودتي، هم بأمان تام.درت بعيني فيما حولي بانبهار.شكرا يا ماثيو فاسار.

كانت فكرة مؤسس الجامعة أن يتم إضافة البحيرة للحرم الجامعي الشرقي. احتاجت الفكرة لأربعين سنة للتنفيذ، و بعد إجتماع دوري للجنة الأمناء، أجمعوا على إحياء فكرة المؤسس و ضرورة خلق بحيرة آمنة لطالبات فاسار كي يتزحلقن عليها في الشتاء، و يصطدن و يمشين حولها باقي الفصول.

تم اختيار الفناء الخلفي لفاسار كي يكون مركزا للبحيرة، وراء كاتدرائية فاسار امتدت البحيرة نحو 200 قدم عرضاً، و 300 طولا. تلفتّ يمينا و يسارا أقيس بعيني طول البحيرة. قمت لأقترب من الحافة المتجمدة. هدأ الطلاب قليلا، يفترشون زلاجاتهم على الحافة المقابلة.

أنا الآن أمشي فوق سطح البحيرة التي يصل عمقها من سبعة إلى تسعة أقدام. في بادئ الأمر كانوا يطلقون عليها اسم البحيرة الصناعية. أصبحت البحيرة إضافة رائعة و مزارا لكثير من الطلاب في الجامعات القريبة، ولسكان المدينة في بعض المناسبات.

الكثير من السمك يسكن قاع البحيرة، و أسراب البط والإوز تنتشر حولها في غير الشتاء. في الصيف والخريف و الربيع يستمتع الطلاب بالإستلقاء على حافة البحيرة للتلذذ بآشعة بالشمس. الفتيات في فاسار اعتدن على اصطحاب أصدقائهن لتبادل قبلاتهم الأولى عند البحيرة وقت الغروب ، و ثبت الاسم مذاك الحين.

2

مـيـم

كان يوماً دافئاً مخالفا لما اعتدناه من شتاء المنصورة في السنوات الأخيرة. أنهيت عملي مبكرا. نيل المنصورة ساحر في هذه البقعة التي اخترتها.

جلست على السور الحجري المتهدم، رفعت رجلي، ودرت حتى دلّيت رجلي ناحية النيل. أجمل ما يميزه أنه خال من المراكب التي تحتله طوال الصيف لتدمر هدوءه بالأغاني الشعبية التي تعتمد في نوتاتها على (الرقع و الهبد)،مصحوبان بأي صريخ والسلام.

تقوم المراكب بجولات من الحافة اليمنى لليسرى في تتابع رتيب بخمسة جنيهات للفرد الواحد، وهذا لا يشمل بدل الغرق بالطبع. مزاجي رائق اليوم، لم أتشاجر مع أي من الحثالة الموجودين معي في الشارع. و لم تمطر منذ فترة، هذا جيد. أكره المطر و أكره كل من يحبونه.

أخرجت علبة الكشري من الكيس البلاستيك. مزاجي رائق اليوم لذا سمحت لنفسي بطلب علبة حجم كبير، لا بأس من بعض الإسراف، كما أن الدايت لن يتأثر. أزحت الغطاء، قضمت كيس الصلصة بفمي، وزعت محتوياته على العلبة ووضعته في الكيس البلاستيك لأرميه لاحقا في الزبالة،كيس الشطة لاقى نفس المصير. مددت يدي أبحث عن المعلقة

- يخرب بيت أمك يا صبحي، نسيت تحطلي معلقة برده.

باي باي مزاجي الرائق. رفعت رجلي لأدور وأواجه الشارع، قمت بسرعة وأنا أسب وألعن صبحي وسنين صبحي، نظرت للعلبة بأسى

- ياني يامه! الكشري هيبرد يابن ال..

أفقت على ارتطامي بشيء ما، لا أذكر وجود عمود هنا،حاولت إنقاذ علبة الكشري ولكن لا فائدة. تعثرت و سقطت علبة الكشري فوقي وفوق الشيء الذي تعثرت به. باي باي علبة الكشري. لا معلقة ولا كشري.

- ايه ده، مش تاخد بالك!

قالها الشئ الذي ارتطمت به. لازلت حزينة على الكشري في الواقع. لم أتحرك من رقدتي. ولم أكف عن السباب.

- يادي النيلة، ده أنا شعري جه عليه صلصة كمان ولا ايه ده؟

استمر الشئ في الحديث، لم أتبين باقي كلماته ، كان من الواضح أنه غاضب. مهلاً، على سيرة الغضب، قمت كالصاروخ من رقدتي. ومن حنجرتي أنطلق شخيرا عاليا

- انتي طلعتيلي من أي داهية؟

أفقت تماما الأن. الشئ ليس شيئاً، بل فتاة غبية تحاول تجفيف طرحتها من الصلصة العالقة به. لو اختلف الموقف لربما عرضت عليها المساعدة، لكن المساعدة التي يسمح بها مزاجي الآن هي أن أقص شعرها من جذوره كي أخلصها من الصلصة خاصتي التي أهدرتها على الأرض.

- الصلصة يا بنت الهبلة!

بالفعل جررتها من رأسها أرغب بتحطيمه، انفلتت الطرحة ليصبح شعرها كله في يدي.لم أتبين لونه لكنه ناعم.

- انت مجنون! هصرخ وألّم الناس عليك.

حاولت التخلص من قبضتي دون فائدة، أدرتها نحوي لألكمها

- انت واحدة! أقصد انتي واحدة، طب سيبي شعري، أرجوكي.

قالتها بهدوء وقد ذهب خوفها عنها فجأة فزاد ذلك من غضبي

- و الكشري الي دلقتيه، والصلصة الي مالية شعرك دي؟

- هجيبلك غيره بس سيبيه.

- انتي فاكراني شحاتة ولا ايه؟

تركت شعرها في حركة عنيفة. أخذت تلهث وهي تمرر يدها على شعرها، بدا الألم جليا على محياها. كانت عيناها ممتلئة بالدموع، إلا أنها لم تبكي. عدلت من ملابسها، و مسحت شعرها. أعادت لف طرحتها بسرعة. كل هذا وأنا أراقبها بعين غاضبة.

- انتي لابسة ولد ليه؟

- وانتي مال أمك، انتى وقعتيلي أكلي، وجاية تصاحبيني كمان ولا ايه؟

- انتي ليه عنيفة كده!

- بقولك غوري من وشي الساعة دى بدل ما أذيكي.

كورت قبضتي إستعدادا لتحويل تهديدي الشفوي إلى فعل. رفعت يدها

- خلاص خلاص.

رجعت خطوتين للوراء وهى تنظر إلي خوفا من أباغتها من الخلف. نظرت لي بطريقة لم أعهدها من قبل،نظرة تحمل الشئ وعكسه. غريبة لكن مألوفة. تقول الكثير دون أن تنطق به. هزت رأسها علامة الإستسلام، و ذهبت. تابعتها بعيني حتى رأيتها تتجه ناحية الكافيه في الجهة المقابلة من الشارع، وقفت أمام الباب، مترددة في الدخول. حسمت أمرها و التفتت نحوي

- أنا نجوى،وأصحابي بيقولولى يا نون.

ودون أن تنتظر مني ردا، دفعت الباب أمامها و اختفت.

****

في اليوم التالي لم يتوقف المطر، خلت الشوارع أو كادت. كنت عائدة من عند صبحي، صبحي يعمل في جاد. يعطيني السندوتشات و الكشري ودائما ما ينسى وضع المعلقة ودائما ما أذهب لسبه و سب أمه و يكتفي هو بالضحك ويعد بألا ينسى المرة القادمة. لكنه ينسى المرة القادمة فأعود لأسبه ويعود هو

ليضحك. بوابة البارون خالية من الطلاب.لا يقفون أمامها كالذباب مثلما يفعلون. الأمن الجامعي نائم. أيقظت عادل فتى الأمن و أعطيته علبة الكشري خاصته. فتح العلبة و أخذ يأكل في نهم.

- ياني يامه!أنت كنت بتحلم بالأكل يا وله!

الدراسة لم تبدأ بعد، أجازة نصف العام تنتهي اليوم أو غدا، لا طلاب، باستثناء طالب أو اثنين قررا لسبب أو لآخر النزول في هذا الجو، والانتظار أمام البوابة في ترقب. توقف تاكسي أمام البوابة و نزلت فتاتان، واحدة قصيرة رفيعة، والأخرى قصيرة بدينة،رفعتا شنطة يدهما ليقيا وجهيهما من المطر الذي من شأنه أن يلطخ المكياج الذي حتما وقفتا أمام المرآة لساعات كي يتقناه.

اه الأن فهمت لمَ قرر الطالبان المخبولان النزول. تهللت أساريرهما حين رأيا الفتاتان و سارعا بفتح المظلة التي معهما.ذهب الفتى و الفتاة الرفيعة ناحية اليمين،و اتجه الآخر مع البدينة ناحية اليسار. هززت كتفي، ليس الأمر أني أحسدهم، فقط أرى أن من يمد يده لأخذ المصروف ليس بمقدرته أن يعي الحب و مسؤليته. ولكن ما شأني أنا؟ هززت كتفي و رفعت رأسي للسماء. هووف أكره المطر وأكره كل من يحبونه. كنت يوماً بعمرهم، كلا لم أكن أبدا بعمرهم. كنت طفلة شاخت فجأة. لم أمر بمرحلة مراهقة ولا شباب،قفزت من الطفولة للشيخوخة هكذا في غمضة عين. أنا لا أبالغ، فعلا نمت و صحوت لأجد نفسي وقد شخت. ماعلينا.

تابعت المشي وأنا أركل بقدمي كل مايقابلني. طوب و زلط و كراتين، زجاجات مياه، كانزات كولا،علب أكل فارغة أو نصف فارغة تلهو بها القطط أمام كنتاكي و بستو و ستيريو. آه صلاح لم يأتي اليوم . صلاح ترقى و تعيّن زبالا لإحدى المدارس الحكومية، يعمل دون تثبيت بالتأكيد، ولكن على الأقل العمل مريح، ينام على الدّكة أمام المدرسة للظهر ، والأطفال هم من يلّمون الزبالة في حصص الألعاب بالطبع. قلت لكم زبال!

يأتي بعد الظهر ليمسك مقشته و يبعثر الزبالة كيفما اتفق. يعود لإمرأته و عياله الخمسة ليرتاح قليلا،ثم مرة أخرى يذهب إلى عمله كنبطشي على مزرعة فراخ من المغرب للفجر. وكل هذا ليصبح مجموع راتبه مائتين وكام جنيه تقريبا. أخبرني صلاح يوما أنه يسرق الفراخ من المزرعة.

- مش كتير والله، أنا بسرق بس لما العيال توحشهم طعم الفراخ.

و سألني إن كان هذا حراماً أم حلالاً. لم أُجبه. مالي أنا والحلال و الحرام.

- ياني يامه!انت عينتني شيخة امتى يا أبو ميادة؟

فقط أخبرته بأني لا أريد أيا من فرخاته المسروقة، وبارك الله له فيما سرق. إن غاب القط العب يا فأر، صلاح أستاذ و رئيس قسم في تبني هذا المثل.

ممدوح أبو سالم هو المسؤل عن المنطقة وهو من يوزع مهام النظافة من المحافظة وحتى الجامعة بكل بواباتها. بإستثناء بوابة توشكى والقرية الأوليمبية فهي من اختصاص الباز أفندي. اسمه ليس الباز، في الواقع اسمه هاني، لكنه يرى أن اسم هاني مهين لواحد زبال. يقول لي في غضب

- كده محدش هيحترمني!

لذا هو من قام باختيار اسم الباز افندي حتى التصق به. أخبرني صلاح أن الباز افندي يزوغ هو الآخر ليجلس على ناصية شارع جيهان ليشحت. أحياناً أخرى يجلس أمام المستشفى العام. الباز أفندي من قرية بعيدة ،و هو أكبرنا سنا. رزقه الله بتوأم. أولاده كان من الممكن أن يرتادوا الجامعة لكن الباز أفندي رفض تماما.ولولت أم العيال ولكنه لم يعرها اهتماما. ترجته تارة و هددته تارة، أخبرته أنها ستتحمل التكاليف من تنظيفها في البيوت و من الخياطة التي تقوم بها

- اهى نواية تسند الزير يا أبو العيال.

- ولا نواية ولازير يا أم العيال،كفاية علام لحد كده.

و قد كان. تم تزويج البنت لصاحب القهوة. صاحب القهوة مقتدر و متزوج من ثلاثة وبنت الباز أفندي رابعتهن.البنت تساعد أمها في خدمة البيوت دون علم زوجها. والولد اشتغل صبي قهوجي في قهوة القرية التي يملكها زوج أخته. لم تعرف أم العيال السر وراء تشبث زوجها بفكرة لا علام بعد اليوم، لم تعرف ولم تسامحه أبدا. لم تسامحه حتى بعدما ماتت بعدها بثلاث سنوات.وهي ملتحفة بمرض موتها الأخير قالت لبنتها بصوت واهن

- قولي لأبوكي، أمي مش مسامحاك.

الباز أفندي لم يحضر دفنة زوجته لأنه كان يشحت وقتها ولم نقدر على الوصول له. عرفت أنا السر بعدها بشهور. أخبرني الباز في يوم أغبر كما وصفه بأن

- الواد والبت جالهم جواب التعليم ولا سخام ايه ياختي على جامعة المنصورة.

هززت كتفي

- وأنا مال أمي يا باز؟

فأشار حانقا

- ازاى بس يا منصورة بقولك الجامعة دهيه! يعنى عايزاني أبقى قاعد أكنس زبالة ابني وبنتى؟

- ده الى مضايقك يا باز، انك تكنس زبالتهم؟ مش مضايقك إنك تكون قاعد تشحت يوم تقوم تلاقي ابنك ولا بنتك هما الي بيدولك الجنيه ولا النص جنيه فإيدك؟

لاحت الصدمة على وجه الباز أفندي. تمام، أنا لا أعرف كيف أنتقي ألفاظي،هذا واضح.

- خلاص ياعم باز انت عارفني مدّب.

نكس رأسه

- ياني يامّه!خلاص بقى قلنا.

مشى دون أن يرفع رأسه ومن يومها وأنا أتظاهر بأننا لم نجر هذه المحادثة من الأساس.

أنا أهتم بالكورنيش، ليس بالكورنيش كله ولكن جزء كبير منه، من فيلا غيث و حتى مول مترو. لا أحد يقول لي أين أذهب ولا متى، حتى ممدوح أبو سالم نفسه يتحاشى التعامل معي. طالما أنا أقوم بشغلى دون أن يطلب مني فلا أحد له عندي شئ.

عندما أحب، أقوم بتنظيف المحلات في الجهة المقابلة في مقابل الطعام و النقود وأحيانا يسمح لي بأن أبيت بالداخل بشرط ألا آخذ شيئا من مكانه. منصورة عبدالكريم معروفة بالكثير و الكثير مما قد يقف له شعر رأسك،لكن السرقة ليست من ضمن ما ستعرفه وماعرفته بالفعل.

****

تابعت المشي حتى وصلت ناحية مترو،و قبالته توقفت أرقب التمثال الغريب الموضوع في منتصف الشارع. لاأفهم ماهدف الحكومة من أن تملأ الشوارع بتماثيل قبيحة. وظيفتي تنظيف الشوارع، ولكني لا أقدر على زحزحة هذه (الكومة) الفنية. لا أدري أهو علبة مناديل مثلا؟ ما الهدف من صنع تمثال على شكل علبة مناديل؟ علبة مناديل مملوئة بالشخابيط و السباب من كل حدب وصوب. أنا نفسي كتبت سبة هنا ذات يوم.هززت كتفي في عدم فهم.

- ياني يامّه!

تاكسي قرر أن يسرع فجأة ليرشني بالمياه فأطلقت سبة عالية لم يسمعها أو عله سمعها و قرر أن يتجاهلها خشية النزول في هذا الجو. ألقيت نظرة سريعة على ملابسي

- ابن الجزمة طيّن الهدوم.

أطلقت سبة أخرى. كنت أرتدي بنطلونا بنياً و قميصاً من البيج الفاتح، أصبح القميص بنيا هو الآخر.وحده الكاب على رأسي لم يطله الطين. رفعت الكاب و عدلت الطاقية الصوف تحته، ولبسته من جديد. قررت النزول للمشّاية السفلية و إكمال المشي من هناك حتى أصل لبقعتي على الكورنيش. الرصيف نظيف و يبرق، بالطبع ألست أنا المسؤلة عن نظافته؟

ارتفع أذان العصر من أحد الجوامع القريبة،بدأت محلات الملابس في فتح أبوابها. حيّاني من يعرفوني، رددت تحية البعض وتجاهلت البعض الآخر. توقف المطر لكن الشمس لم تطلع بعد، نظرت أمامي فرأيت شخصا ما يجلس على الكرتونة التي وضعتها على السورحيث توجد فرشتي. من الغبي الذي يجروء على فعل كهذا؟ أسرعت من خطايا وأنا أشمّر عن ساعدي و أعدل الكاب على رأسي.

- أنتي تاني؟

- أنا نون.

- عرفت إن إنتي زفت، ما إنتى قلتيلي امبارح، حد قالك إني مسطولة؟

- براحة بس، أنا حبيت أتأسف لك عشان وقعتلك الكشري بتاعك امبارح. اممم ايه طين هدومك كده؟

قامت الفتاة من على الكرتونة و اتجهت نحوي ببطء، أعتقد أنها لازالت خائفة مني لكنها تتظاهر بالعكس. وكأنها تقرأ أفكاري قالت وعينها مثبتة علي

- أنا مش خايفة منك.

آه تلك العيون العسلية،أنا رأيتها في مكان ما،لكن لست أدري أين. عسلية أم بنية لست متأكدة. تباً لذاكرتي اللعينة. اقتربَت أكثر. كانت يداها في جيب بنطلونها الجينز الذي ترتديه، ترتدي معه بلوزة رصاصي عليها كتابات بلغة لم أفهمها. نزلت بعيني لأرى الكوتشي الذي ترتديه ، كوتشي أسود له كعب عالي. قصيرة هي وتحتاج لكعب يرفعها قليلا. شعرها البني تظهر خصلاته من تحت طرحة أبيض في أسود. لا جاكت، لا شنطة يد، لا شيء.

- خلاص خلصتي؟

انتبهت على سؤالها

- خلصت ايه!

- فرجة علّي؟

أطلقت سبة

- وأنا هتفرج عليكي ليه يعنى يا خيبتها؟

اتسعت عينيها العسليتين في دهشة حينما سمعت السبة التي ألقيت بها

- مش لازم تحطي شتيمة في كل جملة بتقوليها على فكرة.

- وانتى بقى جاية تعلميني أتكلم ازاى بروح أمك؟

- ياستي أنا لا جاية أعلمك ولا أي حاجة أنا بس الشتيمة بتعصبني.

قالت بنفاذ صبر. هممت بإطلاق سبة لكنها أوقفتني بإشارة من سبابتها ،ليحين دوري أنا لرفع حاجباي في دهشة. لم يسبق و أوقفني أحدهم عن إطلاق سبة،أبدا.

- ايه رأيك نعمل اتفاق؟

تابعتها دون أن أتكلم

- كل ما تيجي تشتمى قوليلي أعمل حسابي الأول و أسد وداني مثلا ايه رأيك؟

ثم ضحكَت فوجدت نفسي أبتسم رغما عني. اقترب تاكسي بسرعة كبيرة لكنى كنت منتبهة له فجذبتها بعيدا عن الطين و أطلقت بصقة أفخر بأنها طالته ثم سببته ما يقرب من العشرين سبة. التفتّ لها لأجدها في مكانها وقد عقدت حاجبيها في إعتراض. رفعت يدي أضرب بها جبهتي إشارة لنسياني وغمزت لها

- سدّي ودانك.

3

الـقَـلْـعَـة

الساعة التاسعة صباحاً، أرسلت واتس آب لكل من كازو و ناتاليا أخبرهم أني بانتظارهم أمام القلعة.ومشيت في طريق العودة. سآخذ الطريق الذي أتيت منه وسأكمل حتى البوابة الشرقية،وقبلها بخمسين قدماً تقريبا سأجد الكانتين. سمعت رنة تعلن وصول رسالة

- ياترى مين الي صحي؟

أخرجت هاتفي

- كازو و ناتاليا، وآن في الطريق.

سمايلي فيس و إرسال. وضعت الهاتف في جيبي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أطير لأسقط على ظهري. وأخيرا وقعت! ياللمفاجأة! خفف البالطو الأحمر المبطن من قوة الإرتطام ،لم أشعر بشئ فقد حدث الأمر بسرعة. استلقيت على ظهري لبعض الوقت.

- كنتي عايزة تحضني التلج يا نجوى؟ اهوه حضن بالإكراه.

قمت بحذر و أرسلت رسالة واتس آب أخرى أحذرهم من الممر الزلق. وجلست على المقعد المقابل للمبنى أنتظرهم.

اليوم هو الأول لفتح الكانتين الرئيسي بعد العودة من أجازة الشتاء. يفتح الكانتين أبوابه من الساعة السابعة والنصف،يأخذ راحة من الثانيةعشرة وحتى الثانية ثم يقوم بغلق أبوابه. لكن إن كنت بالداخل وأحببت ألا تخرج،فبإمكانك البقاء. ويعود ليفتح حتى الثامنة والنصف مساء.

المبنى على طابقين، الأول هو الذي نأكل به والثاني مخصص للحفلات. في الفصل الأول قمنا بالإحتفال باليوم العالمي للأعلام. يمكنك أن تشارك بعلم الدولة الخاص بك و بقول كلمة صغيرة عما يميزها. هو نوع من حفلات إذابة الثلج. في الأيام العشرة الأخيرة من أغسطس يبدأ الطلاب الدوليون بالوصول، وآخر أسبوع يطلقون عليه اسم : أسبوع الطلاب الدوليون .

وصلت في الثالث والعشرين من أغسطس، في الخامسة مساء. أنهيت إجراءات الوصول في المطار و خرجت لأجد لافتة باسمي و فريق من الجامعة بانتظاري أنا و طلاب آخرين. يا للراحة لن أتوه في نيويورك.

أخذنا باص الجامعة من JFK وحتى المنزل المعين سكننا فيه. تمنوا لنا نوما هانئا وطمأنونا بأننا سنتقابل غدا صباحا للحديث عن كل ما يشغلنا. تملك الجامعة قسما رائعا للطلاب الدوليين. فيزا(VISA) أو منظمة فاسار للطلاب الدوليين،ترعى الطلاب الدوليون و تهتم بشؤنهم و احتياجاتهم،وعلى رأس تلك الإحتياجات ألا تشعر أنك غريبا و دخيلا.

يبرع الأمريكان في إذابة الثلج بشكل كبير. ستندهش من تعدد الجنسيات الموجودة بالجامعة و ستشعر بأنك لست وحيداً أبداً.ألم أخبركم أن الأمريكان بارعين في إذابة الثلج؟ بهرتني الفكرة ولهذا انضممت للعمل بدوام جزئي في فيزا لاحقا.

****

توقعت ألا أنام على الإطلاق، أول ليلة أبيتها وحدي دون أسرتي. أنا في بلد غريب،بل في قارة غريبة ويفصلني عن بلدي محيط أو اثنين و قارة أو اثنين و ثلاثة عشر ساعات رحلات طيران و ترانزيت. كمّ هائل من التنطيط والشحططة، وبالرغم من كل هذا نمت كطفل رضيع.

الإبتسامة التي تلقفوني بها و اسمي الذي رأيته مكتوبا على اللافتة أشعرني بأني لم أعد غريبة أبدا. وإن لم يكن هذا كافيا،ففي الصباح استيقظنا، وقرابة التاسعة تجمعنا كلنا في حجرة المعيشة العامة بكل منزل.

خرجنا معا يصطحب كل عشرة طلاب، طالب من فيزا. يلعب دور القائد والمرشد و يمشي بظهره حيث ينظر لنا و يقدم شرحاً سريعا مشيرا بيده يمينا و يسارا على كل ما نقابله من معالم ومباني. و طبعا كانت أعيننا تتلفت في كل الاتجاهات دون أن نسمع حرفا.

وصلنا إلى المبنى الرئيسي للجامعة و هناك تجمعت باقي الفرق في البهو الرئيسي الخاص بساحة المطاعم، كانتين مصغر مصنوع خصيصا لنا. قامت فيزا بتقسيم البهو إلى طالولات تتسع كل طاولة إلى خمسة أو ستة أفراد. كل طاولة عليها مجموعة من المقبلات، الشيبسي و البسكوت و الناتشو و التوست والزبد والمربى. وفي الجانب البعيد امتلأت الطاولات بالمياه و الصودا و طاولة أخرى في ركن آخر عليها الكثير من حقائب الظهر و الإعلانات. تركونا نجلس كيفما اتفق. و بالطبع بدأنا التعارف دون أي إشارة منهم لذلك.

بعد ما يقرب من النصف ساعة، كنا قد علمنا أسماء من على طاولتنا و من أين أتوا، وماتخصصاتهم وكم عدد أخواتهم كذلك. تابعنا بفضول أحد أفراد الفيزا وهو يقف في منتصف البهو الواسع، ابتسامته لا تفارق شفتيه، يبدو واثقا و مطمئنا لأقصى درجة. عينان زرقاوان،شعر أشقر مجعد، وعضلات ذراعان تتناسق وباقي جسده. هييح! تمام ، باختصار كان شابا وسيما.

- اسمي سترايدر مكماهن. أنا طالب دولي من ألمانيا، أنا جونيور وهذا معناه أني أدرس بالسنة الثالثة ، أتخصص بالقانون و الرقص.

ياخبر! قانون ورقص. ترى أيهما صعب؟ الرقص على السلم الموسيقى أم الرقص على عتبات القانون و المحكمة؟ صمت سترايدر دقيقة ليسمح بتمتمات الترحيب

- أنا متطوع في فيزا ، وسأكون معكم هذا الأسبوع و سنقوم بالكثير من الأنشطة المرحة و الممتعة.
ارتفعت يد في الطاولة التي تجاورني وبلهجة متلعثمة قالت

- عذرا لدي سؤال.

لم تفارقه ابتسامته

- عرفينا بنفسكِ أولا.

كانت فتاة بيضاء،ذات شعر أسود وفم دقيق تزينه شفتين ممتلئتين.ترتدي بلوزة حمراء فاقعة وبنطلونا أسودا.

- أنا ناتاليا من الأرجنتين.

- أهلا ناتاليا، و سؤالك؟

- أنت قلت أنك ستكون معنا لأسبوع؟

أومأ برأسه موافقا فاحمر وجهها الأبيض و افترقت شفتاها الحمراون في ابتسامة خبيثة ثم غمزت

- وماذا بعد الأسبوع؟

علت موجة زرقاء بحر عينيه فزادت من بريقها وضحك بإستمتاع

- سأكون أيضا هنا.

أخبرنا سترايدر أننا لدينا يوما حافلا، مليئا بالألعاب و المغامرات، طلب منا أن نبقى قليلا لنكمل طعامنا، ولكن بشرط أن نغير من أماكن جلوسنا لنتعرف على باقي الزملاء. كان هناك مكانا خاليا بجانب ناتاليا، فاتجهت نحوها،جلست ومددت يدي.

- أنا نجوى سليمان، من مصر.

بدا عليها الإرتباك ، يبدو أن اسمي صعبا و طويلا

- أنا نون-N من مصر.

- اه أهلا، وأنا ناتاليا من الأرجنتين.

- أه نون برده يعنى. و ضحكنا.

****

- أنتِ بخير؟

ركضت ناتاليا نحوي حين رأتني جالسة على المقعد أمام القلعة. آن تبعتها و كازو أيضا.

- أنا كويسة مافيش حاجة،متوقعين ايه من واحدة مصرية بتشوف تلج لأول مرة بره التلاجة والتلفزيون؟

ضحكنا و اتجهنا للداخل نحو الدفء. سلّمنا بطاقاتنا للموظفة المسؤلة كي تخصم منها وجبة الإفطار،بعد أن تبادلنا القبلات معها واحدا تلو الآخر.

إنها روزالي امرآة في منتصف الأربعينات،لها بنت واحدة اسمها أماندا و تدرس الإقتصاد في جامعة الولاية. انفصلت روزالي عن زوجها منذ كانت أماندا في الثانية، ولم تره إحداهما منذ ذلك الوقت.

تعمل روزالي بجهد كي توفر لأماندا مصاريف الجامعة. أخذت قرضا من البنك بضمان عملها، وتعمل على تسديده كل شهر بخصم جزء من راتبها. امرأة طيبة، تتقاسم شقة بالإيجار مع زميلة أخرى لها. وقد دعتنا لشقتها في عيد الشكر،آخر خميس من نوفمبر الماضي.

مددت لها يدي

- حاجة بسيطة من مصر.

أشرق وجهها كله واعتصرتني في حضن طويل.

دخلنا بعد أن تمكنا بمعجزة من الهرب من حضن روزالي الدافيء. ألقينا التحية على كل أصدقائنا العاملين و أصدقائنا من الطلاب الذين عادوا. كان إفطارا رائعاً، أعدوا لنا كل الأصناف التي نحبها.

بان كيك بالتوت و الشوكولا و الموز، هامبرجر و هوت دوج ، كل أنواع الجبن و الزبد والمربى،و خضار وفواكه. كان البوفيه رائعا بحق. افتقدت المكان فعلا. وقفت في الطابور أنتظر دوري لطلب البيض.

- هطلبلك معايا يا كازو، وهات انت القهوة.

لم يكن الطابور طويلا

- صباحك جميل يا جوليا

- صباح الخير عزيزتي إن، مرحبا بعودتكِ، تحبين البيض مثل كل مرة؟

- أيوة يا جوليا بس زودي كمان بيضتين لكازو. متنسيش أنا من غير بورك ولا سبانخ.

- لا تقلقي أنا لم أنس. أعرف أن المسلمين لا يأكلون الخنزير.

- لكن هل كل المسلمين لا يأكلون السبانخ ؟ غمزت لي وضحكت.

وأخيرا التففنا ثلاثتنا حول الطاولة، نشرب القهوة و نأكل التوست بالمربى. نتبادل الحديث و نقوم من حين لآخر للترحيب بصديق آخر يصل.

- فقط ماتيلدا تأتي ليكتمل الفريق.

قالت ناتاليا وهي تشرب آخر رشفة من القهوة. وقامت لتملأ الفنجان من جديد.

- ستصل اليوم مساء؟

سأل كازو فردت آن

- لست متأكدة، نون هل تكلمتي معها؟

قاطعتنا رنة وصلت لهواتفنا في الوقت نفسه

- إيميل من الجامعة.

أوضحت آن ففتحناه معا كلا من جهازه لنجده بعنوان: احترس من الثلج الأسود. و يحتوي الإيميل على إرشادات وتعريفات بماهية الثلج الأسود الذي يتكون على الأسفلت و الخطر أنه مثل الزجاج و غير مرئي تماما. و تكون سقطته موجعة للغاية. دلّكت ظهري بخبث

- متأخر شوية الإيميل ده.

وضحكنا. فردت المربى على التوست و أخذت قضمة

- ماتي ستصل عصرا.

- سنتعشى معا إذن.

- أكيد .

أكدّت ناتاليا قبل أن تجلس. اعتدلت على كرسيها لتضيف بحماس

- ما رأيكم أن نطبخ اليوم احتفالا بالعودة؟

- فكرة جيدة.

قالت آن بحماس

- فلتتركوا الحلوى لي، سأقوم بعمل سويس رول بالقرفة.

ضممت أصابعي وقربتها من فمي

- يم يم.

أما ناتاليا فاختارت تجهيز بعض الخضار المشوي على الطريقة المكسيكية، و ستزيد السبانخ لأن آن تحبها و لأني أكرهها بالطبع. لكزتها في كتفها

- اي! حسنا فقط لأن آن تحبها.

- هممم ما رأيكم في تجهيز بعض السوشي؟

وافقنا جميعا واتفقنا أن أذهب و ناتاليا للتسوق بعد أن تأتي ماتيلدا على أن تبقى آن لأنها ستجري محادثة سكايب مع صديقها في ألمانيا .أما كازو فبالطبع عليه أن يعمل. هووف حالة ميأوس منها.

أنهينا إفطارنا وقمنا لنأتي بالفاكهة و الحلوى. مشيت أنا و آن وسألتها

- هتتكلموا النهاردة هاه؟

شوّحت بيدها

- العلاقة البعيدة صعبة جدا يا إن، يكون مشغولا عندما أحتاجه، وأكون غير متوفرة عندما يحتاجني، أنا خائفة ..

توقفت عن المشي عند هذا الحد و همت بالبكاء

- أنا أحبه كثيرا ،لكن لست متأكدة،هو طول الوقت عصبي و متوتر،يفتعل المشاكل معي بسبب ودون سبب،تعرفين هو لم يكن هكذا ،هذا ليس طبعه أبدا.

ومن الحب ما وجع! كم أنتِ رقيقة يا أن، رقيقة كوردة تيوليب بيضاء في حديقة شكسبير. أذكر أنكِ كنتِ تحبين أن تصحبينا معكِ في الخريف لتفقدها يوماً بعد يوم.

قابلت آن للمرة الأولى، مساء اليوم الذي تعرفت فيه على ناتاليا. كنت عائدة من الحمام حين سمعت ارتطام شيء ما في الحجرة المجاورة. لابد ان صاحبتها تواجه مشكلات في ترتيب الحقائب.

أدرك هذا لأن حجرتي كانت عبارة عن مأساة كونية ليومين كاملين،حتى تمكنت أخيرا من تنظيم كل شئ كما أردت. طرقت الباب و سمعت صوتا رقيقا من الداخل لم ينجح الباب في أن يحجب التعب الذي ألَم به

- من هناك؟

- أنا نجوى،زميلتك بالحجرة المجاورة.

فتحت الباب قبل أن أنهي كلامي، مدت يدها و تصافحنا

- عذرا لابد أني أزعجتكِ بالزلزال الذي أحدثته منذ قليل.

- ههه لا أبدا، من أين نبدأ؟

بعد ساعة تقريبا ،بدأت معالم الحجرة في الإتضاح. وبعد ساعة أخرى كنا قد أتممنا المهمة بنجاح. ودون سؤال،اتجهنا نحو حجرة الزميلة الجديدة من فرنسا و التي كانت تحدث زلزالا جديداً في غرفتها بدورها. بعد ساعتين أخرتين من الترتيب ارتمينا ثلاثتنا على السرير وقد غزانا التعب.

- أنا جعانة.

- أشعر بالجوع.

- أريد أن آكل حالا.

قلناها معا في وقت واحد و ضحكنا كثيرا. الموقف نفسه لم يكن ليستدعي كل هذا الضحك. كنا نضحك لنؤكد لأنفسنا بأننا لسنا وحدنا في هذا البلد الغريب. ثلاثة فتيات التقين من ثلاثة بلدان مختلفة و تمكنَ في أقل كثيرا من نصف يوم – من تأسيس صداقة ستستمر دون الإكتراث لسياسة ولا حدود ولا حكومات. أقبلت ناتاليا مع صديق آخر..

- أقدم لكم، كازو صديقنا من اليابان.

تبادلنا التعارف و اتجهنا لتناول أول عشاء لنا في المبنى الذي ضمّنا نحن الخمسة. لست أذكر مَن مِن بيننا أسماه القلعة و لكن أذكر السبب جيدا، القلعة مبنى محصن،يشعر من بداخله بالأمان ولسبب أو لآخر تشعر أرواحنا الهائمة بالأمان ونحن معا، مُتَحَدِين سويا أي لغة وأي عائق أو حاجز قد تخلقه الغربة بقصد أو بغير قصد.

4

نــون

بالأمس كان عيد ميلادي، أتممت عامي الثالث والثلاثين. خرجت أنا و زميلاتي للإحتفال في كافيه اعتدنا الجلوس فيه منذ كنا بالجامعة. رحتُ مرغمة.

كانت هناك الكثير من الإختلافات. أولها ، أن مها لم تكن مطلقة. أما أنا فازددت تيهاَ. لم تعد تشغلنا نفس الإهتمامات ولا تستثيرنا نفس المواضيع. هل كبرت؟ أم هم من صغروا؟ لست أدري. الآن ستخبرنا وفاء عن فلانة التي تزوجت أو علاّنة التي علمت بأمر حملها من أسبوعين.

مالي أنا وفلانة التي ضبطت زوجها يخونها؟ وعلانة التي تشكو من حماتها؟ هووووف أنا أختنق. زواج وطلاق وخيانة و حمل ورضاعة و تطعيم و إسهال و سخونة و صداع. موجات عالية من الصداع تغرق عيني فلا أرى سوى إهتزازات.

- فرح جهاد محمد كان من أسبوع.

شهقت وفاء بانفعال. فعلا! ياله من إنجاز.

- كل سنة وهو طيب.

قلت متهكمة

- لا دي عروسة يا نجوى.

لا يكففن عن إبهاري

- خلاص كل سنة وهي طيبة.

وغمزت لمها فضحكنا بإستمتاع أما الباقيات فمطين شفاههن في شفقة لحالنا. مزيد من أخبار الزيجات بمجلة النميمة التي تتولى وفاء رئاسة تحريرها. موجة عالية أخرى من الصداع ، و سنة حلوة يا جميل.

توالت التهنئات و أتت التورتة. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أحتفل بصمودي في متاهة نفسي عاما آخر. افتعلت ضحكات السعادة لما يقرب من الخمس دقائق. حتى الرضيعين مع اثنتين من زميلاتي كانا قد توقفا عن البكاء المتواصل و استمعا لغنائنا.

شردت من جديد . كانت مها أول من تزوجت وهي في السنة الأخيرة. فجأة ودون مقدمات أتت لتخبرنا بأن..

- كتب كتابي الأسبوع الجاي،وأنا عايزاكوا معايا،أنا ماليش غيركو.

ولم نتركها،كان الفرح بعد عقد القران بأسبوع واحد. في أسبوعين اثنين تم اختطاف مها من وسطنا. لا تعود دهشتي لفكرة أن مها تزوجت وهي تدرس. دهشتي كان مردودها أن مها تزوجت من الأساس.

مها كانت دوما ما تخبرنا بأنها ترغب بنيل درجة الماجستير،وقبلها كانت تحلم بأن يتم تعيينها معيدة. لذا كان تقديرها العام ممتازا طوال الثلاث سنوات. ما فهمته منها بعد محايلات و ضغط ، أن أباها هو من ضغط عليها لتوافق على ابن عمها المقاول الكبير.

ابن عمها الذي لم تكن تشعر نحوه بأي عاطفة تؤهلها للزواج منه والذي يكبرها بخمسة عشر سنة كاملة. وحينما سألناها لم التسرع إذن؟ قالت بأن هذه رغبة امرأةعمها و عمها و أبيها في أن تتم الزيجة قبل أن يسافر العريس ليعود إلى شغله بالسعودية.

أذكر شكلها جيداً يوم الفرح. كانت متماسكة وباردة لأقصى درجة. لا ضحك ولا ابتسام ولا بكاء ولا أي شئ. كانت كمن تساق إلى حتفها. عيناها كانتا في مكان آخر. روحها كانت في قاعة المحاضرات،عقلها كان في إمتحانات الترم القادم وماستحمله لها. أما قلبها فكان تحت حذاء أبيها و عمها و عريسها. يتبادلون الدعس عليه.

كان أبوها أول من قام بنزعه من صدرها حين أنبأها بأنه وبقرار شخصي – قام بإلغاء كل ماحلمت به،حين قرر تزويجها من ابن عمها. عمها تلقفه من أبيها و ألقى به أرضا حينما قرر هو الآخر تحديد موعد العرس مع امرأته وذلك في أسبوعين اثنين كي يرغم ابنه على الزواج قبل أن يسافر. أما ابن عمها فقد داس على قلبها بحذائه حينما رفض رفضا تاما قبول رجائها في أن تعود للجامعة بعد أن يسافر لتكمل سنتها الأخيرة فقط.

- ده أنا نزلت بُست على جزمته يا نجوى.

قالتها لي من وسط عبراتها ونهنهاتها المتشنجة حينما ذهبت لزيارتها بعد سفره.

- طب ماقلتيش لأبوكي يمكن يقدر يأثر عليه؟

علا نشيجها

- أبويا قالي اسمعي كلام جوزك.أنا دلوقتي ماليش حكم عليكي،انتي في بيته هو دلوقت. أي بيت وأي جوز ده يا نجوى؟ده قعد معايا أسبوع واحد. و أي بيت ده ؟ أنا معرفش فيه حاجة ومخترتش فيه حاجة.

توقفت عن البكاء فجأة

- أنا أمي وهي بتموت وصته علي وقالتله يسيبني أكمل تعليمي لإنها كانت بتحلم تكمل تعليمها.

عاودها البكاء

- لكن هو مستكتر عليها ترتاح وهي ميتة،مش كفاية إنه اتجوز عليها وهي بتموت واحدة قدي ومتكلمتش؟

أخذتها في حضني و بكينا .

طردت الذكرى السوداء باستماتة و بعدت بناظري بعيدا عن مها. التفت نحو رضيع وفاء أداعبه

- عقبال ماتجيبي واحد زيه.

- قصدك عقبال ما ربنا يرزقني بواحد زيه،أنا يعني هجيبه من السوبر ماركت؟ ده رزق يابنتى.

ضحكنا

- الأسطورة بتقول إن فيه حياة عادية قبل الجواز فاكراها؟

سألت فردّت مها

- علميا مافيش حاجة اسمها كده يا ماما. البنت لو طلعت القمر و كتبت كتاب عن علاقة ألين وبريداتور بتأثير التدخين على المواطن هنا ، فالأم هيكون موقفها..

قاطعتها وأنا أيمم كفتي يدي نحو السماء في وضع التضرع

- عقبال كتب كتابك يابنتي ومش مهم يكون بيدخن، بكرة هيتغير بعد الجواز والخلفة.

ضحكنا بجنون وأكملتُ مشيرة بسبابتي لوفاء

- وعلى فكرة الخلفة دى رزق،مش شرط أول ما أتجوز أحمل و أخلف،في ناس بتتجوز صغيرة ومبتخلفش غير بعد التلاتين.

اندفعت وفاء

- وده مين الى هيصبر عليكى لبعد التلاتين إن شاء الله؟

لاح أثر الضيق على وجهي،أمسكت الشوكة وقطعت من التورتة ألوكها في فمي بغلّ.

- نون بتتكلم صح يا وفاء،كل حاجة رزق.

صرخت مها

- وانتي اش دخلك انتي؟طب انتي واحدة فاشلة معرفتيش تحافظى على جوازتك،عايزاها تخيب خيبتك؟

تكهرب الجو فجأة. تحول وجه مها إلى اللون الأزرق. انقطع عنها الأكسجين وأحسست وكأنها ستفقد الوعي. حتى الرضيعين انفجرا بالبكاء وكأنهما تأثرا بهجوم وفاء العنيف.

- كل سنة وانتي طيبة يا نون .

قالتها مها ببطء وكأن الكلمات تتصارع بداخلها كي تخرج، واندفعت هي كقذيفة نحو باب الكافيه.

****

لو بقيت كنت لأمزق وجه وفاء بالشوكة في يدي،ولكنى آثرت الخروج وراء مها. لحقت بها عند الباب

- أرجوكي يا مها استني،انتي عارفة وفاء متخلفة ولسانها متبري منها.

لم تسمعني ، تحول وجهها من الأزرق إلى الأسود الآن، أمسكت بيدها محاولة منعها من ركوب التاكسي الذي أوقفته فهتفت بي في رجاء

- عشان خاطري يا نجوى سيبيني أمشي.

تركت يدها و تابعت التاكسي بسخط وهو يبتعد. حدث الأمر كله في دقائق. ااه لماذا أتيت؟ كنت أعلم بأني لو دخلت المطعم الآن سأتسبب في فضيحة، أقسم بالله لو كانت وفاء بمفردها دون رضيعها لدخلت وجررتها من شعرها الآن.

وفاء طبعها حاد وعنيف، مسحوبة من لسانها مثلما يقولون. لكن من منا بلا أخطاء؟ كلنا نمشي على حبل رفيع كالبهلوانات، في محاولة لخلق نوع من التوازن بين النقيضين. أحيانا نتغلب على الجانب المعتم بداخلنا،وأحيانا يغزونا ظلامه ويقهرنا كما حدث في الداخل منذ قليل.

هداني تفكيري أن أعبر الشارع نحو رصيف الكورنيش. مشيت نحو السور وأنا أشعر بدمي يغلي في عروقي. وفجأة ارتطم بي شخص كبير الحجم و شعرت بشيء لزج يغطي طرحتي ويتشربه شعري. صرخت و تعثرت و شددت الرجل معي دون قصد. كان رجلاً غريبا لم يتوقف عن السباب بالرغم من أنه هو المخطيء. هو من ارتطم بي.

- ايه ده مش تاخد بالك؟

لم يتحرك الرجل و لكنه أخذ يسب ويلعن،سبات بذيئة تضاعف من غضبي. تركت وفاء في المطعم لأجد وفاء أخرى هنا. ياللقرف!

قمت بسرعة

- يادي النيلة ده أنا شعري جه عليه صلصة ولا ايه ده؟

منك لله يا وفاء،هذا مادار بتفكيري. صرخ الرجل

انتي طلعتيلي من أنهي داهية؟

ولم أفق إلا وهو ممسك بشعري بين قبضتين حديديتين. طرحة شعري تهدلّت. كان غاضبا لأني أهدرت الصلصة على شعري. لم يتوقف عن السب واللعن المصحوبان بأصوات نابية من حنجرته. إن كان الأمر بيدي لأخبرته أني لست معتادة على غسل شعري بالصلصة و بأنه هو من أخطأ و.. مهلاً هذا ليس رجلا

- انت واحدة! أقصد انتي واحدة؟

كانت امرأة في ملابس رجل. حركاتها، ملامحها وحتى صوتها. كانت فجة جدا وعنيفة جدا جدا. فوجئت بنفسي أفكر في أمر آخر تماما غير ما يفترض أن أفكر فيه.

فبدلا من أن أصرخ بلا توقف مثلا،أو أن أحاول ضربها والهرب. وجدت نفسي أتسائل عن مقدار الغضب الذي من الممكن أن يتواجد بداخل إنسان ما ليكون بكل هذا العنف.

الغضب بداخل هذه المرأة يقارب ما بداخلي تماما والدليل أنها أمسكتني من شعري مثلما كنت أنوى أن أمسك بوفاء منذ دقائق. كيف يمكن لغريبين لا يعرفان أصلا بوجود أحدهما الآخر أن يمرا بنفس الشعور و يقوما بنفس الفعل في نفس الوقت تقريبا؟ لعله نصيب الغرباء ذو الأرواح المشرّدة المقدر لهم أن يضمهم القرب في يوم ما.

هدأت فجأة ورجوتها أن تترك شعري على أن آتيها بعلبة كشري أخرى و لكنها دفعتني بعنف وصرخت في بأنها ليست شحّاتة.عدلت من طرحتي و تركتها وعبرت الطريق واتجهت نحو المطعم.

انتويت أخذ حاجياتي و الإستئذان دون كلمة زيادة وإلا سوف أغير رأيي و آتي بوفاء من شعرها بجد هذه المرة. كنت أخطو نحو المطعم وأنا أشعر بيعينيها ترقباني. كانت تشغلني فكرة أخرى تنتابني من حين لآخر، فكرة التخفي من الوجود.الإحتماء بطاقية الإخفاء. عرفت بأني سأعود لأسألها الكثير من الأسئلة التي لا أعرف لها إجابة.التفت نحوها لأجدها فعلا لازالت تراقبني بعينيها فهتفت

- أنا نجوى. وأصحابي بيقولولى يا نون.

دفعت الباب أمامي و دخلت.

5

124

جَادَة رَايْمُونْدْ

لفاسار أربعة بوابات. تحيط جادة رايموند ببوابتّي فاسار الشمالية و الغربية. تحوي الجادة الكثير من المنازل الخاصة بهيئة التدريس و بعض الطلاب الذين يفضلون السكن خارج الحرم الجامعي. موقعها متميز و يبعد مسافة سير بسيطة فقط عن الحرم الرئيسي،كما أن المنطقة تتسم بالهدوء والخصوصية.

هناك بعض المطاعم التي تعد وجهة للكثير من الطلاب الذين يرغبون بكسر الروتين و الهروب من وجبات المقصف الرئيسي. تتنوع المطاعم في محاولة لجذب الأذواق المختلفة،فهناك مطعم هندي و آخر مكسيكي و ياباني و إيطالي و عربي.

للأسف المطعم العربي مقفل منذ الخريف الماضي لذا لم تتح لي فرصة الذهاب و التعرف على الناس هناك.لكن أحيانا ما أذهب أيام الجُمع للصلاة في الجامع الصغير في حارة العرب في جادة كوليدج،أيضا ليست بعيدة عن هنا كثيرا. تقريبا ثلث ساعة بالتاكسي.

و جنسيات كثيرة من المغرب العربي وحتى الخليج. كل جمعة تنظم أسرة مختلفة الغداء. مرة الأكل من المطبخ المغربي و أخرى من الشام. كبسة سعودي ومنسف كويتي و مقلوبة أردنية و كسكس مغربي وكشري مصري. وحدة عربية مصغرة على طاولة الغداء، لا بأس بها أبدا طالما لن أجوع.

تضم الجادة أيضا متجر فاسار الخاص وأنا للأسف لا أستطيع المقاومة، فكلما مررت بالمتجر أشتري تذكارا أو اثنين، ولهذا فقد تقرر أنه ممنوع علي دخول المتجر إلا للضرورة القصوى لشراء الكتب الدراسية و بشرط أن يصحبني واحد من الرفاق . لقد أعلنّا حالة التقشف القصوى من أجل التجهيز لأجازة الصيف. وبناء عليه صدر الفرمان.

****

وصلت ماتيلدا من ساعة. سلّمنا عليها و تركناها لترتاح قليلا. خرجت أنا وناتاليا للتبضع و شراء حاجيات العشاء.

خرجنا من الممر الخلفي و مررنا بقاعة شيكاجو الموجود بها أقسام اللغات .تقدم المنحة التي فزت بها- لطلابها عرضا مميزا. فإلى جانب تلقينا الكورسات والدروس كطلاب ، بإمكاننا العمل كمدرسين مساعدين.كلٍ يقوم بتدريس لغته الأم تحت إشراف الجامعة والقسم الخاص به،وذلك في مقابل راتب شهري بسيط.

لذا تعتبر قاعة شيكاجو المقر الرسمي لعملنا. سنجهز العشاء في مطبخ القاعة ومن ثم سنأكل في أحد الأقسام التي يقع عليها الإختيار. سيقع الإختيار في الغالب على قسم اللغة الألمانية لأنه الأقرب للمطبخ.

- ناتاليا، هل تملكين في كارد خاصتك؟ أنا تقريبا نسيتها!

سألت وأنا أفتش جيوبي بقلق. لا أستطيع دخول حجرتي دون المفتاح في بطاقة الهوية.

اه نسيت،بالطبع متجر فاسار يسمح لك باستخدام الكاش على البطاقة،ولذا تم سحب البطاقة مني. الرفاق جادون جدا فيما يتعلق بقرارهم غير القابل للنقاش.

ملعب التنس مشغول بمباراة ودية بين مجموعة من الطلاب و الطالبات. يقع الملعب في الجانب الغربي من الحرم. ويفصله بضعة مترات عن البوابة الخارجية.

خرجنا من البوابة،عبرنا الطريق و اتجهنا ناحية المتجر. محل الورود مفتوح إلى جانبه كافيه للقهوة والدونات. رائحة الورد والقهوة تجذبان الزبائن فلا تكاد الطاولات تفرغ إلا في المساء. اه لو نملك وقتا! قطعت ناتاليا محاولتي في مهدها وبادرتني بسؤال نجح في شغل تفكيري عن دخول الكافيه أو المتجر
- كيف حال إم؟

- بخير الحمدلله. عملت لي عيد ميلاد رائع!

أخذت أثرثر وأحكي لها. منحتني ابتسامة حنون ووضعت يدها اليمنى على كتفي . التفتُّ ورائي

- اممم ألا نستطيع المرور لتفقد الكتب فحسب ؟

ضحكت وضمتني إليها في حب.

****

سوبر ماركت الهند الجديدة يرحب بعودة طلاب فاسار. هذا ما قالته اللافتة الكبيرة التي لابد وأن أديتي قام بتثبيتها لقرب إنتهاء الأجازة.

أديتي خان هندي لطيف في أواخر الأربعينات.أتي أمريكا لأول مرة في تبادل طلابي وفّرته حكومة الهند لمدارس المرحلة المتوسطة.

ولد أديتي في قرية صغيرة شمال الهند. هو الأخ الأكبر لثلاث بنات.كانت والدته تعمل خيّاطة في المنطقة التي يسكنون بها،أما والده فتقاعد مبكرا بسبب إصابة عمل اضطرته أن يمشي على عكاز.

لم يعتمد والد أديتي على العكاز الخشبي بقدر ما اعتمد على أديتي نفسه. لذا كان حلم أديتي ومسؤليته أن ينهض بمستوى أسرته.

تقدم الحكومة فرصة للطلاب المتفوقين من الهند في القدوم والبقاء لمدة فصل دراسي كامل في إحدى مدارس الولايات المتحدة التابعة للإتفاقية. كان ذلك في أوائل التسعينات تقريبا حينما وصل أديتي الصغير ذو الخمسة عشرة عاما إلى ولاية نيويورك أو (نون الكبيرة) كما يحب أن يسميها و (نون القصيرة) كما يحب أن يسميني أنا.

التهم أديتي كل شئ بعينيه. الشوارع و المنازل و المباني. كان يلتقط صورا لكل ما يمر به و يخزن ما يلتقط في ركن سري من عقله. كان يتلفت في كل الاتجاهات بشكل كان مثيرا لأعصاب المشرف المسؤل عنه وباقي زملائه

- منذ شهرين وأنت لم تتوقف عن التلفت يا أديتي. ألم يزل انبهارك بعد؟

- أنا لا أتلفت لأني منبهر يا أستاذ.

- لماذا إذن؟

سأل أستاذه بفضول و ارتفع حاجباه دهشة لجواب تلميذه الواثق

- أنا أحاول الاحتفاظ بكل العناوين في رأسي حتى لا أتوه عندما أعود وحدى.

وبالفعل نفذ أديتي وعده و عاد بعد أكثر من خمس سنوات. وبعد محاولات كثيرة من ملء الإستمارات وخوض الإختبارات و الأسئلة الشفوية والتحريرية. استقر أديتي في الولايات المتحدة الأمريكية. عمل مساعدا لرجل إيراني وزوجته.

- فزت بالوظيفة لأني طويل.

كان دائما ما يضحك وهو يعايرني بقصري

- لو كان الأمر معكوساً لعدتِ إلى مصر من أول يوم.

بدأ أديتي بترتيب الرفوف العلوية للمتجر الإيراني. لخمس سنوات كان هذا أحب شئ إلى قلبه. حياته كلها تركزت في الرفوف العلوية. كان يأكل ويشرب وينام هناك.

اكتسب ثقة الزوجين الإيرانيين و عاملاه كابن لهما وقبل أن يموتا ساعدا أديتي الصغير في تأجير المتجر من بعدهما. تزوج أديتي و أتى بأسرته : امه وابيه واخواته الثلاث وزوجته و سميرابنه الصغير ذو الخمس سنوات.

أسرته الصغيرة مثلما يقول. وهم يساعدونه في إدارة المتجر الآن. همس لي يوما بأنه يأتي بالسلم ويصعد لينام في الرفوف العلوية عندما يجافيه النوم. أنا لا أتوه أبدا. هذا ما يتفاخر به دوما أمام الجميع وخاصة أنا.

****

تساقطت أوراق الشجر بألوانه الخلابة لتخلق طرقا وممرات ملونة مبهجة. رياح سبتمبر معتدلة. كانت قد امتدت موجة حارة للغاية مصحوبة بالمطر في أواخر أغسطس لما يزيد على العشرة أيام.

هنا يتساقط المطر في الصيف و تثلج في الشتاء. لابد وأن الصيف كان مستاء للرحيل لذا كان متشبثاً بحرارته لآخر يوم في أغسطس. ولكن سرعان ما رضخ وانهزم أمام خريف سبتمبر.

الساعة الثانية عشرة ظهرا. كان يوماً خريفياً رائعاً. لم أكن أعلم أن الشجر وحده قد يكون مبهجاً لهذه الدرجة.

لبست بطاقة هويتي الممغنطة حول رقبتي كي لا أنساها. و أخذت الخريطة و خرجت. كان من الحمق أن أظل حبيسة غرفتي في يوم جميل كهذا.

أردت أن أكسر حاجز الخوف عندي وأخرج في جولة حرة وحدي. أنا هنا من أسبوعين تقريبا. وهناك طاقة سحرية في الجو تجبرك على الخروج و الإستكشاف و التجول.

أشعر بأني لا أستكشف المنطقة وإنما أستكشف روحي. منذ أتيت وأنا أشعر بأني أخرى. أنا أخرج. أنا أتكلم. أنا أبتسم. أنا أعمل. أنا أدرس. أنا أتنفس.

هذا كل ما كنت أرجوه وقد تحقق رجائي أخيرا. أنا حقاً أتنفس. وقفت وفتحت ذراعي. أخذت نفساً عميقاً وحبسته داخلي وأخيرا زفرت. زفرة محبوسة منذ ثلاثين عاماً.

كنت قد ارتديت قميصاً من الرصاصي والمارون ، لون الجامعة الرسمي،وبه حرفي VC . كان هذا أول ما شتريت من المتجر.ارتديت معه جينز أسود. غطيت شعري ببونيه مارون مخطط.

لم أتوقف أمام المرآة لأرى ما إذا كانت ملابسي متناسقة. لم أقلق لكون أحد سيلحظ إذا ما كان الكم شفافاً قليلا من عند الكوع. من سيهتم لأمر كوعي هنا؟ هل القميص واسعا قليلاً أم ضيقا كثيراً؟ أيضا لا يهم .

مشيت ومشيت ومشيت. لم أمشي كل هذه المسافة طوال حياتي والغريب أني لا أشعر بالتعب. لم لا أشعر بالتعب؟ وهل يجب أن أشعر بالتعب؟ كل هذا لا يهم.

توقفت كثيراً لأتبين اتجاهاتي و مررت بالكثير من الأبنية التي سأحفظها عن ظهر قلب قبل إنتهاء سبتمبر. كنت مأخوذة ولم أرد تضييع لحظة في التساؤل.

وبعد ساعة أخرى من المشي شعرت فجأة بالجوع وبالعطش الشديد. مددت يدي في جيبي لأنظر في ساعة الموبايل. الساعة الخامسة والنصف. أنا أمشي من خمس ساعات.

- تمام أنا جعانة فعلا وعطشانة.

تلفت حولي،كان هناك الكثير من الأبنية التي لا أذكر اسمها. اتجهت لأقرب مقعد وفتحت الخريطة.

- أنا هنا عند البوابة الغربية.

رفعت رأسي لأجدها على بعد 30 متر تقريبا. رفعت رأسي عن الخريطة ونظرت باتجاه البوابة.

أخذت نفسا و قمت. كان متجر فاسار في الجهة المقابلة.عبرت الشارع و دخلت المتجر. بالطبع ليس بالداخل مشروبات و لكني استمتعت بالتجول حتى نسيت عطشي و جوعي.

نسيتهما لفترة قليلة و لكن سرعان ما عاودتني الرغبة في الشُرب. فخرجت و عبرت الشارع مرة أخرى لأجد مجموعة من السوبر ماركت.

أستطيع أن ألمح مكتب البريد من مكاني ولكن لا وقت للذهاب الآن،فالشمس تقارب على المغيب، كما أنه ولابد مغلق الآن. انتقيت أقرب متجر ودخلت. كان متجرا كبيرا.

- مساء الخير.

قلتها للرجل الجالس على الكاشير،فأومأ لي بابتسامة و دخلت. السوبر ماركت مقسم إلى أروقة عديدة. اتجهت نحو ركن المشروبات أولا. أخذت زجاجة مياه،فتحتها و شربت نصفها فورا.

اتجهت لركن المأكولات الخفيفة والبسكويتات. انتقيت بسكويتا صغيرا بالبندق. ولكنني تركته حينما رأيت علبة أخرى ملونة و مكتوب عليها اسما غريبا. حسنا لا أعلم ماهو الفلاب جاك، لاسمه وقعا يبدو كلعبة قمار يمكن أن تلعبها في فيجاس.

اه فهمت إنه الجرانولا. لا أعلم ماهي الجرانولا ولكن مكتوب أنها قالب للطاقة. أنا بحاجة إلى الكثير من الطاقة خاصة بعد الجولة الجنونية التي قمت بها طوال اليوم.

-تعالي يا جاك.

فتحت القالب و أكلته . طعمه حلوا. أخذت واحداً آخر .بحثت بعيني عن الكاشير حتى وجدت واحدا في الركن الجنوبي فاتجهت نحوه. شربت زجاجة المياه في الطريق و أخذت أخرى. معي الآن فتات قالب جرانولا و زجاجة مياه فارغة. وقالب وزجاجة أخرى جديدين.

الشمس غابت بالفعل وأنا خرجت من باب أخر غير الذي دخلت منه.

- برافو يا نجوى!

لا داعي للخوف لابد وأنني في الناحية الخلفية للمبنى. مشيت حتى ابتعدت عن الباب .فقط سألتف حول ال...قطع أفكاري صوت ارتطام زجاج بالأرض. لم أرى شيئاً ولا أحداً. وفي لحظة واحدة امتلأ ذهني بكل أفلام السفاحين والقاتلين المتسلسلين و الكائنات الفضائية.

ما الحل؟ هل أركض نحو المتجر أو أستمر في الركض نحو الشارع؟ هل أصرخ؟ . لا ركض ولا صريخ. سأعود إلى المتجر وأخرج من الباب الذي دخلت منه

- لا حاجة لكلام فارغ يا.....

صرخت وبترت كلامي عندما شعرت بيد توضع على كتفي

- عذرا هل أخفتكِ؟

لم أنطق.

- خرجت من المتجر ورأيتكِ تتلفتين حولكِ.

لازالت محاولاتي في النطق فاشلة ولكني قادرة على هز رأسي الآن. تفحصت الواقف أمامي. ملامحه ودودة للغاية. طويل واختلط شعره الأسود مع الأبيض. وابتسامته واسعة تلتهم وجهه البني كله

- أنا أديتي، وانتِ؟

أخذني أديتي من يدي و لففنا حول المبنى

- هذه هي البوابة.

تابع بابتسامة هادئة

- هل تحبين أن أمشي معكِ قليلاً؟

هززت رأسي مرة أخرى وعبرنا الطريق.

كان أديتي حنوناً حقاً. لم يشعرني بالحرج ولم يشر إلى أني تهت أبدا، إلا عندما نكون وحدنا فهو يستمتع حقا بإغاظتي وأنا كالطفلة أغضب وأنكر فيضحك و يهز رأسه في تتابع سريع مثلما يفعل دوما وهو فرحان. ثم نضحك معا.

عرض علي أديتي أن يمشي معي قليلاً. لا أن يوصلني ولا أن يعرفني الطريق. وكأني أنا من أمنحه خدمة بالسماح له بالمشي معي. حقاً اختيارك للكلمات قد يغير موقف الناس ورد فعلهم كليا. فما قد تفسده كلمة،قد تصلحه كلمة أخرى ،والعكس، شريطة أن تكون صادقة.

وصلنا للبوابة ودون اتفاق منا لم نتوقف. استمرينا في المشي و الحديث. حتى كانت السابعة ووصلتني رسالة واتس آب على جروب المطاريد بأنه موعد العشاء وبأنهم بانتظاري في القلعة.

عرضت على أديتي أن أصحبه للعشاء لأعرفه على أصدقائي ولكنه شكرني بأدب لارتباطه بموعد عشاء مع زوجته. أخبرني عن متجره ووعدته بزيارته ومن يومها و أنا والكثير من أصدقائي نشتري حاجياتنا من عنده. ومن يومها و أنا لم أتوه أبدا.

****

- سوبر ماركت الهند الجديدة يرحب بطلاب فاسار.

دفعت الباب و أنا أقلد المكتوب على اللافتة بهندية مكسرّة . بوغت هو ورفع رأسه بفرح،وفي قفزة واحدة كان أمامي.

- إن القصيرة

فتح يديه وهمّ باحتضاني. لم تهتز ابتسامتي ولم أرجع للوراء

- أعرف بأن الفتيات المسلمات لا يقمن باحتضان الرجال الغرباء.

مددت يدي و احتضنت يده في سلام طويل، وبهنديتي الركيكة قلت

- وحشتني.. يا أديتي..ووحشني .. دروسنا.

- وأنا أيضا يا صغيرتي القصيرة،افتقدتكِ كثيرا.

عدت للإنجليزية

- يا أديتي أنا لست صغيرة ، ثم انا احتفلت بعيد ميلادي 34 في الأجازة وأنا في مصر.

هز رأسه يمينا ويسارا في تتابع سريع

- لا صالح لي بهذا كله،أنتِ صغيرتي.

التفت لناتاليا وكأنما لاحظ وجودها الآن. اعتذر و مد يده ليسلم عليها،فرفعت حاجبها في مكر

- أنا أحتضن الغرباء على فكرة.

ألقت بنفسها في حضنه . بعدها التفتت نحوي وفرقعت سبابتها

- سنحتفل بعيد ميلادك مرة أخرى هنا بالمناسبة.

فهتف أديتي بحماس

- أنا موافق جدا.

هممت بالإعتراض فرفعت ناتاليا يدها أمام وجهي علامة إنهاء النقاش مثل كل مرة. التفت إلى أديتي فهز رأسه في نفس التتابع السريع. تنهدت

- أين الولد سمير حبيب عمته نون ؟

6

مـيـم

أخبرتني أنها بالأمس فقط كانت تحتفل بعيد ميلادها. أتت ومعها قطعة من جاتوه الشوكولاتة والكريمة و شوكتين،وأصرت أن نتقاسمها معا.

جلسنا على السور الحجري. وجهنا للنيل وظهرنا للشارع. غابت الشمس أو كادت. بدأت أنوار نوادي طلخا في الجهة المقابلة بالتلألؤ. غريبة هي هذه الفتاة. تتكلم فأسمع.تطلب فأنفذ.

حتى أنها طلبت مني أن أكف عن السب ولكني أخبرتها أن هذا مستحيل. السب والشتم هي الوسيلة الوحيدة التي بفضلها لم أفقد عقلي بعد.

أخبرتها أني وبعد الخامسة عشرة بكام سنة،وأنا في الشارع وللشارع قوانين لابد وأن تتبع. على رأس تلك القوانين ألا تدع في نفسك شيئا إلا وقلته. إن فرحت اضحك بأعلى صوتك. وإن حزنت املأ الدنيا صراخا وعويلا وابكِ كما لم تبكِ قبلاً وكأن الشارع ملكك وحدك. وإن غضبت فثر و كسّر و سب واشتم.

هناك من تحتم علينا بيئته أن يكتم كل هذا. الضحك بصوت عال غير مقبول. والغضب والعصبية لا يجوزان.و الحزن نكد لا محل له من الإعراب. قل لي ما الذي يتبقى لك بعد أن يسلبوك مشاعرك؟

- جوة كل واحد مننا الحلو والوحش،الشارع بيطلع أحلى حاجة فّي،لكن برده بيطلع العربجي الي جوايا.

قلت لها فضحكت. يا الله ضحكتها جميلة هذه البنت. لست أدري السبب بالضبط ولكن يبدو أن كل شئ وأي شئ أقوله يضحكها. والغريب أن هذا لا يستثيرني، بل يفرحني في الواقع. ودون حساب مني بدأت أثرثر وأثرثر دون توقف.

****

أنا أصلا من الصعيد الجواني،لا أذكر اسم قريتنا ، ولكن أخبرتني أمي أنها في أسوان . كان أبي الحاج عبدالكريم يشتغل بالزراعة. كان عنده قيراط أرض ورثها عن جده لأبيه. كان جدي ابنا وحيدا،وأبي أيضا كان ابنا وحيدا. إن كانت أسرتنا تتوارث شيئا فهي الوحدة لابد. استيقظت ستي في صباح يوم من الأيام و حكت عن حلم راودها بأنها تأكل التمر عند الكعبة.

- بلح أسود بيلمع مشفتش زيه يا أبو عبد الكريم.

أصبح شغلها الشاغل تحقيق الحلم. ولكن من أين؟ لم يكونا ليملكا حق الذهاب، حتى لو باعا القيراط .ثم كيف يبيعاه وهو سند عبد الكريم الوحيد.

تعبت ستي فجأة دون مقدمات. يهتز جسدها و يرتعش و يستحيل ثلجا. يجمع جدي أغطية البيت الفقير و يستدين من جيرانه. ولا تهدأ الإرتعاشة ولا يدفأ الجسد. الحق يقال لم يتوان جدي ولم يتقاعس عن محاولاته لمعرفة ما ألّم بستي بالضبط.

اصطحبها معه لكثير من الأطباء في الوحدة الصحية بالقرية، ولكن دون فائدة. أشارت عليه إحدى جاراتهم بأن يصحبها للشيخة صابحة. والشيخة صابحة،لا شيخة ولا يحزنون ولا أحد يعرف لها أهلا ولا بيتا. فقط رأوها في صباح أحد الأيام عند الساقية القبلية ومن يومها لم تتحرك لا شتاء ولا صيفا.

أشارت عليه الشيخة بأن الست لابد وأن تحقق حلمها.وذلك قبل أن ينطق جدي بحرف واحد وقبل حتى أن يشير من قريب أوبعيد لأي حلم.ليلتها أحضر جدي ابنه عبد الكريم ذو العشرة أعوام ،أوالاثنا عشرة لست متأكدة. و أخبره بأنه مسؤل عن قيراط الأرض الآن. وبأنه وأمه ذاهبان لأكل التمر عند الكعبة.

- هترجع امتى يابا؟

سأل أبي بهلع فأجابه أبوه وهو يربت على كتفه بأنه سوف يطعم أمه التمر و يعودا فورا. وعندما تجمعت الدموع في عين أبي أحاط جدي به يضمه بقوة ووعده بأنه سيأتي له ببعض من تمر أمه ، فتكمل هي

- بلح أسود بيلمع ومشفتش زيه يا عبدالكريم يا ضنايا.

شئ من اثنين: إما أنه لم يكن موسم التمر. وإما أنهما أحبا البلح الأسود الذي يلمع ولم يريا مثله، فلم يقدرا على تركه والعودة. فأبي لم ير أبواه بعد تلك الليلة. ولم يذق البلح الأسود الذي يلمع أبدا. لم يعرف حتى إن كانا قد وصلا للكعبة أم لا.

المهم أن الناس من يومها أخذوا يطلقون عليه هو لقب حاج وكأنهم بهذا يعوضونه عن خسارة فقد أبويه وفقد التمر الذي وُعد به.

كل هذا أخبرتني به أمي وأكثر. أخبرتني أن جيران أبي لم يتركوه و قد قاموا بتزويجه ابنتهم التي أصبحت أمي فيما بعد. لم يخن الجار عهد صاحبه. أخذ ابنه و زوّجه طفلته. لم يكن زواجا بالمعنى المفهوم فقد كانا (عيال) لا يفهمان بعد معنى الزواج ولكنهما أحبا أحدهما الأخر فليس للحب سن أو قانون يحكمه.

أن تجد روحاً أخرى و تشعر بأنها من تكملك وتمدك بالأمان الذي تحتاجه دون النظر لسن أو لغة.لربما هذا هو الحب ولربما هي المودة والرحمة التي تحدث عنها ربنا في قرآنه الكريم.

كان جدي وستي لأمي ينامان على الكنبة الكبيرة وينام أبواي على الحصيرة تحت أرجلهم. " كنا مستورين" تحكي أمي.

ومثلما أحب جدي ستي. أحب أبي أمي. تمام، تتوارث أسرتي الحب أيضا، لا الوحدة فحسب.

كان بيتنا في البلدة التي لا أذكر اسمها، يبعد عن قيراط أبي قرابة كيلو أو اثنين. وكانت تمشيهما أمي كل يوم وليلة دون كلل أو تعب لتوصل الغداء لأبي ظهرا ،وتعمل معه حتى المغرب ليعودا معا في العشاء.

يأكلان لقمة و يناما ليعيدا الكرة من جديد. كانا سعداء. شئ واحد كان ينغص عليهما عيشتهما وهو أنه قد مر على زواجهما ثلاث سنوات دون أن يرزقا بأولاد.

تخبرني أمي بأن هذه كانت أسوأ ثلاث سنوات في عمرها كله. عمرها الذي لم يتجاوز الأربعين عاما على كل حال،ولكن ماعلينا.

بدأت ستي لأمي (بالزّن) لتّت وعجنت كثيرا والملخص: أن هذه الزيجة شؤم. وإنه خطأهم من البداية أنهم لم يزوجوا ابنتهم لابن عمها الذي معه "زوربة عيال"

- جوّزنا عيلة لعيل ياختى.

كانت تولول .

كان جدي ينهرها دائما

- ياولية بلاش هبل دول لسه عيال.

ولكن لا فائدة.لم ترتدع إلا بعد أن حلف عليها جدي بالطلاق إن ذكرت هذا الأمر أمامه مرة أخرى ليرميها في النيل للتماسيح. فأصبحت لا تذكره إلا من ورائه.

وقتها أذن جدي لأبي بأن يعود إلى بيته القديم هو وأمي لكي يسلما من لسان امرأته.

- أمي شارت علّي أروح للشيخة ياسي عبكريم.

أمي كانت دائما ما تأكل الألف واللام ومعهم الدال ليخرج اسم أبي هكذا "عبكريم". انتفض أبي غاضبا و أقسم بكل الأيمان بأنه يستحيل يترك امرأته تذهب لحتفها برجليها. لم ينس أبي أن تلك الشيخة هي من أشارت على أبيه بترك ولده وأرضه و الرحيل.

بكت أمي كثيرا. وحين تعبت من البكاء، أشارت على أبي بأن يتزوج. فحضنها ولم يقل شيئا.

****

أنهينا قطعة الجاتوه . فركت كفي أخلصها من بقايا الكريمة البيضاء. لمحت نون تنظر إلى باطن كفي بفضول. ترغب في سؤالي عن آثار الحروق بالطبع ولكنها غيّرت رأيها.

ثم عدلت من وضع كم قميصها و أشاحت بوجهها بعيدا. قرار جيد منها ، ليس هذا وقته ثم أنا لا أضمن نفسي ولا رد فعلي. أمسكت نون العلبة والشوك لترميهما في النيل. أمسكت يدها بعنف.

اخشوشن صوتي

- انتي هتعملي ايه؟

نظرت لي بخوف فأكملت

- لو رميتي الزبالة دى هنا أنا هرميكى وراها.

تعثرت الكلمات فوق شفتيها

- أنا.. أنا اسفة أنا..

هاجمتها

- انتي ايه بالظبط؟ فاكرة عشان انا عايشة في الشارع أبقى زبالة؟ ولا فاكرة عشان بلّم الزبالة أبقى زبالة؟ انتي الي زبالة مش أنا.

و تركتها لصدمتها ومشيت.

7

المَطَارِيد

دخلنا واتجهنا مباشرة للمطبخ. وجدنا كازو وماتيلدا هناك، آن لم تصل بعد. صفقت ماتيلدا بيديها بجزل و أتت تفتش في الأكياس عما اشترينا.

- هل أحضرتما أرز السوشي؟ سأل كازو

- أكيد. أجابت ناتاليا وهي تناوله إياه.

سألتهما عن آن

- تتحدث مع صديقها و قالت بأن نسبقها.

فابتسمت بإطمئنان. طالما يتحدثان سيكون كل شئ بخير. حتى وإن كانا يتجادلان فهذا جميل أيضا. أن تتجادل مع من تحب، وأن يصل صوت شجاركما للجيران و جيران الجيران، خير من أن تصمتا و تقتلا الحوار بينكما تاركين الدفة للتجاهل ينهش كل مابينكما ببطء.

اتهمني بالجنون و لكن عندما تكف المرآة عن مجادلتك، ابدأ بالخوف فورا. إذا ما وجدت أن حبيبتك توقفت عن معاندتك،وقلّت محاولاتها الطفولية في مقاوحتك ونكشك،قف و اضرب نفسك قفا لتفيق، فهذا معناه أن هناك خطب ما. ماذا إن لم تقدر على ضرب نفسك بنفسك؟ سؤال جيد، اسألها هي أن تضربك لتفيق، وكلما سارعت باكتشاف المشكلة كلما حللت الموضوع قبل أن يتفاقم.

الصمت أقوى من كلمات كثيرة،والصمت في حضور من تحب عبادة. هذا إذا ماكان بين ضلوعك،تحتضنه يديك وتضمه عينيك. لكن أن تكون في واد ومن تحب في واد آخر فهذا ليس تعبداً وإنما كفرا.

لي صديق تعرفت عليه في إحدى فعاليات الجامعة، علّمني الكثير بهذا الشأن . أقسم لي صديقي بأنه قد قارب على ترك حبيبته لكثرة التيه والتوتر الذي نشأ بينهما فجأة ودون مقدمات. لم يعد يدري ما المشكلة أصلا! كانا قد تعرفا على بعضهما في السنة الأخيرة.

كانت تتخصص في علم الحيوان ويدرس هو البرمجة. التقيا في صف لليوجا. كانا في عش الحب و يخططان لكل شئ معا و لمستقلبهما بعد التخرج.

بدآ في اختيار المدينة التي سيسافران إليها بالفعل. كان قد قدم و نجح في الإلتحاق بوظيفة متدرب لدى إحدى شركات البرمجة الكبيرة في واشنطن. في حين أنها كانت ترغب بالسفر إلى بوسطن والعمل على دراساتها العاليا بالمتحف المائي هناك.

واشنطن و بوسطن،بدا الأمر مستحيلاً ولكنهما نجحا في الوصول إلى حل. و ثبت القرار على أن طلب هو نقله إلى فرع الشركة ببوسطن لمدة عام لحين انتهاءها هي من مشروعها. وافقت هي و هو إيمانا بالفكرة التي تحميهما وتقيهما شرور علاقة بعيدة المدى.

- لامانع لدي من علاقة طويلة المدى،فأنا أرغب بالإحتفاظ بك طول عمري،ولكن لا أوافق أبدا على أن تجمعنا علاقة بعيدة المدى.

هذا ما كانت تلقيه على مسامعه دوما. وهما يأكلان الفشار بعد فيلم يوم السبت. وهما يتمشيان على ضفاف البحيرة. وهما يقطفان التفاح معا ويتذوقان النبيذ في المزرعة.

- أنا عشت عمري للآن وحيداً،ولكن لن أكمله وحيداً أبداً،ليس بعد أن وجدتكِ.

و يأخذها بين ضلوعه في حضن طويل. و دون أية مقدمات قلّ حديثهما. هكذا فجأة. بعد أن كانا يتحادثان طول الوقت،أصبحا لا يتحدثان إلا لماما.

حاول كثيرا وحاول وحاول ولكن دون فائدة. قرر أن يعزمها على العشاء ليتحدثا معا للمرة الأخيرة وليخبرها بصدق في أنه لم يعد يستطيع الاستمرار.

كان قدر قرر تركها معتقدا بأنها تتعمد تجاهله وكلما سألها كلما اشتد صمتها. تعب صديقي وقرر بأن ينهي الأمر برمته مؤمنا بأن هذا ماتريده،ووافقت هي. بهدوء ثم شكرته على العشاء وخرجت.

يخبرني بأن هناك هاتف ما أو صوت داخلي أنبأه بأن يقوم ورائها. لم يدري لماذا فعل ما فعل . إن كان قد جلس لكان الأمر انتهى بالفعل ولما كان ليراها أبدا وما كانت لتصبح أم ابنه وبنته بعدها بعدة سنوات. وجد نفسه يلحق بها و يناديها

- فقط أخبريني ما المشكلة بالضبط لأفهم ؟

ولما لم تذعن لندائه شدها قسرا ليجدها تبكي بصمت

- أنت لم تعد تتجادل معي مثل ذي قبل.

هذا كل ما قالته بعدها انفجرت بالبكاء و ارتمت بحضنه. هي لم تجرحها كلماته ولا آلمها جداله ، ما كان موجعا لها بحق ،ومالم تقدر على تحمله كان صمته .

يا الله! المرآة هي المرأة، مصرية أو أمريكية أو مريخية حتى. الفرق أن لو كان هذان الزوجان في مصر لانتهى الأمر قبل أن يبدأ. لأصبحت هي مثالا للمرآة النكدية المصرية الأصيلة وهو للرجل الخائن.

والحقيقة في حالات ليست بالقليلة- أن لا هي نكدية ولا هو بصباص، ولكن كلاهما انهزاميان. تركا الصمت يسيطر على صوت العقل ويبتلعه ليترك لهما فراغا كبيرا و صدى يرد علي ذكرياتهما بالوجع و الخيبة.

***

كازو هو المسؤل عن تجهيز الأرز للسوشي. ذات مرة ألححت على كازو أن يتركني أساعده و بعد الكثير من الزّن وافق.

- الأرز الياباني الذي نستخدمه للسوشي غير الأرز العادي ، واضح؟

سألني بحزم فهززت رأسي كتلميذ نجيب

- لذا لن نقوم بتقليبه ولن نرفع الغطاء ولن نزيد المياه عن المقدار الذي حددته لكِ.

- فهمت طبعا. لن أزيد المياه كي لا يصبح عجينا. هل تظنني حمقاء لهذه الدرجة؟

نظر لي كازو بشك ولم يملك سوى أن يهز كتفيه.

- سأذهب سريعا لتسليم ورقة المشروع و أعود.

وبالفعل لم يكن هناك أي داع لقلق كازو. وضعت المياه التي حددها و لم أرفع الغطاء ولم أقلب الأرز. في الواقع نسيت أصلا الأرز على النار و تركت المطبخ كله.

خرجت للحمام. لمحت واحدا يدخله. فانتظرت حتى انتهى وخرج. وعند عودتي قابلت صديقة لي كانت تحضر صفا مسائيا، و أخذنا نتحدث حتى سمعنا جرس الإنذار.

- ماهذا؟ يبدو آتيا من المطبخ.

- من الواضح أن أحدهم نسي الموقد .

قلتها براحة تامة وأنا ألوح بيدي. يانهار أسود! أنا من نسى. كازو سيقتلني. سمعتي ضاعت. سيتم تصنيفي إرهابية ولا شك. ضاع مجد العرب. فلتسامحنني يا فتيات لقد خذلتكن وحرقت الأرز. ليس أرزا عاديا ولا أرز بسمتي حتى وإنما أرزا يابانيا.

- جتك خيبة مش عارفه تعملى شوية رز يا مايلة؟

وبّختني ميم عندما حكيت لها في الأجازة.

جريت نحو المطبخ لأجد كازو هناك بالفعل ممسكا بالحلة الكهربائية. يتصاعد منها الدخان ليغطي نظارته. اتجهت نحو جرس الإنذار و أطفأته. أتت ناتاليا و آن و ماتيلدا و قبل أن ينطق أيا منهم أشرت بإصبع مهتز نحو كازو

- احم أنت من طلبت مني عدم فتحه أو الاقتراب منه .

تمام، يكفي أن أقول أني الآن مسجلة خطر قسم أرز ياباني. إن حدث و قرر اليابانيون منحي الجنسية،سيظهر كازو فجأة ليخبرهم بواقعة الأرز الشهيرة. كازو لا يعرف أبيه في هذه المسائل.

****

كان كازو حريصا على أن يترك مسافة آمنة بيني وبين الأرز. لم ينفع الزن بأي حال. على كل هو المسؤل هذه المرة ولكنه كان طيبا فسمح لي أن أقوم بتقطيع الشرائح البحرية وتجهيزها للحشو. ناتاليا تقوم بتجهيز الفرن من أجل شواء الخضار. وكنت أنا وماتيلدا على طاولة عالية في ركن قصي،نقوم بتقطيع البطاطس.

- ناتو، هل نقوم بتقشير البطاطس ؟

- لا اتركي القشر كي يمنحها القرمشة التي تحبها ماتيلدا.

أكدت ماتي

- أنا أحب المقرمش.

- لو لم يحب الفرنسيون المقرمش من سيحبه؟

ضحكت ماتيلدا

- وماذا يحب المصريين؟

- الأرز المحروق.

أجاب كازو دون أن يلتفت. رميته بحبة بطاطس كانت في يدي و ضحكنا بهستيرية. طلبت ناتاليا من ماتي أن تترك تقطيع الخضار لي ولتبدأ هي بتحمير بعض شرائح الهامبرجر.

- أم ستحرقينها؟ أعرف بأن الفرنسيون يهوون إشعال الحرائق.

غمزت ناتاليا .

- عمّ تتكلم؟

سألتُ فأجابتني ماتيلدا وهي تضحك

- تقصد قصر نابليون. و مطت شفتيها

- أنا درسته في صف الفن الكلاسيكي ،اه كان بناء رائعا. خسارة.

صفقت بكفيها في جزل

- لكن مبنى فاسار الرئيسي مستوحى منه.أذكر أني قرأت هذا.

- وقصر الشناوي في المنصورة.

نظرت لي باستفهام

- سأحكيلك عنه لاحقا. هل أتولى أنا التحمير والقلي؟

- أنتي أيضا ممنوعة من استخدام البوتجاز، نسيتي؟

أخرجت ماتيلدا لسانها تغيظني

- أووف الحق علّي، سأسكت أفضل لي.

- على سيرة الحرائق..

التفتنا نحو ناتاليا التي أكملت

- هل تعرفون أن المبنى الرئيسي قد تعرض لحريق كبير زمان؟

تمام ،أنا و فريقي الدولي عنصريون ونفتخر. أيقننا أننا أصبحنا عائلة لا مجرد أصدقاء عندما أصبحنا نتبادل النكات العنصرية و نتهكم على نفسنا بنفسنا. توقف كازو عن لف السوشي فجأة حينما أتته رنة وصول إيميل. سألت ناتاليا بغيظ

- هل هناك شيئا آخر في حياتك باستثناء العمل؟

- يا ناتاليا كازو ياباني لو لم يقم من الفجر للعمل سيحترق يا ماما.

- ماذا عنكِ يا إن؟

- ماذا يعمل العرب تحديدا؟

سألني كازو دون أن يرفع رأسه عن الهاتف.

- لقد حصلنا على منحة تفرغ للإرهاب.

- تأخذون الجمعة والسبت للتجهيز؟

- فعلا! و باقي الأسبوع للتنفيذ.

ضحكنا .انفتح الباب فجأة فتوقفنا في ترقب لنجدها آن رفعت ناتاليا يدها و شدت جسمها

- هايل هتلر!

وتقطعت أنفاسنا من الضحك.

هناك stereotype أو سيناريو،صورة بذاتها يحتفظ بها عقلك لما قد يكون عليه طباع و ميزات كل شعب. لكن هناك دائما من سيشذ عن القاعدة سواء بالإيجاب أو السلب. مثلا، الأمريكان يعرف عنهم الشئ وضده.

شوارع نيويورك أقرب مثال على ذلك. شوارع المدينة المزدحمة التي لا تنام. إن جربت وتابعت وجوه الناس في الصباح وقت ذهابهم إلى العمل. ستجد طوفانا من البشر يمشون في صفوف طويلة دون أن تختل ودون أن تتوقف لحظة لإلقاء تحية أو تبادل نكات وأخبار.

في الواقع يقوم الناس بترك حارة خالية على الرصيف لمن يتجول من السياح. بالطبع لم نكن نفهم وكنا نتخبط وسطهم. كنا نقف فجأة لنشير لتمثال أو نبدي إعجابنا بمبنى لنفاجأ بأننا ارتطمنا بشخص ما فنعتذر و يمشي الشخص دون أن يقبل أو يرفض الإعتذار.فنتأفف نحن و نبدي شفقتنا على النيويوركرز الذين ابتلعتهم دوامة العولمة فقضت على إنسانيتهم.

هراء يا صديقي، دعني أقولها لك بصدق. نحن من لا نرى جيداً فإذا ما دققت في هذه الروبوتات التي تمشي ستجدها تبتسم لك ودون أن تتوقف أو تؤخر طابور الناس حولها. ابتسامة لا تتعدى اللحظة تلتقطها عيناك وتعتادها حين تختلط بهم أكثر.أو حين تنضج كفاية، وتسمح لنفسك برؤيتها.

أيضا من الطرائف التي خالفت سيناريوهاتي، أن الأمريكان بارعين في انتقاء ملابسهم. بالرغم من أنهم يملكون أشهر بيوت الأزياء و يتبنون أسبوع الموضة في نيويورك وغيرها،لكنهم في الحقيقة لايهتمون بملبسهم.

بروفيسور اللغويات أتى إلى الصف أكثر من مرة مرتديا لوحة من الألوان المتداخلة. بنطلونا بنيا مخططا على قميصا أزرقا كاروه ،مصحوبا بقبعة أبيض في أسود.

و مرة حينما ارتدى قميصا أبيض وبنطلونا أسود ووجدت نفسي غير قادرة على النظر إليه. عيني كانت تؤلمني ووجدته باهتا بعد أن اعتدت رؤيته في ألوان غريبة وغير متناسقة.

أما الألمان فمعروفون بالصرامة والحزم. ثم أتت آن من مدينة هامبرج. أو مدينة الهامبرجر كلما أحبت أن تغيظنا بأننا ندين لهامبرج بفضل اكتشاف الهامبرجر. فلو لم يذهب الرحّالة النيويوركرز إلى ميناء هامبرج ثاني أكبر مدينة ألمانية، في مطلع القرن التاسع عشر لما تم تقديم (شريحة هامبرج) من اللحم المفروم ذات التوابل المميزة و الشهية لهم. وبالتالي ما كانوا ليسموها هامبرجر، وما كنا نحن لنجد ما نأكله اليوم. لذا فالعالم كله مدين لألمانيا بالشكر على واحدة من أشهى المأكولات التي حمته من أن يموت دون تذوق تلك المعجزة. تقول وتخرج لسانها لنا وتختم إغاظتها لنا بضحكة تتخطى حدود هامبرج نفسها. ضحكتها التي تستمر حتى في أحلامها،وبهذا قد نسفت فكرتي هذه تماما.

عموما لسنا الوحيدين الذين نقع فرائس لنظريات اخترعناها أو استقيناها من مصادر غير موثوقة. يقع بعض الأمريكان أيضا فريسة لما تبثه لهم نشرات الأخبار أو بعض الأفلام مجهولة المصدر والتي تبين أن العرب عموما والمسلمون خاصة يتناولون القنابل على غير ريق و يدربون صغارهم على قتل الأجانب و السياح قبل أن يحكون لهم حدوتة ما قبل النوم.

عندما كنت أفكر بأن هذه ستكون صورتي وسطهم بالخارج كنت أتقلب في سريري كالمجنونة. كيف أمحو هذه الصورة؟ هل أقول بأن العرب مشهورون بالشيشة وفقط؟ آآه تعبت ورميت بسيناريوهاتي من أقرب شباك .

8

نــون

" كلما اقتربت منها ابتعدت". ميم- منصورة عبدالكريم. هذا الكيان الغامض الذي يحمل الشئ ونقيضه. أخيرا بدأت في كشف أوراقها. أخذت تحكي و تتحدث دون توقف. أخبرتني عن أهلها و عن منشأها. عندما بدأت الحديث لم أكن أعتقد أنها ستنتهي بهذا الشكل.

لست أدري ما الذي يشدني نحو ميم هذه؟ هل الجواب أوضح من أن أراه؟ هل أرى فيها نفسي؟ هل منصورة عبد الكريم هي مستقبل نجوى سليمان أم ماضيها؟ إن كان مستقبلا فهو أسود بالتأكيد.

أم تراني أرى فيها تطبيقا حيا لفكرة الماجستير التي سيطرت على تفكيري لسنوات؟ الهجين. الأرواح المهجنة التي تعيش بيننا دون أن نراها أو نشعر بها.

الهجين الذي تناوله بحثي كان هجينا نفسيا وثقافيا. هجين يتسلل بخفة تحت جلدك دون أن تشعر.

أصل الحكاية تبدأ مع هجينين من جنسية مختلفة، ثقافة مختلفة، لغة مختلفة،وفكرمختلف. التقيا و ارتبطا واندمجا واتفقا واختلفا وذلك عبر سلسلة متشابكة من النمطية المنظمة،أو النظام العشوائي. و أخرجا للوجود هجينا آخر وآخر وآخرفي سلسلة لا تنتهي.

نار وثلج. شمال وجنوب. نهار وليل.هل لك ان تتخيل حياة مثل هذه؟ أن يكون عقلك شرقيا لكن قلبك غربي؟ الكل يمشي من اليمين و وحدك من اليسار أو العكس. قد يراه البعض الكمال في حد ذاته. وقد يراه البعض الآخر التشوه في أبشع صوره.

ليس عليك أن تسافر وتعبر بحارا كي تختبر كل هذه المعكوسات. قد تكون موجودة وقابعة داخل خلاياك تنتظر الزناد الذي يحركها و يستحثها فحسب.

"وكلما ابتعدت عنها عدت." اه يا ميم من أنتِ بالضبط؟ هل أنتِ التي تعيشين بالشارع أم أن الشارع هو من يعيش بكِ؟ أنا الزبال وأنتِ صاحبة النظافة هذا ما أثبتيه لي بالفعل.

ولكن هل أنتِ الفتاة الرقيقة التي تطلب مني أن "أسد ودانيّ" كي لا أسمع سباتها؟ أم الوحش العنيف الذي لا يتردد عن إغراقي إذا ما أخطأت؟ هل أنتِ أصلا امرأة متخفية في ملابس رجل أم رجلا محبوسا في جسد امرأة؟ لم أعد أفهم.

****

أرسلت رسالة واتس آب لمها أطلب فيها أن نتقابل. أرغب بالحديث معها بعد الواقعة (المنيّلة) التي قامت بها وفاء.

مها هي الأقرب لي منذ كنا في الجامعة. هي و شيماء العزيزة. كنا نحن الثلاثة معا دوما. نتخيل مستقبلنا ، بشكل مختلف عما آل إليه بالطبع.

مها ستتعين بالجامعة. أنا لازلت تائهة أبحث. و شيماء ستتزوج. كنا نغيظ وفاء دوما،ونخبرها بأن شيماء ستسبقها وتتزوج. كانت في عش الحب،هي و علي رحيم. لازلت أذكره جيدا.

كان شابا عاديا. مقبول لا يميزه شئ. ولكنه بالنسبة لشيماء كان ممتازا مع مرتبة الشرف. هووووف الغباء والرعب وجهان مشوهان لعملة الحب الصدأة.

تعرفت عليه بالسنة الأولى وارتبطت به طوال سنوات الجامعة. أسطورة حب الجامعة الطريفة والمثيرة للغثيان. كل ما كنت أحفظه غيابيا هو أن شيماء لا ترى حياتها بدونه. وتغير كل شئ بالطبع. هو تخرّج وتزوج بأخرى وهي بآخر وانقطعت أخبارها. وتاهت شيماء.

لمَ تصر الحياة على قلب كل توقعاتنا وخططنا و رميها بأقرب حاوية؟ ماذا فعلنا لها كي تعاملنا بكل هذا السخط؟ هل وجودنا وحده كاف لإثارة غضبها؟ ثم إن كانت تنوي تنفيذ ولا شئ من أحلامنا، لمَ إذن تتركنا لنحلم بها من الأساس؟ شئ عجيب.

قطعت أفكاري وصول رنة تفيد رد مها بالموافقة. سأقابلها في كافيه في منطقة المشّاية بعد العصر. تمام سأنزل من بيتي في قرابة الثالثة.

أعيش وحدي في بيت عمتي بإحدى قرى المنصورة. عشت مع عمتي بعد موت أبي و أمي. لي أخ وأخت أكبر مني.

يعيش أخي حسام في بيتنا القديم بحي الجامعة. وتزوجت أختي سلوى وسكنت في شقة عند ستاد المنصورة.

كنت أعيش مع أخي في بيتنا القديم حتى تزوج. بعد موت أبواي كثر الشجار والنقار فتدخلت عمتي الأرملة و اصطحبتني للعيش معها.

أصلا كثيرا ما كنت أبيت معها ، بمشاكل وبغير مشاكل لذا رحبت بالفكرة ولم يمانع أخي. قضيت سنوات دراستي بالكلية مع عمتي. في الحقيقة لست أتخيل حياتي كيف كانت لتكون لولا تدخلها.

كانت حنونة. لم ينعم الله عليها بالأولاد،لذا كانت تعاملني كابنتها حتى قبل أن يموت أبواي. كان معاش زوج عمتي بالكاد يكفيها و يكفي دوائها.

فقررت أن أعطي دروسا خصوصية. وحتى بعدما نلت درجة المجاستير لم أتقاعس بل ازددت همة، و بفضل الله تحول البيت إلى منحل. كانت عمتي دائما تدعو لي بانصلاح الحال و رزق حلال و راحة البال .وبالفعل رزقني الله ،برزق حلال وبراحة البال وأنا معها. ولكن كانت عمتي تريد أن تمتد راحة البال لعريس ابن حلال.

- نفسي أفرح بيكي وأشوفك بالفستان.

ورحلت عمتي قبل أن تراني بالفستان. أعتقد أني خيبت أملها في هذا الشأن ولكن ما بيدي حيلة. كنت دائما ما أضاحكها

- أنزل أعمل إعلان في مجلة الكلية يا عمتى؟

فتضحك بتحسر

- لا يابنتي كله بأمر الله،أنا بس مش عايزة اسيبك لوحدك لو جرالي حاجة.

- ربنا يديكي طولة العمر يا ستى محدش عارف مين هيموت قبل مين.

ماتت عمتي قبلي. ومات أبي وأمي أيضا قبلي. لم أختر هذا ولم أنتظره. يبدو أن هذا مصير كل من أحبهم. عموما لم يموتوا وحدهم فأنا أيضا مت. ربما أنا أفضل حالا وحدي.

هناك دراسة في أمريكا، أو علّها طرفة، المهم أنها تفيد بأن الفتاة إذا ما جاوزت الثلاثة وعشرين عاما سيكون من الأسهل توقع أن تموت على يد هجمة إرهابية،على أن تتزوج.

هذا رائع يا نجوى أنتِ تنطبق عليكِ الدراسة جدا. وها أنا أفوز في مسابقة دون أي محاولة مني. ولم أخيب ظني بنفسي. رفضت كل عريس تقدم لي. أنا لست أطلب المستحيل كما يقول أخواي. ولست (أتنطط) على خلق الله ولا أتدلع كما تزعم وفاء. مع أني لست أرى مانعا من الدلع و التأني في الاختيار.

باستثناء أن مجتمعنا هو من سلبني هذا الحق. ثم كيف تواتيني الجرآة لأتدلع و قد جاوزت العشرين دون عريس؟ الأفضل أن أرجم نفسي بنفسي. تمام يا مجتمع أنا أخرج لساني لك الآن.

في بالي صفات معينة لست أجدها في أي ممن حاولوا التقرّب مني. صفات عادية جدا في الواقع،ولذا فأنا أكاد أجن من عدم توافرها للآن. صفات تتلخص في صفة واحدة وهي أن يكون من يرتبط بي (رجلاً) . أرأيتم؟ ليس الأمر بهذا السوء. بلى إنه بهذا السوء.

لو كان نجيب محفوظ حيا لعلم بالأدلة القاطعة بأن آفة حارتنا انعدام رجالها لا نسيانهم فحسب. نسى رجالنا كيف يكونوا رجالاً. كل يوم كانوا ينامون و يقولون غدا سنصبح رجالا. مثل يأجوج ومأجوج ،أنساهم الله أن يقولوا إن شاء الله. لذا نام الرجال ليصبحوا ذكورا،صورا ممسوخة ومشوهة لأشباه وأنصاف رجال. الطريف في الموضوع أن من ربّى هذا الجيل المشوه، امرآة. لذا أنا الملومة في النهاية. هاه انقلبت الطرفة علي.

لم يأت لبابي من يملك رغبة صادقة. لكن من أتى كان يحب شكلي الكيوت. أو يحب أن يغير ما لا يعجبه. أو يطمع ببيتي. أو يحب أني أعمل، أو يحب أني وحيدة لا أب ولا أم ولا عمة. أطرفهم كان عاطلا عن العمل و يرغب في أن أترك عملي كذلك. وعندما سألته عن السبب قال مندهشا من حماقة سؤالي

- مش لما أبقى ألاقي شغل أنا الاول تبقى هي تشتغل؟

اممم وجهة نظر ؟ ولكني لا أوافق. حلف خالي يمين طلاق بأن لا يأتي لي بعريس بعدها. صدق خالي في حلفانه. لم يأتي لي بعرسان ثاني ولا ثالث. لم يأتي أصلا. لا في عيد ولا غيره. ليس مهما.هووف اختنقت.

لماذا نذهب لدكتور نفساني وأمامنا الفيس بوك كله لحضور جلسات علاج جماعي؟ فتحت اللاب توب و كتبت بوستا طويلا على صفحتي.

في عمر كل فتاة فترة زمنية تقع من الحسبان و من الذاكرة. في البدء توجد الطفلة ،يليها المراهقة و الشابة. غالبا ما تكون لدى هذه الشابة أفكار وطموحات و رغبات عدة،ثم ارتباط و زواج. يلي تلك الفترة ثقبا أسودا كبيرا يبتلع بداخله كل شئ. لتظهر تلك الشابة من بعده، امرأة غريبة بأفكار أغرب.
حسنا سؤالي دون إطالة: ايه الي حصل للبنت في الفترة الزمنية دى؟ وقعت على دماغها؟ شربت كُلّة؟ ولا جوزها سقاها حاجة أصفرة عشان تتغير هي و تطلع لينا جيل مايعلم بيه إلا ربنا ؟ -

سمايلي فيس يضحك وآخر يفكر - نشر - تم.

***

كان عندي مجموعة حصص. أنهيتها و بدأت أستعد للخروج. شنطة كبيرة مكوّمة تحت السرير فأنا لم أعد أضع ملابسي في الدولاب منذ زمن. صيفي أم شتوي، خريفي أو ربيعي لا يهم فكله مثل بعضه.

هكذا أسهل صح؟ للأسف أصبحت أضيع وقتا كثيرا في إنتقاء ملابسي. لا أذكر أني كنت هكذا قبلا. كنت ألبس أي شئ أشعر بالراحة فيه و أخرج. على ألا يستغرق كل هذا خمس دقائق. أذكر أني كنت أسرع من أخي في ارتداء ملابسي. أما الآن فقد تغير كل شئ.

تقيدني نظرات الناس. أشعر بعيونهم تلاحقني في كل مكان. عيونهم تحرق ظهري. لا أستطيع التنفس. أختار و أقف أمام المرآة. لا هذا ضيق. هذا شفاف. أعتقد بأن هذا اللون سيجذب الأنظار إلي. حقا أنا لا أدري ما الذي يحدث لي!

أصبحت أرغب بلبس طاقية الإخفاء. أفكر أحيانا أخرى بالتنكر في ملابس ولد. اه و لهذا وقعت أسيرة في فلك منصورة. ترى هل سأقابلها اليوم؟ أم أني لازلت خائفة منها؟ فلأترك الموضوع لوقته. اه هي طاقية الإخفاء ،الحل يكمن بها، لعلّي أسير دون أن أشعر وكأني أحترق تحت الميكرسكوب. بعد نصف ساعة كنت على السلم. سارعت الخطى حتى وصلت للموقف و ركبت.

9

مَـوسمُ الـهِجرَة إِلـى أيـن؟!

أول أسبوع في فبراير. عاد الجميع. امتلأ الحرم الجامعي بالراكضين في كل مكان .تفرقت الضحكات والبسمات هنا وهناك. عادت فاسار إلى الحياة. وتلون الثلج بألوان مبهجة من الأحمر و الأخضر و الأزرق و الأسود.

عشرات من الطلاب يتحركون في حماسة. يحمل البعض المظلات لتفادي هطول الثلج. فيما قرر الباقين مثلي الخروج دونها للتمتع برقائق الفشار الأبيض التي لا تكف عن النزول.

اليوم الاثنين بداية الأسبوع. السابعة والنصف صباحا تناولت الإفطار أنا وكازو أما الباقين فكانوا مشغولون بصفوفهم الصباحية.عندي صفان أنهيت أولهما – الدراسات الأمريكية والممتد من الترم الأول- من ربع ساعة تقريبا. والثاني بعد نصف ساعة من الآن في قاعة الدراسة بمتحف الجامعة.

عدت للسكن سريعا أصلي الظهر وأترك بعض الأوراق و آتي بأخرى. خرجت من الباب الأمامي و مشيت باتجاه المتحف.

يقع المتحف بعد خطوات من البوابة الشمالية،في المنتصف بينها وبين المبنى الرئيسي. لا زال هناك نصف ساعة،لذا بإمكاني المرور بالكانتين و شراء مشروابا ساخنا.

لا يكف الثلج عن التساقط. أبدو كليلى لكن بدون ذنب بالبالطو الأحمر الطويل . شنطة الظهر الخفيفة أضع بها اللاب و الكتب كي لا تبتل. أما أنا فلا أمانع أبدا أن تداعبني ندف الثلج.

أحب أن أشعر برقائق الثلج وهي تضرب وجهي برفق و تذوب عليه. تشعرني بأني حية. أحكمت من وضع الشنطة على ظهري.و انتقيت خطواتي بعناية، تكفيني وقعة واحدة.

رفعت رأسي أرقب السماء، مغيمة ولا أثر للشمس. إنه يوم رائع،هذا طقسي المفضل ولاشك. آه لا أستطيع التخيل أني في فبراير الماضي كنت لا أزال في مصر. لم تكن نتيجة المنحة قد ظهرت بعد. وفي الحقيقة لم أكن واثقة من نجاحي.

وعلى مدار سنة ونصف تقريبا اجتزت الكثير من الامتحانات والمقابلات. يبدو الأمر سهلا عند تلخيصه في تلك السطور. وحدي أعلم بما مررت به كي آتي هنا،لأخطو بهدوء وتؤدة و كأني أملك المكان بمن فيه.

توقفت أمام المبنى الرئيسي. الدور الأرضي يحتوي على بعض المكاتب الإدارية بالإضافة إلى الكانتين الفرعي الذي يظل مفتوحا طوال فترة الأجازات. سأمر على صندوق البريد. كنت قد قدّمت في بعض برامج الماجستير والدكتوراة في لندن وأمريكا و أنا بانتظار الرد. منطقة البريد تحتل الجانب الأيمن .أربعة جدران كبيرة مقسمة لصناديق معدنية صغيرة. صندوقي في الجدار الثاني،الصف الثالث من الأسفل رقم 517. أدرت المفتاح. وجدت بعض المنشورات الدعائية. مددت يدي أكثر علّي أجد ورقة هنا أو هناك.

لا شئ. زفرت بتوتر حاولت دفنه سريعا، ودفعت باب الصندوق بيدي لأقفله.

اتجهت ناحية بار المشروبات. تسري الشائعات بأنه حين كانت (جين فوندا) تدرس هنا حدث وقد تأخرت يوما على موعد الشاي فذهبت دون أن ترتدي القفازات و عقد الؤلؤ كما كان متبعا وقتها فطلبت منها المشرفة بأن تخرج وألا تعود بدونهما. بعدها بدقائق اقتحمت جين المبنى وهى تقود دراجة نارية ، مرتدية القفازات والعقد ولا شئ سواهما.

كحبوب القهوة نحن. نولد بأرواح ملونة وهشة لا رائحة لها ولا طعم. ثم نتحمّص في فرن الحياة فنخرج وقد صار لوننا داكنا. الآن تصير لأرواحنا عبقا يستثير الحياة ويستفزها لدفعنا في ماكينة قهوتها فتطحن بذورنا و تعركها بتجارب و مواقف لم نعهدها قبلا. وقد نصاب ببعض الحروق ولكن تلك المرارة فقط هي التي تمنحنا طاقة الإستمرارية لنواجه و نعاند فيبقى مذاقنا قويا ولاذعا. يتركز في سقف حلق الحياة التي تتوقف عن إبتلاعنا في آخر لحظة ويظل أثر طعمه باقيا فيها. مرارتنا في حلقها ورائحتنا النفاذة التي اقتحمت رئتيها أجبرتها ألا تستغني عنا فأصبحت تسأل عنا كل صباح. لا هي تبدأ يومها من غيرنا ولا نحن ننجو ونحيا إلا وقد طحنت بذورنا مجددا.

الطابور طويل في فترة الظهيرة. بالطبع يرغب الجميع في مشروب دافئ في هذا الصقيع. مددت عنقي لأرى من الموجود في الخدمة الآن. أه إنه جورج الأفريقي الأسمر ذو الشعر المجعد و العيون العسلية الناعمة. أتى جورج في الخريف الماضي،وقت وصولي أنا تقريبا. وقع نظره علي فلوحت له و ابتسمت.

-إن! مرحبا، كيف يومكِ؟

التفتّ لأجد سترايدر ورائي.

- سترايدر أهلا أنا بخير. وأنت؟ هل أنت مشغول الآن؟

- لا كنت في صف الأسبانية و سأذهب إلى القلعة لتناول الغداء مع بعض الزملاء. هل ترغبين بالقدوم؟

- للأسف لن أستطيع،عندي محاضرة.

هز كتفيه

- لاحقا إذن.

- باي!

مشى خطوتين و توقف

- صحيح تذكرت، لا تنسي موعد تسليم المقال الأسبوعي اليوم. معكِ حتى الساعة الرابعة.

يا خبر لقد نسيت الموضوع تماماً. افتعلت ابتسامة. لوّح بيده و مشى.

أعمل بدوام جزئي في فيزا. في البدء تطوعت للعمل كي أتعرف على بقية الناس هنا. وأيضا لكسب بعض المال. بعدها توطدت علاقاتي و كونت صداقات كثيرة. بالرغم من أني أشعر بالضغط خصوصا أثناء فترة الإمتحانات و تسليم الأبحاث و الأوراق و المشروعات المختلفة إلا أن وجودي وعملي هنا يساعدني على تخطي الكثير من التوتر.

اااخ المقال، كيف نسيت! حسناً لا غداء لي اليوم.

- كيف حالكِ يا عزيزتي، المشروب نفسه؟

أومأت مبتسمة.

أنا لا أميل إلى التغيير. أحب الجلوس في المكان نفسه. و شرب المشروب نفسه. و أكل الطعام نفسه. ومصاحبة الناس أنفسهم. أطلب الفرابتشينو الساخن بنكهة اليقطين. وأشربه ساخنا منذ أغسطس الماضي. تفقدت الثلاجة أمامي بحثا عن شئ سريع سيكون غدائي اليوم. كلب سندوتش ياترى أم سوشي؟ هممم حولت نظري نحو الكيك الطازج.

- جورج من فضلك أن تزيد قطعة كيكة رد فلفت.

أومأ بالموافقة. جهز الفرابتشينو ووضع الكيك في كيس ورقي

ناولت جورج بطاقتي. تركته ليتمم هو عملية الدفع .ومشيت ناحية الركن الأيمن للبار كي أضع ملعقة سكر واحدة و أحيط الكوب الساخن بدعامة ورقية. بحثت بعيني عن السدادة الخضراء التي أقفل بها فم الكوب. نسيت مرة ومشيت دونها فوقع نصف الكوب علي. حملت الشنطة عن ظهري،فتحتها لأضع بها الكيكة. أخذت البطاقة و اتجهت ناحية البوابة دفعتها بكتفي وخرجت.

****

متحف الفن في فاسار يعتبر واحدا من أقدم المراكز الفنية في الولايات المتحدة بأكملها. و يضم باقة متميزة من اللوحات الفنية.

ما يقرب من 19 ألف لوحة و منحوتة و جدارية و صورة. من أول مصر القديمة وحتى أمريكا الحديثة. يمتاز المتحف بإمتلاكه لأشهر اللوحات و الصور و المنحوتات الأوروبية والأمريكية الأصلية في القرن التاسع عشر والعشرين.

وبالإضافة للصالة الرئيسية للمتحف والتي يتم بها عرض اللوحات المرسومة والمصورة،يوجد أيضا حديقة كبيرة تضم أشهر المنحوتات و التماثيل. كما يضم المتحف معرضا للمشروعات الفنية الخاصة بطلاب الفن و خريجي فاسار.

يتألف المتحف من دورين. المعرض والحديقة بالدور الأرضي، و حجرة العرض و الدراسة وبعض المكاتب بالدور الثاني .

الإشاعة تقول بأن المتحف يملك قبوا تحت الأرض. و يضم هذا القبو السري مجموعة من المومياوات المصرية القديمة. أخبرني صديقي الذي يتخصص في التاريخ الفرعوني القديم بأنه قديما كانت المومياوات معروضة للجميع، وكان يأتيها الزائرين من جميع أنحاء الدولة.

ولكن بعد حريق المبنى الرئيسي تم نقلها والإحتفاظ بها سرا في قبو تحت المتحف. وذلك لإعتقادهم بأن المومياء المصرية هي من تسببت بالحريق. اه لعنة الفراعنة تطاردني هنا أيضا. وكلما أخبرت أحدا في فاسار بأني من مصر ارتفع حاجبيه في دهشة و توقير و حنين.

أصلا متحف المِت Metropolitan (MET) في نيويورك، يعج بالكثير و الكثير من التحف المصرية القديمة. قسم خاص بالمصريات بعيدا عن القسم العربي والشرق أوسطي. أجل نحن مصريون ولسنا عرباً هذا ما اكتشفته في أمريكا.

هناك نموذجا مصغرا لأحد المعابد الموجودة في أسوان. وأقول معبدا مصغرا لأنهم يعرضون المعبد كاملا كما هو حتى لقد أتوا بالبركة الصناعية الموجودة على مدخل المعبد. بركة الحظ. تقوم برمي العملات فيها وتمني أمنية. لن أخبركم بالأمنية التي تمنيتها كي أضمن أن تتحقق.

****

وصلت قبل الموعد بعشر دقائق. أحب أن أصل قبل موعدي. لا أحد هنا بعد، هذا جيد.

الحجرة طويلة وجدرانها من الخشب. ثلاث جداريات مملوءة بالكتب. والجدار الرابع به نافذتان مستطيلتان. الستائر موجودة إذا ما أحببنا أن نظلم الغرفة لعرض فيلم على الشاشة الكبيرة التي تحتل الجدار المقابل للباب والمحاطة أيضا بالكتب من الخارج.

تصميم رائع تبدو الشاشة وكأن الكتب ابتلعتها. تمتد ثلاث طاولات كبيرة تفصل الحجرة و تقسمها لقسمين. اخترت الجلوس في الطرف المقابل للنافذة كي أطل على من بالأسفل.

وضعت الشنطة على الكرسي و اتجهت نحو النافذة ،آخذ رشفات من الفرابتشينو و أطل على النقاط الصغيرة التي تبعثرت على أرض الحرم هنا وهناك.

اخترت صف الأدب هذا لأن القراءات التي قررها البروفيسور أعجبتني. بإمكانك أن تتصفح الصفوف التي ترغب بالإلتحاق بها على موقع الجامعة. " اسأل بانر" موقع فرعي يتيح لك معرفة موعد الصف و مدرسه و الطلاب الذين تم قبولهم فعلا و إذا ما كان الصف مفتوحا أم أقفل واكتمل العدد. وبضغطة زر، (كليك) واحدة يتم تسجيلك بالصف. شكرا يا بانر.

هناك نظام بيانات يربط الجامعة بصفوفها. كل صف به أسماء مرتاديه و اسم الأستاذ به وعليه يقوم الأستاذ برفع الأوراق التي يطلب منا قراءتها و عليه أيضا قد نقوم برفع بعض أوراقنا لمشاركتها مع الزملاء بالتنسيق مع الأستاذ بالطبع.

****

مرة وبعد تخرجي بكام سنة شعرت بحنين مفاجئ إلى المحاضرات و (السكاشن) ففكرت في التقدم لدبلومة أو شئ مثل هذا. وليتني ما فكرت. كان يوما مغبرا.

نزلت للجامعة واتجهت نحو شئون الدراسات العليا. وهناك وجدتها، يسيح المكياج من وجهها و تنفخ مرة و تشيح بالورق من الشباك-دوما من الشباك- لتصرخ

- ورقك ناقص يا أبلة!

فتتلعثم (الأبلة) ذات الحظ العاثر وهي تدعو بأن تبتلعها الأرض للتخلص من ذنبها. أردت بأن أمسكها من شعرها لأسئلها كيف يا مفعوصة تثيري مزاج المدام بورقك الناقص؟! همست لزميلتى الواقفة بجانبي

- اسمها ايه؟

- مدام صفاء.

طبعا! لابد وأن تكون مدام صفاء،من ستكون غير ذلك؟

- متزعليش نفسك يا مدام صفاء احنا عالم ناقصة أساسا أننا فكرنا نقدم على الدبلومة دى.

عموما إن لم تجد صفاء ستجد إبتهال أو إعتماد أو وفاء. فقط إن كان حظك جميلا ستجد أستاذ طارق. لا يا صديقي لا تتفائل لهذه الدرجة ،أستاذ طارق سينفخ و يصرخ أيضا،لكن على الأقل لن تسيح المسكارا والكحل من عينيه ليتحول إلى عجينة زومبي.

ثم لماذا الشباك هاه؟ بجد لماذا؟ طبعا لم أفعل شيئا يذكر في اليوم الأول، فقط تعرفت بمدام صفاء و أمّنت مداخل ومخارج المكان و أخرجت شريطا أقيس به طول وعرض الشباك لأني أوقن بأني سأتعلق به غدا من أجل تقديم الورق المطلوب.

في اليوم التالي رحت لتسليم الورق. في الثالث رحت لتسليم الورق. في الرابع والخامس و السابع أيضا رحت لتسليم الورق. في اليوم العاشر من الأسبوع الثاني وبعد الكثير من (الشعلقة) رضت عني مدام صفاء و أعطتني إذنا بالدفع.

في اليوم الأول بعد الإذن رحت للدفع عند الخزنة. و في اليوم الثاني وال...وأخيرا دفعت.ثم لم أكمل الدبلومة وأجلتها للسنة التالية حتى أرتاح من مشاوير التقديم. لا أخفيكم سرا أنني ومن حين لآخر لازلت أذهب وحدي للتمسّح في الشباك و التشعلق به.

****

اه رائع بانر هذا. واحد (لُقطة) مثله لابد وأن يكون مرتبطا. فكرت في أن أسأله إذا ما كنت سأشيب بعد الخامسة والثلاثين أم قبلها ؟ ولكن عدلت عن الفكرة في اللحظة الأخيرة.

اكتفيت بقراءة ملخص الصف والفكرة العامة التي سنتناولها. أيضا قائمة الكتب رائعة بحق. سنبدأ اليوم بمناقشة موسم الهجرة إلى الشمال.

ما علمته بعد ذلك أن رواية الطيب صالح هذه تدرس في كثير من الجامعات في أمريكا. وتعد مثالا قويا ورائعا لأدب المستعمرات. أعدت قراءة الرواية في اليومين السابقين و شعرت بأني أقرأها لأول مرة. أنا أنظر لها بعين مختلفة الآن. أراها بعين قلبي. أنا مصطفى سعيد. أنا المغترب الذي ترك بلده و هاجر إلى الشمال. أم أني هاجرت قبلها بكثير داخل ثنايا نفسي يا ترى؟

تعتمد الصفوف في فاسار على مجموعات النقاش لا التلقي من البروفيسور فحسب. نتحلق في دائرة واسعة. و نتحدث و نتناقش فيما قرأناه و نتفق و نختلف مع الأستاذة نفسها . وأنا أعني أنهم هم من كانوا يتحدثون ويتناقشون. أما أنا (أميريكانا) جديدة تضاف لفصل من فصول شيماماندا أديتشيه. أكتفي ب (التبريق) وفتح فمي عن آخره و سؤال واحد يلح علّي..

- ايه الجنان الي بيحصل حواليا ده؟

حاز صف الدراسات الأمريكية على الجانب الأكبر من الصدام الثقافي. في الجلسة الإفتتاحية لأي صف يقتطع الأستاذ وقتا لسرد قوانين الصف و للتعارف.

كانت الأستاذة مولي بريدجستون ذات وجه هادئ. عيونها الداكنة تلمع في ذكاء. عندما تتحدث تسمعك بكل حواسها و تومئ برأسها لك مشجعة ومطمئنة في الوقت نفسه. و تربت يدها في حنان على بطنها المرتفع أمامها حاملا لطفل أو طفلة في الشهر السابع تقريبا.

القوانين العامة لكل صف يعلمها طلاب فاسار جيدا: أنت حر ما لم تضر. ولأني كنت مستجدة فقد كنت أندهش لأبسط الأمور. تلك الفتاة كانت تخرج إصبع الموز لتقشره و تغمسه في زبدة الفول السوداني ثم تأكله في هدوء. الأخرى تستعمل مرطب شفاهها. تلك تثني رجلها تحتها و تلك تجلس القرفصاء.

يُعرّف الجالسون عن نفسهم في نقطتين هامتين. الاسم والجنس. لا يتقيّد من حولك في مناداتك باسمك الموجود في بطاقة الهوية. مثلا إن كان اسمك سارة أندروز وطلبت من الأستاذ أن يناديك ميس أندروز سيفعل. إن فضلتِ سرسورة أيضا سيفعل. كذلك الأستاذ يملي عليك كيف تناديه. مولي تفضل أن نناديها باسمها الأول مجردا.

أيضا أنت وحدك من يحدد جنسه. كنا متحلقين في دائرة تتسع لما يزيد على الثلاثين طالبا وطالبة. ثلاث فتيات وولدين سبقوني. واحدة منهن عرفت بنفسها

- اسمي جين بريندا، أفضل أن تنادوني باسم برين، وأن تخاطبوني بالضمير هو.

طبعا لم أفهم. آخر قال

- اسمي توماس أندرسون، أفضل توم لمناداتي، والضمير هي.

مرة أخرى لم أفهم. أدركت أنا (إيفيميليو) الجديدة- يتمحور ببساطة في أن الأمريكان لا يستخدمون لفظة (لا أعرف) وإنما يستعيضون عنها ب (لست متأكدا). بعدها صار الأمر أسهل كثيرا. و شيئا فشيئا قلّ الصدام و زادت رقعة الفهم.

****

شعرت بدخول شخص ما فالتفت. كان شابا أسمر اللون متوسط الطول. بدا مألوفا لي وكأني رأيته من قبل.عيناه تضحكان دون صوت. كان احمرار خديه باديا رغم اسمرار بشرته. و كان يلهث

- اعتقدت أني تأخرت.

ابتسمت

- باقي خمس دقائق.

اقترب مني

- أنا أوتوي، طالب في السنة الثانية.

- أنا نجوى من مصر، وأنا هنا بمنحة دراسية.

لمعت عيناه و علا صوت الضحكة بها

- ووه رائع! أنتِ من الطلاب المجتهدين إذن؟

- لا أرجوك لا تأخذ عني فكرة سيئة من البداية.

و أخيرا ضحك. كنت أراهن نفسي منذ رأيته على أن صوت ضحكته الفعلي سيكون ولابد أروع من ضحكة عينيه الصامتة وقد كسبت الرهان.

- أصحابي ينادونني إفي.

نظرت له متسائلة فأكمل

- أنا أصلا من نيجيريا.

ومد يده فأخذتها في يدي

- وأنا نون.

- أعتقد بأننا تقابلنا من قبل.

عقدت حاجبي أحاول التذكر

- في صف الدراسات الأمريكية رأيتكِ حينما كنت أمر لاصطحاب توماس، توم؟

وفجأة تذكرت كل شئ.

- اممم توماس اه طبعا.

ارتبكت ولاحظ هو فسألني. هززت كتفي و حكيت له يوم كنا في القلعة مرة و رآني توماس فأقبل يسلم علي وهم بمعانقتي فاعتذرت منه بأدب حينها عقد حاجبيه في غضب

- لكن أنا لست ولدا. و أعرض عني ومشى.

هز أوتوي رأسه

- توم يغضب حينما يُعامل أو يُخاطب بضمير يخالف هويته الجنسية التي اختارها.

التفت لي

- ولكني أتفهم موقفكِ تماما، بشكل عام الوضع في مصر والعالم العربي..

توقف وأشار لحجابي

- والإسلام بشكل خاص مختلف.

ومن اللحظة الأولى أدركت أني أخاطب عقلا مستنيرا فاسترحت

- لكن انت تأخذ الموضوع ببساطة أكثر.

هز كتفه لا مباليا

- يمكن لأني أدرس الدين كتخصص فرعي.

غمز

- أو لأننا أقارب من أفريقيا واحدة.

يا لبساطتك تلك التي تذيب الثلوج يا صديقي.

- هل تجدين صعوبة في معاملتي بعد أن أخبرتكِ أني وتوم أصدقاء؟

هززت كتفي أنا الأخرى. توماس هنا في دور بنت و منصورة هناك تتخفى في ملابس رجل. وبابتسامة أضاءت وجهي سألته

- تتناول عشاؤك معنا اليلة؟

10

مـيـم

يوم الجمعة أجازتي الرسمية. عندي الكثير من الأجازات غير الرسمية لكن الجمعة كما قلت هو يوم الأجازة الرسمي. لذا له تقليد مختلف تماما عن باقي أيام الأسبوع.

أصلي الجمعة في جامع الشيخ حسانين. منذ خمسة عشرة عاما وأنا لا أترك صلاة الجمعة إلا إذا كنت أمر بظروفي الشهرية. أصلي وأمشي كثيراً.

أحيانا (أخرّم) من حسين بك و أمشي قليلا بالسكة الجديدة. أتفرج على محلات الملابس. أشتري غدائي إما كشري و إما سندوتشات من أبو شامة. اليوم سأشتري سندوتشات شاورمة لحمة. لا آكل السندوتشات و إنما أحملها معي في الكيس البلاستيك.

السكة الجديدة كانت جديدة أيام زمان. الآن أصبحت قديمة ومتسخة و ممتلئة بالزبالة. لا أعلم من الزبال المسؤال هنا. فعلا زبال!

في طريقي لميدان المحطة. محلات وصيدليات و سوبر ماركت تنتشر على الجانبين. أما مكاني الحقيقي الذي لا أبرحه كل يوم جمعة ومن أكثر من خمسة عشرة عاما هي فُرشة الكتب.

لا أعرف كيف قادتني قدماي لها. كنت غريبة أتخبط طريقي. ولكن المشي فعلا مفيد. لا أعني فوائده الجسدية وإنما فوائده المعنوية. أنت تمشي و تمشي وتمشي حتى ترميك قدميك مطرح ما ترميك. إما نحو هلاكك و إما نحو نجاتك.

أنا ودون فضل منى،شاء الله أن تقودني قدماي نحو خلاصي و نجاتي. ميدان المحطة، برج النور الذي عرفت اسمه لاحقا. نور فعلا! اسم على مسمى.

أول ما رأيتها كانت نصبة كتب صغيرة متكورة تحت العمارة التي تمتلئ بلافتات لأطباء في كل التخصصات. عم بلال كان أول من تعرفت عليه. كان شابا وقتها.

لاحظ تلكعي حول الكتب و المجلات. كنت في العشرين تقريبا أو أكبر قليلا لا أتذكر. كنت كمن وجد كنزا. لم يسبق لي وأن مسكت كتابا بغلاف يلمع مثل هذا. و حين رأيت كومات الكتب لم أقدر على التزحزح. اقترب عم بلال

-اتنين جنيه بس.

تحسست جيبي، لم أكن أملك مالا.نكست رأسي. اقترب و أمسك الكتاب ،مسح غلافه من التراب و مد لي به. أخذته ومشيت دون كلمة زيادة.

عدت بعد أسبوع أعدت الكتاب و أخذت كتابا آخر وآخر وأخر.

- انتي اسمك ايه؟

سألني مرة وهو يناولني الكتاب الجديد.انتفضت.

- متقلقيش.

ولم أقلق. أخبرته باسمي و لم يسأل المزيد. أعطاني الكتاب و مشيت. بعد ثلاث أشهر تقريبا، وعندما بدأت بالعمل على الكورنيش أصبحت أذهب لعم بلال كل يوم جمعة. أول شهر عملت به و قبضت مقابلا، عشرون جنيها. أذكرها جيدا. ذهبت إلى عم بلال و أخذت الكتاب.

- بكام؟

استغرب من سؤالي

- أنا بقيت أشتغل.

قلت بفخر فابتسم

- برده من غير فلوس.

وفي عينيه رأيت حنانا مس شغاف قلبي. ومن يومها و أنا أعتبره أبي الذي لم يكتب لي لقائه.

****

بحثت عنه بعيني بين الكتب فلم أجده. الان وبعد كل تلك السنين، اتسعت نصبة الكتب لتشمل البدروم السفلي للعمارة الكبيرة.

أجّر عم بلال المحلات السفلية لتخزين الكتب بها. رجاني كثيرا أن أبيت بالمخزن. أحيانا قليلة جدا وفي ظروف استثنائية،أذهب للمبيت في المخزن ولكن عموما أنا أرفض بأدب.

عم بلال هو الشخص الوحيد الذي أتعامل بأدب في حضرته. فلا أشتم ولا أطلق سبة واحدة أمامه. ذات مرة قام صبي من عماله بفعل شئ ما لا أذكر ماهو بالضبط ولكنه أثار غضبي بشدة. فاندفع لساني بكل السبات التي يخزنها.

لم أشعر إلا بعم بلال يقترب من ورائي ليضع يده على كتفي. ودون أن ألتفت عرفت بأنه هو.وليتني ما التفت. لم أنسى النظرة في عينيه أبدا. كان خجلاً. أنا من شتمت و هو من كان خجلا. أول مرة أشعر بالخجل من نفسي كان بسببه. لم أقدر على النظر إليه. مشيت دون أن أنطق بحرف. ومن يومها وأنا لا أشتم أبداً في ميدان المحطة كله خوفا من أن يباغتني فجأة.

كبر عم بلال واستعان بالكثير من الشباب ليعاونوه في البيع. أيضا اتسعت رقعة الفرشة لتمتد للجانب الآخر المواجه للبرج و لتشمل رصيف قهوة الميدان.

كتب من كل صنف ولون. مجلات وجرائد. وسع عم بلال نشاطه و اشتغل في الكتب و الأدوات المدرسية. عم بلال له ثلاثة أولاد وبنت. يدرس ولدان بكلية الطب و الصغير في الثانوية العامة أما البنت فقد تخرجت من كلية التجارة و تزوجت من ابن خالتها. يجيئ أولاده الثلاثة أحيانا ليجلسوا معنا كل يوم جمعة.

- اه لقيتك يا راجل يا طيب.

كان في المخزن فدخلت له.

- حمدالله على السلامة يا منصورة.

- بتعمل ايه هنا يا بابا جدو؟

رزق الله ابنة عم بلال بولد من كام شهر فقط. أزاح مجموعة من الكتب

- بدور على كتاب لنجيب محفوظ كان طالبه مني زبون.

- قولى وأنا أدور معاك.

أخبرني باسم الكتاب. أعتقد أني قرأته.

- رادوبيس، انتي قرأتيه قبل كده.

ضحكت

- انت بتقرأ أفكارى ولا ايه؟

- أنا مبنساش أي كتاب اديتهولك.

- اهوه لقيته.

قال برجاء

- مش هتسيبك من الشارع و تيجى تشتغلى معايا بقى؟

هززت كتفي وناولته الكتاب

- يلا عشان هنتأخر.

****

قهوة الميدان. امتلأت الطاولات عن آخرها بالزبائن. باستثناء طاولة واحدة خالية ومحاطة بعشرة كراسي. اتجهت أنا وعم بلال نحوها. استقبلنا الواد حمّو. حمو ليس حمو لكن هو اختار اسمه بنفسه. خريج بكالوريوس تجارة تقدير عام جيد جدا. و عندما سألته -من خمسة أعوام-

- ليه حمو بالذات؟

- الزباين هتاخدني بجدية ازاى لما تعرف ان اسمي أحمد؟.

سبقك الباز أفندي يا حمو. هو مثلك تمام، حاولت لفترة إقناعه بأن يبقي على اسم هاني

- وأنا هناديك هاني الزلباني؟

إلا أنه لم يرضى .

- طب هاني الأكتع؟

أيضا رفض.

- الأشرم؟

أيضا لا. يأست،و استقر هو على الباز أفندي لأنه أكثر هيبة! أيها الإحترام،كم من الحماقات نرتكبها لأجل الحصول عليك؟

سنوات كثيرة مضت، والطاولة هي نفسها التي أجلس عليها. نفس المكان وتقريبا نفس الوجوه،فقط تأتي بعض الوجوه الشابة مكان الوجوه المتغضنة.

ولكن الشباب لم يعد لهم طول بال على القهاوي و الحلقات، باستثناء حلقات الحشيش أكيد،أما حلقتنا فهي تقتصر على الشيشة الغير معمرة للأسف.

- فاكرة أول جمعة جيتيها هنا ؟

سأل عم بلال وهو يسحب كرسيا

- ياني يامهّ! وانسى ازاى ده انت كان ناقص تجرني من شعري.

لوح بيده و ضحك. سحبت كرسيا و جلست بجواره. طلبنا اثنين شاي نعناع . أخرجت السندوتشات. و مددت له يدي بسندوتش.

****

ستة أشهر بعد الكثير من الكتب المستعارة و المستردة. توطدت علاقتي بعم بلال. لم يمطرني بأسئلته عن أصلي وفصلي،بالعكس كان عاقلا.

احتل نقد الكتب الجزء الأكبر من حديثنا. كنت أعود إليه وأنا محملة بعشرات الأسئلة التي لا يمل من إجابتها.

و مرة بعد مرة تحولت أسئلتي من مجرد إحتياج إلى معرفة معنى كلمة أوكيفية نطقها أو فهم مصطلح ما، إلى رغبة في فهم الهدف الحقيقي وراء اتباع هذا الأسلوب دون غيره في رواية البيضاء لإدريس. أو تحليل المآرب الأخرى التي ساعدت على إنفصامية سي السيد في ثلاثية محفوظ. هل هرب أوديب من قدره أم جرى نحوه؟ ترى ماذا كان سيكون مصير جليفر إذا ما قرر جوناثان سويفت إرساله في رحلته إلى مصر؟

لو كانت شارلوت برونتي قد تزوجت في مثل عمر أمي هل كنا لنقرأ مرتفعات ووذرينج؟ هل هاملت عاقل ومتأني أم هو مجرد مخنث غير قادر على الثأر لأبيه؟ شعر لويس ستيفنسون لاقى إعجاب كثيرين وكثيرين ومعظم قصائده كانت انعكاسا لحالته الصحية في صغره. ترى هل كان ليختار الصحة على النجاح الأدبي؟ وغيرها وغيرها من الأسئلة المجنونة. باختصار،أنا كبرت. لذا رأى عم بلال أني مستعدة.

- جاهزة لايه بالظبط؟

- تيجي تقعدي معانا في الحلقة بتاعتنا.

سألت أي قعدة و أي حلقة؟ مع من وما الهدف منها؟ و في النهاية رفضت.

- هربانين من حاجة يعنى؟

سألت بخوف، عندما أخبرني عم بلال باسم قعدتهم (حلقة المطاريد) وضحك حتى دمعت عيناه. مالي أنا و القعدات الثقافية؟ كتاب و شعراء و أدباء وأساتذة جامعة يتحدثون ويتناقرون وسط طرقعات أحجار الطاولة و كركعات أنفاس الشيشة. أنا أصلا تجربتي التعليمية تقتصرعلى الكتَاب. قبّلت يدي ظاهرها و باطنها.

حلف لي عم بلال بأن الحلقة ليست ثقافية ولا يحزنون بل هي أقرب لحلقة السمك في الشادر. لا وألف لا.

- صدقيني هتلاقي نفسك هناك.

عقدت حاجبي علامة الرفض القاطع. بعدها بعشر دقائق كنت وسطهم. و بعدها بأقل من نصف ساعة أخرى كنت أشرب الشيشة و أضرب بعنقها على كتف من بجانبي وكأنما ولدت لأفعل هذا طول عمري.

تحدثنا عن محفوظ و العقاد. و ألان بو و جورج إليوت وهيمينجواي. وعن جار الشؤم الذي يصر على رش الشارع كل يوم فيتزحلق كل من يمر به. وعن جزار الحتة الذي يشتري الكلاب كي يحرسوا اللحمة من الزبائن. قارنّا بين جمال الإخوة برونتي.

حفنة من المجانين الذين لا يجمعهم شئ. هذا ما جعلني أشعر بالألفة. أحيانا كل ماتحتاجه لتألف غربتك هو التواجد وسط مجموعة من الغرباء. ولكن سرعان ما أصبح الغرباء أقرباء و أكثر.

وهكذا أصبحت الجُمعة المقدسة للطاولة والشيشة و الشاي و لقعدة المطاريد من العصر وحتى بعد العشاء.

- الشاي المنعنع.

وضع حمو الاثنين شاي نعناع سكر برة ومضى لطاولة أخرى.

- مين جاي النهاردة؟

هز كتفيه

- من امتى واحنا بنعرف يعنى، الي بييجى ييجى و الى مش بييجى مش بييجى.

معه حق. لا أذكر أبدا أننا سألنا أو حاولنا أن نتجمع أو نتصل ببعض. أصلا أنا لا أملك هاتفا. وحتى لو كنت أملك واحدا، ما كنت لأتصل. كي تأتي جَمعة مثل هذه تحتاج أن تأتي وحدك في الوقت الذي تحبه و تختاره دون هاتف أو تذكير.

هاتفك الداخلي فقط هو من يأتي بك. حاجتك إلى تلقي جرعتك الأسبوعية هي من ستهرع بك إلى هنا. مرات عديدة حاولت ألا آتي ، وفي كل مرة كنت أجد نفسي في نفس القعدة وفي نفس المكان.

ومع آخر رشفة من الشاي وصل أول (مطرود). أستاذ نبيه، أو جدو نبيه. لم يفوّت الأستاذ أي حلقة منذ مجيئي أنا على الأقل. جدو نبيه لم يتزوج وبالتالي لم يرزق بأولاد ولا أحفاد.

هو موظف إداري في مدرسة السيدة خديجة بنات. في أواخر الستينات ولا زال يزعم أنه يعمل بمدرسة السيدة خديجة للبنات.

- هتعدّي شريط القطر أو تنزلي النفق السفلي وتيجى.

يوصف لي المكان دائما كي أزوره. إذا ما سألته سيخبرك بأنه يعمل هناك من السابعة وحتى الواحدة والنصف يوميا، ماعدا الجمعة بالطبع.

- بس تيجى وقت الفسحة عشان متعطلينيش عن شغلي.

اقترب وهو يستند ويتعكز على عكازه النوبي. أحضره له مخصوص تلميذ من السودان كان في المدرسة وقت كان أستاذ نبيه له شنة ورنة

- كان تلميذا فيه الخير والله.

وعندما سألته

- هي مش مدرسة بنات يا أستاذ؟

ضرب بعكازه في الأرض

- اش فهمك انتي؟

أنهينا السنودتشات و طلبنا الشيشة. رفض أستاذ نبيه طلب الشيشة المعتادة واكتفى بفنجان قهوة سادة. الأستاذ لا يشرب القهوة سادة أبدا. نظرت لعم بلال بقلق.

- أخبار الشغل ايه يا أستاذ؟

سأل عم بلال وهو يخبط على فخذه بمرح ليستدعيه من خيمته الصامتة. هز الأستاذ كتفيه و حرك عكازه من اليمين لليسار دون كلام. أتى حمو بالقهوة،(صبّها) في كوب زجاجي صغير

- أحلى قهوة لأحلى جدو نبيه.

هز نبيه رأسه. تلكّع حمو ليسأل عن باقي المطاريد. قلبت شفتاي ونظرت للكراسي الفارغة. زمان كانت الكراسي العشرة تمتلئ لنطلب كراسٍ زيادة. الآن لم يعد يأتي سواي وعم بلال و الأستاذ و أحيانا الشاعر. إلا أن العادة جرت على حجز الكراسي العشرة،لذا يحجزها لنا عم منصور صاحب القهوة.

عبد الحميد الشاعر. الشاعر ليس لقبه الحقيقي و إنما هوايته و حياته كلها كما يقول. إحدى موظفي مصنع السماد بطلخا المتقاعدين. لكن صنعته الحقيقية في تركيب الرخام والتي ورثها عن أبيه وجده. لا يعرف كيف بدأ الشعر. كل ما يذكره أن الست نعمات أم العيال أتت توقظه ذات صباح فانتفض من على سريره و أنشد :

البنت الحلوة شغلاني شغلاني

واحترت اعمل ايه تاني ايه تاني

مع أبـوهـا ,أمـهـا وخـالـهـا وعـمـهـا

لـو روحت أقـولـهـم أنـا ب ح ب هـا

- الله يا عُبد.

أبديت إعجابي و أثنيت على الست حرمه التي كان لها الفضل في نزول الوحي عليه ولا شك أنها قابلت غزله بحب و عرفان و

- فطار ملوكي بقي بالسمنة البلدى؟

غمزت له فأشاح بيده

- لا وحياتك قابلته بوصلة ردح من الى قلبك يحبها.

وضحك حتى احمرت عينيه. وعشرات من الأسئلة التي تبدأ بمن البنت التي تشغلك يا (عووومرررر) وأين تسكن وفصلها وأصلها؟ مرورا بأسئلة من نوعية كيف هانت عليك العشرة و العيال يا (عبحميد)؟ وانتهاء ب كثير من ال (إهئ إهئ إهئ) و أخيرا يمين طلاق ثلاثة "ماني قاعدالك في البيت".

تلفتّ حولي علّي أجده على كرسيه، لأطلب منه أن "يسمعنا بيتين." ولكن عيني ارتطمت بالكرسي الخالي إلا مني ومن عم بلال و الأستاذ الذي لا زال على حاله الصامت. جاء واحد من صبيان عم بلال يخبره بورود طلبية من الجرائد و المجلات التي تحتاج وجوده. وضع الشيشة على الطاولة أمامنا و استأذن على أن يعود بعد قليل. نظرت إلى فنجان الأستاذ فوجدته لم يرشف منه ولا رشفة.

- انت مبتشربش قهوتك ليه؟ زمانها بردت.

لم يبد عليه أنه سمعني. قمت من كرسيي لأجلس على الكرسي بجواره

- أستاذ!

نظر لي ببلادة

- بقولك ما...

- مبحبش القهوة السادة يا منصورة.

- في حاجة مزعلاك؟!

سألت بقلق

- فيه.. فيه حد ضايقك في الشغل؟

تكونت ابتسامة ساخرة في ركن شفتيه سرعان ما أماتها قبل أن تتسع. نظر للسماء المغيمة خارج القهوة
- السما النهاردة بتفكرني بعينيها.

أمسك بفنجان القهوة وقربه من فمه ثم عاد ووضعه سريعا على الطاولة. في أوقات بعينها من كل عام يطلب الأستاذ نبيه القهوة سادة و يظل شاردا طول القعدة و يتركها باردة ويمشي. وهذا معناه مصيبة، ذكريات سوداء ولا شك. هذا العام أخبرني بكل شئ ودون أن أطلب منه. أنت تحكي عندما تقرر أن تحكي، لا عندما يسأل و يحقق الآخرين. عشر سنوات أو أكثر وأنا أرى الأستاذ يطلب القهوة سادة و يتركها باردة ويمشي،دون أن أفكر في سؤاله. اليوم قرر أن يحكي وأنا سمعت كل كلمة.

****

مروة أو مرمر كما كان يحب أن (يدلعها) جارته في البيت المقابل. وقعت بأسرها منذ كانت بشريطتين حمر و شراب أبيض. كنت أتابعها في ذهابها و عودتها من المدرسة. حتى أنهت المرحلة الإعدادية و قرر أبوها الحاج زكي –الله يرحمه و يسامحه- أن يقعدها بالبيت كي تستقبل الخطاب.

كنت أول الخطاب ولست آخرهم.لكن كنت أول الأحباب و آخرهم. أحببتها بصدق. و رفضني أبيها لأنه لن يزوج ابنته لمن يحبها.

"احنا بناتنا متربيين!" فعل كما يفعل العرب الذين يرفضون تزويج بناتهم لمن يقول فيهن الشعر. أنا لم أقل شعرا مثل عبد الحميد. ولكن عيناي قالتا الكثير. لابد وأنه قد سمع دقات قلبي الواشي من وراء ستائر شرفتي.

وبعد أسبوعين كان قد تم تزويجها لابن عمها. و قبل تمام الشهر كانت قد ماتت. رفع رأسه و سأل

- منصورة، هو فيه حد بيموت من نزلة برد؟!

لم أرد. تنهد. على كل، هذا ما قالته لي أمها عندما سألتها وأنا ملقى أمامها على الأرض بنصف ملابسي عندما هرعت من مسكني حين سمعت الصرخات آتية من منزلها- ونصف عقل و بقايا قلب نهشه الحزن.

أنا من قتلتها. لو أني لم أتقدم لها معلنا عن حبي لما سارع أبيها في تزويجها. بلى قتلتها! فكرت في أن أقتل أبيها. سننت سكيني ووضعته بجيب بنطلوني و ذهبت إلى العزاء.

عزاء حبيبتي التي لم أرد شيئا في حياتي مثلما أردت أن تضمنا (كوشة فرحنا) الآن تُطبق علي نَفَسي (خيمة عزاها). أخذت فنجان قهوة سادة ولم أمسسه. أين الشربات الذي حلمت بأن أرتشف قطراته من بين شفتيها؟ انتفضت،وقع مني الفنجان. لم أنتظر لألملمه.

اقتربت من أبيها، كان واقفا لتلقي عزاء ابنته. كيف يجد لديه القدرة على الوقوف؟ حقا كيف تحمله قدماه؟ إلى جواره ابن عمها أقصد زوجها. لا ليس زوجها بل قاتلها.

أنا من أصدرت الحكم بإعدامها وهو قام بتنفيذه. لن أقتل أبيها سأقتل ابن عمها وربما أقتل نفسي بعدها. تحسست السكين في جيبي. اقتربت وانتظرت دوري في طابور العزاء. وضعت يدي في جيبي أقبض على سكيني وأشد على جرح قلبي. رفع عينيه نحوي

- البقية في حياتك.

همس بها لي. هو من يعزيني في ابنته. لم أشد على يده الممدودة، ولم أحركها من على نصل سكيني أيضا. نكس رأسه حتى سمعت نهنهاته. قبضت على السكين حتى أدميت قبضتي. ومشيت.

****

- السما شكل عينيها قوي النهاردة.

لم أرد. شددت على يده حتى شعرت بأثر جرح غائر. خفت أن يعاود النزيف إذا ما شددت أكثر. نزعت يدي بسرعة. ترى هل توقف أصلا عن النزيف؟ لن أعزيه و لن أقول له معلش. هل أتأسف؟ على ماذا؟ الموت لا ينفع معه أسف ولا ينفع معه شفقة.

- ليه متجوزتش؟

سؤال سخيف وغبي ولكن هذا ما نطقت به. نكس رأسه

- والله حاولت.

زفر باستسلام

- بس ماحاولتش كفاية.

ارتبك واهتزت الكلمات فوق شفتيه

- محاولتش بصدق.

رفع الفنجان و قربه من فمه، القهوة باردة تماما الان.

- أنا فضلت كتير عايش وأنا ميت. عايش بسأل ربنا و بعاتبه ليه مموتنيش معاها؟ ليه تاخدها هي وتسيبنى أنا ، ازاى قدرت تعمل في كده وانا معملتلكش حاجة؟

كنت غاضبا منه إلى أقصى درجة. أردت أن أنتقم منه، ولكن كيف أنتقم من ربنا؟ هل أنتحر؟ هل أخرج له لساني و أنتحر بإرادتي طالما هو لا يرغب بقبض روحي؟ أوقن أني فقدت عقلي تماما في تلك الفترة.

لست أدري إلام امتدت تلك الفترة؟ شهر؟ سنة؟ عشرة؟ لست أدري بحق. كل ما أعرفه هو أني لم أنتحر و إنما أقسمت على أن أميت نفسي وأنا قيد الحياة.

لا عمل ولا حياة ولا أقارب ولا أصدقاء ولا طعام ولا أي شئ. لم أعتزل الناس ولم أستقيل من عملي ولم أمتنع عن الطعام والشراب،فقط فقدت معنى و طعم كل ما ومن حولي. أعاقب نفسي على ذنب لم أقترفه. ظننت بأنه حين يراني هكذا سوف يرأف لحالي و يسمع ندائي و يميتني.

عشّمت بنات كثيرات بالزواج، بقصد وبغير قصد. كلما ظننت أني شفيت من جنوني جبنت ولم أتمم آخر خطوة و هربت من كل شئ تاركا من وعدتها بالزواج دون حتى تفسير أو توضيح.

بكين و ترجيننني، بصقن علي، و حسبنّ الله في وجهي ولم يهزني شئ. كنت أقول بأن كل هذا سيعجل من ساعتي، سيسمع الله ندائهن لأنهن مظلومات و سينتقم مني بأن يخسف بي الأرض في لحظتها ولكنه لم يفعل.

وذات يوم استيقظت. فجأة هكذا، استيقظت وأخذت أبحث عن أقاربي وأصدقائي . لم أجد أحداً. يأس الجميع مني. هل أذهب إلى البنات اللاتي خلوت بهن و أعتذر منهن؟ ما الفائدة؟ ثم لابد وأن الله عوضهن و زوجهن بمن يليق بهن. لم يبقى لي أحد.

هل تصدقيني إن قلت لكِ أني قد كرهتها وكرهت ذكراها؟ هي كانت السبب في ضياعي. و لكن أرجع و أقول لكِ بأن المخطئ الوحيد هو أنا.

أنا الجبان. أنا من تسلطت نفسه عليه وركبه ضعفه فصرت أحمقا غبيا لا يفهم ولا يعي. يبعث الله لي الرسالة وراء الرسالة والدرس وراء الدرس وأنا كالمأفون ألقي بكل هذا وراء ظهري وأكومه حتى صرت كالحمار يحمل أسفارا. حينها قمت و توضأت واتجهت نحو سجادة الصلاة. بكيت حتى لم أعد قادرا على البكاء. صرخت و تأسفت و ندمت و تبت. رفع رأسه فجأة

- صدقيني يا منصورة أنا تبت والله!

أنا من اخترت أن أرفض منح الله لي. كان من الممكن أن أكوّن أسرة خاصة بي. كان ممكنا أن أكون جدو فعلا.هز رأسه

- ساعات بحس إن ربنا بيعاقبني. وإنه بيمد في عمري عشان يثبتلى قد ايه أنا صغير وغبي. وإنه مكانش ينفع أحاسبه واقوله يموت مين ويسيب مين.

زفر بتعب

- هي ماضي و ذكرى ، ولكن البقاء للحاضر وللمستقبل. أنا لا ألومها ولا بندم على إني اتعلقت بيها ولكن إن دارت الأيام ،هكون عاقل أكتر والأهم إني هكون مؤمن بقضاء ربنا أكتر.

- انت.. انت تقدر تتجوز دلوقتي.

ضحك بخفوت

- حتى لو أقدر مش هعملها ..

علّق عيناه بالسماء في رجاء

- أنا اخترت إني أكمل لوحدي وقت ماكان ربنا بيبعتلى ناس راضية إنها تكمل معايا وتجبر كسرى،دلوقتي مبقاش من حقي أطلب جبران غير من ربنا.

زاغت عيناي، و تسارعت أنفاسي، غريب هذا الوجه الذي أراه منك اليوم أيها العجوز. مددت يدي أمسك بكوب القهوة الباردة و لكن سبقني هو إليها و رماها بعنف.

11

طَبْع أَم تَطبُّع؟

خرجنا من صف الأدب و اتجهت من فوري إلى المبنى الرئيسي. ارتأيت بأن أذهب إلى الكانتين الفرعي لكتابة المقال و تسليمه إلى فيزا. يقع مكتب فيزا في الدور الثاني من المبنى الرئيسي. مكتب 313 في الجهة الغربية من المبنى. لا يوجد باب وإنما لافتة كبيرة معلقة " لا تظل واقفا عندك، وادخل لمقابلتنا الآن."

انتقيت ركنا هادئا و جلست. أخرجت اللاب توب وفتحته. أخرجت غدائي، الكيكة رد فلفت. لا تكتب أبدا ولا تفكر على معدة فارغة.

قاربت الكيكة على الإنتهاء ولم أعثر على الفكرة. اااه وجدتها. شكرا يا أرشميدس، فلتتنح جانبا الآن. سأكتب عن العصافير.

أنهيت الكيكة ومعها أنهيت المقال. قمت بإرساله بالبريد إلى فيزا. تقترب الساعة من الرابعة. سأجري الآن إلى فيزا. عندي دوام ساعتين. السادسة أنهي عملي هنا. ثم نذهب إلى القلعة في السابعة. اه تذكرت سأخبر الرفاق بأن صديقي أوتوي من صف الأدب سيتعشى معنا هذا المساء. ستكون فرصة جيدة لأعرفهم عليه. تم الإرسال. لململت حاجياتي ووضعتها بشنطتي. ارتديتها على كتفي و اتجهت نحو السلم.

جريت نحو السلم .مقر فيزا،منحل صغير. يذكرني بمنحل دروسي الخصوصية. حجرة واسعة بها عشرات المكاتب المقسمة إلى مكعبات. كل مكعب مسؤل عن مهمة بعينها. سارة و جون مسؤلان عن إستقبال وفد الطلاب الآتي من أستراليا. لوحت لهما. ديفيد و أميلى و هانا يرتبون الإيميلات و الدعوات التي سيتم إرسالها إلى طاقم التدريس المسؤل عن حفل نهاية العام.

- أين جين ؟

جين هي رئيسة تحرير المجلة. (مجلة المطارید) من الواضح أني أنا من اخترت الاسم. لم يرد سترايدر ولم يرفع عينه عن اللاب توب. اقتربت منه، اه إنه يقرأ مقالي بالفعل. سترايدر هو محرر المجلة. همست في أذنه

- لا تحاول فلن تجد أي خطأ يا بنى.

ابتسم و رفع إبهامه علامة على موافقتي . أما جين فقد ظهرت أخيرا ورفعت رأسها من وراء كومة من القصاصات

- أنا هنا.

ضحكت واتجهت نحوها.

- هناك وفد آخر للدراسات العليا سيصل آخر الأسبوع.

قال سترايدر بعدما انتهى من مراجعة المقال ورفعه على موقع الجامعة.

- حلو جدا ، من أين؟

- من أماكن عدة . هل أنتِ متفرغة للتنسيق معه؟

- ممم لست متأكدة يا سترايدر، سأراجع جدولي وأرد عليك .

أومأ سترايدر موافقا. استمرينا نعمل لساعتين. و حينما اقتربت الساعة من السادسة بدأنا بترتيب مكاتبنا و تجهيزها لزملائنا الذين سيلحقون بنا.

-هل تتعشى معنا ؟

هز رأسه موافقا ثم سأل

- في السابعة؟

- أيوة.

بدا أن هناك سؤالا آخر يشغله ولكنه كان مترددا. أنهيت تردده

- ناتاليا ستأتي.

تنهد

- تمام جدا، وماذا ستفعلين حتى السابعة؟

كنت آمل في نيل قسط من الراحة فأنا أجري هنا وهناك من السابعة صباحا ولكن لا فائدة .

- عندي قصة قصيرة بحاجة لمراجعة من أجل صف الكتابة.

- رائع هل ستنشرينها في المطاريد؟

هززت كتفي، فكرة لا بأس بها. اتجهنا للخارج ونزلنا السلم. دفع سترايدر البوابة الخارجية ليسمح لي بالعبور.

- سأمر عليكِ في السابعة.

مشى بعض خطوات و توقف يناديني

- اه صحيح هناك حفلة أكابيلا لصديقة لي، تقام اليوم في الثامنة، تذهبين معنا بعد العشاء؟

أومأت بحماس.

- طبعا.

****

رجعت إلى سترونج. ضربت البوت بالجدار عدة مرات قبل الدخول لأتخلص من الملح العالق به كي لا يملأ الممر . أدرت المفتاح ودخلت. حررت رجلي من البوت ، علقت البالطو الأحمر الطويل بيد و أزحت البونيه عن شعري باليد الأخرى.

أخرجت اللاب توب. وقعت عيني على السرير ومن فوري اتجهت نحوه أرتمي عليه.

- لا تنسي بأن القصة بحاجة إلى مراجعة.

راودتني نفسي

- سنام خمس دقائق فقط .

- لا وألف لا.

تمام، أنا معي حق. لم آتي هنا للنوم على أية حال. أنا أنام منذ ثلاثين عاما لأصحو قليلا من باب التغيير. فتحت الباب و ذهبت إلى الحمام. توضأت و صليت ما فاتني. اتجهت نحو اللاب توب ،فركت عيني و بدأت المراجعة.

أفقت على صوت سترايدر ينادي من الشباك ،نظرت في ساعة اللاب السابعة إلا عشرة

- أووف! أنا نعست.

ألقيت نظرة سريعة على القصة. تمت المراجعة بنجاح.

ألقيت نظرة أخرى على وجهي حيث طبعت لوحة المفاتيح أثرا لكلمة نعسانة عليه. وضعت البونيه على شعري وناديت سترايدر

- تعالى ! الباب الخلفي مفتوح.

سمعت دقات على باب الغرفة

- بهذه السرعة! هل طار أم ماذا؟

- أنا آن.

ضحكت

- الباب مفتوح ، ادخلي.

فتحت الباب في الوقت الذي كان سترايدر يفتح الباب الخارجي.أشارت بيدها للخارج

- سترايدر هنا.

- أعرف، وأين ماتي ؟

- أنا أيضا هنا.

سلّم سترايدر على البنات . نزلنا من الباب الخلفي لنجد كازو و ناتاليا بالخارج.

- حلو جدا هيا أكاد أموت من الجوع.

استوقفنا سترايدر

- ماذا هناك؟

سألت ناتاليا

- نسيت هذه.

قال سترايدر ملوحا بالكرتونة في يده شهقت آن وقلبت شفتيها

- ضاع تعب السنين.

تعالت ضحكاتنا و جرينا للقلعة.

مقال الأسبوع، بقلم: نون سليمان

فيزا – مجلة المطاريد

ما نوع منقارك؟

أيهما أقوى في رأيك ،العصفور أم الديناصور؟ حضر إجابتك ولا تفصح عنها حتى أحكي لك حكاية عن الجزر المهجورة و البراكين الخامدة.

في جنوب الأطلنطي، على بعد بضعة أميال من مجموعة من جزر"تريستان" البركانية الخامدة التي تعرضت لآخر الثورات البركانية من ستة ملايين سنة. تقع الجزيرة المهجورة التي لا تزيد في مساحتها على السبعة أميال.تم اكتشاف الجزيرة بالصدفة عندما اضطرت عاصفة، السفينة الألمانية "جوهرة المساء" بالحيد عن طريقها لتجد نفسها وجها لوجه أمام شاطئها. حاولت السفينة أن ترسو على الجزيرة إلا أنها لم تتمكن من العثور على مدخل لائق. ولذا أطلقوا عليها أيضا اسم الجزيرة المستحيلة. كثرت الشائعات حول السفن العديدة التي تحطمت دون أن تترك ورائها ناج واحد إثر محاولات عدة للرسو على الجزيرة. تأكدت تلك الشائعات عندما تم العثور على حطام ثلاث سفن حول الجزيرة عندما كانت تحاول الولايات المتحدة بناء ميناء بري يسهل الدخول للجزيرة عام 1803. وحينها وجدوا مفاجأة. فالجزيرة لا يوجد بها أثرا لأي كائنات حية. لا زواحف ولا قوارض. خواء. باستثناء 64 فصيلة نباتية. و فصيلة واحدة من الطيورأسموها "عصفور الجزيرة المهجورة".

عمل الكثير من علماء البيئة و علماء الحيوان على دراسة الجزيرة من أجل معرفة السبب الرئيسي حول اختفاء الحياة العضوية بها،ليجدوا مفاجأة أخرى. عصفور الجزيرة المهجورة لا يوجد مثله على الجزر القريبة وهذا يضرب نظرية أن العصفور قد طار إليها من إحدى الجزر القريبة،في مقتل. أيضا الهياكل العظمية التي قام علماء الطيور بتحليلها وجدوا أن بها تطورا ملموسا في منقارها تحديدا. اعتمدت العصافير في غذائها على النباتات العديدة المنتشرة على الجزيرة. تفيد الدراسة التي قام بها علماء الطقس بأن الجزيرة قد تعرضت لموجة من الجفاف الذي أدى إلى موت كثير من النباتات التي بدورها أدت إلى موت عدد هائل من العصافير. وحدها مجموعة صغيرة نجت. وعند دراسة تلك

المجموعة وجد علماء الطيور اختلافا في هيئة منقارها عن العصافير التي قد ماتت. فالعصفور الناجي منقاره أكثر حدة و عمقا وتقوسا في حين أن زميله الميت كان يملك منقارا صغيرا، مسطحا وضعيفا.علماء النباتات انضموا للبعثة الإستكشافية و عند دراسة فصائل النباتات الموجودة، توصلوا إلى نتيجة مذهلة. الجفاف أدى بالفعل إلى موت النباتات التي يتغذى عليها العصفور إلا أنه لم يؤثر في أشجار البندق التي انتشرت على الجزيرة. لذا فالعصفور الذي قاوم قشرة البندق و حاول وحاول بمنقاره إلى أن كسرها هو من نجا. أما الذي لم يقدر على كسرها بمنقاره و انتظر ترعرع النباتات الخضراء السهلة فقد مات. وعندما انتهت موجة الجفاف التي امتدت لما يزيد على الخمسين عاما، عادت النباتات و عاد إلي تناولها العصفور فعاد منقاره إلى صغره و ضعفه. وهكذا مع تعرض الجزيرة لموجات الجفاف يهب العصفور لتقوية منقاره و تغيير نوع غذائه.ومع انتهاء الموجة يعود العصفور لرخائه و تكاسله و استسهاله في أكل الأعشاب و ترك البندق ذو القشرة الصلبة.

كل هذه الدراسات عظيمة بحق لكنها لم تجب عن السؤال: من أين أتى عصفور الجزيرة في الأصل؟ أنا شخصيا أميل إلى تصديق الأسطورة التي تقول بأن هذا العصفور أتى من ستة ملايين سنة فاتت حين كان البركان نشطا.فار البركان وثار ومع كل موجة من الحمم كانت تخرج موجة من العصافير.اشترط البركان أن لا تستقبل الجزيرة مخلوقا آخر. وفي طريقة من العصافير لتقديم القربان المناسب اتفقوا على ألا يغادر أي عصفور الجزيرة لأي جزيرة أخرى أبدا.العصافير بقيت و تطورت ونجت.

12

نــون

أنزلنا السائق قبل الموقف المفترض نزولنا عنده. تأفف الركاب ولم تتوقف همهمات اعتراضهم أثناء نزولهم.

- معلش يا أبلة عشان ورايا مشوار.

هززت كتفي ونزلت. تكفل الرجل ورائي بالرد بأن (رزع) الباب ليقفله بعنف. تمام،لكل فعل رد فعل. نزلنا عند كوبري سندوب. تفرقت الناس وكل اتجه نحو الميكروباص الجديد الذي سيوصله للمكان المراد. سأركب ميكروباص الجامعة وأنزل عند المشاية السفلية لأتمشى حتى الكافيه الذي سأقابل فيه مها. اتجهت نحو منطقة الميكروباصات وفي منتصف الطريق تسمّرت. لا أريد أن أقابل منصورة الآن. ليس لي قدرة على مناوشاتها و هجماتها العنيفة.

- جاية يا أبلة؟

أشار لي التبّاع. لوحت له بلا و أشرت لتاكسي

وصلت وجهتي أعطيت السائق أجرته و شكرته و نزلت. نظرت للأعلى، لافتة كبيرة تحمل اسم سبكترا. لا أدري إن كان تحتها شوكة أم شخبطة. يحتل الكافيه الدور العلوي. سلم طويل عليك صعوده ولكن الجلسة فوق تستحق. المكان مقسم لجانبين. واحد للأطفال ملحق به مكان صغير للعب. شكرا لا رغبة لي في الصراخ اليوم. اتجهت فورا للجانب الآخر،لا ألعاب ولا مراجيح .الهدوء وحسب. مكان مثالي لتبادل حديث رائق مع نفسك، لسماع أفكارك والاطمئنان علي ما وصلت إليه.

اه المكان أيضا يقدم فرصة حلوة لمن يرغب بتقاسم لحظات الحب كهاذين الشابين اللذان اختارا طاولة منعزلة بعيدة عن الناس. شكرا، لا رغبة لي في الحب. ألقيت نظرة سريعة على المكان .ليس مزدحما . اخترت طاولة صغيرة لشخصين. يطل المطعم على حرم الجامعة.

أخرجت هاتفي

- أنا وصلت.

أتت رنة الرسالة بعدها مباشرة

- دايما بتحافظى على مواعيدك كده مافيش فايدة فيكي؟

ضحكت

- فكريني أول مالاقي حد بيحافظ على مواعيده في البلد دى أتجوزه فورا، خدي وقتك.

- عشر دقايق و جاية.

نحّيت هاتفي جانبا. أتاني الجرسون بابتسامة وبالمنيو و بزجاجة مياه صغيرة.

- تحبي تطلبي دلوقتي يافندم؟

أوه لا لست بهذا البؤس

- مستنية ناس، شكرا.

ترى هل لازالت زعلانة من يوم عيد ميلادي؟ لا، مها أعقل بكثير. ولكن أنا أعلم أن مشاعر الخذلان ليس لها علاقة بالعقل. مها تشعر بالخذلان من أكثر من عشر سنين.اه كلنا تم خذلاننا بشكل أو بآخر. اقترحت عليها أن تعود لتكمل السنة الأخيرة وتتخرج

- بابا مانعني أخرج ولما بخرج و بنتقابل بيبقي ضاربني ومبهدلنى ومسمعنى كلام زى الزفت،عشان ظروفي.

وعندما سألتها أي ظروف؟ هل كسرتي رجلك دون علمي؟ هل أصبتي بعاهة؟ يا صديقتي يمكنكِ إخباري إن كنتِ قد تحولتي لمصاص دماء يخاف الخروج في الشمس.

- ظروف طلاقي.

اه بالطبع هذا أكثر منطقية من الكسر ومن العاهة و من هجوم مصاصي الدماء.

- وهو انتي كنتى اتجوزتى عشان تتطلقي أصلا يابنتى؟

أسأل ونضحك على همها و نسكت. تم تطليق مها من زوجها بعد سفره بأسبوع. شعر بأنه ليس مرتاحا. أي والله! فطلقها. تم نزع مها من الجامعة، وهدم مستقبل أحلامها بأن تكون معيدة، وتزويجها، وتطليقها في أقل من شهر. ممتاز يا مها لقد حققتي رقما قياسيا في موسوعة جينيس دون قصد. عموما،أكيد كله يهون في سبيل أن يرتاح ابن العم. لماذا لم يشعر بأنه ليس مرتاحا قبل أن تقوموا بتلك العَملة يا أبي؟ حينما سألت مها، كانت صفعة محترمة هي جوابها.

- أي عَملة يابنت الكلب؟ بتلوميني انى ستّرتك و لميتك بدل ماسيبك تدورى على حل شعرك؟

في تلك المسائل تتوقف عند سؤال واحد: أيهما أكثر إيلاما، صفعة مها التي نالتها على وجهها فتركت أذنها (تصفر) لثلاثة أيام؟ أم الصفعة التي تلقتها في قلبها من كلام أبيها؟ في رأيي الشخصي لا هذا ولا ذاك. لا داعي لتهويل الأمر، أب قرر فجأة أن يزوج ابنته وزوّجها فعلا. ما المشكلة! وطلاقها أفضل من أن تترك معلقة،صح؟ أما أذنيها فنقط أوتال ثلاث مرات و ستسمع من أمامها من قبل حتى أن يتكلم. وأما قلبها الذي تألم، فأي قلب تعنون؟ مها ومنذ بدأ هذا الكابوس،أصبحت بلا قلب.

اقترحت عليها أن تشتغل معي ولكنها رفضت. عنيدة مها. كنت أحب بأن تعتمد على نفسها ولا تمد يدها لأبيها. حتى أني عرضت عليها أن تترك له و لزوجته البيت وتأتي لتعيش معي.

- اه عشان بدل مابقى مطلقة بس، أبقى مطلقة و ماليش أهل!

كلما اقترحت أمرا جديدا رفضته مها. كلما أتيت بفكرة قتلتها مها في المهد. أعرف ما الذي يحدث هنا، صرخت فيها مرة بغضب. بهدوء تام ودون حتى أن تسألنى عما أعنيه، ربتت على يدي و مشت. ربتت على يدى وكأني أنا من أحتاج إلى الشفقة. نعم كانت عينها ممتلئة بالشفقة على وعلى حالى. ولكن أنا

حقا أعرف ما الذي تقوم به مها. إنها تقتل نفسها. مها تتعمد أن تميت روحها و تسكت نبضات قلبها إن حدث و شعرت أنه لازال باقيا. تعاقب نفسها.

- يا مها انتى بتعاقبي نفسك على ذنب انتي مالكيش يد فيه.

قلت لها مرة .تصرين على البقاء مع أبيك و امرأة أبيك التي تصغركِ بعامين. تسمحين له بمنعكِ من الخروج، من العمل،من الدراسة. أية عيشة هذه؟ تسمعني بطولة بال عجيبة، وتنتظرنى كي أنهي صراخي ومن ثم ترد

- ومين قال إني عايشة؟

****

انتبهت من أفكاري على صوت رنة الموبايل. ظننت أنها مها تخبرني بأنها ستتأخر و لكني وجدت اسم وفاء. في الحقيقة لم تكن لي رغبة بالرد عليها بعد عملتها السوداء كانت قد رنت علي بعدها ولكني لم أرد. هووف لن أخلص من الزّن

- أهلا يا وفاء!

لم ترد

- الو؟

سمعت صوت نفسها و حركة يدها العصبية على السماعة

- انتي بتخونيني مع جوزى؟

في البداية ظننت أني لم أسمعها جيدا. بلى سمعتها جيدا ولكني لم أصدق أو لم أتخيل. ضحكت. رد فعل غريب ولكن ما سمعته أغرب. ظننت بأنها مزحة و لكن صوت أنفاسها المتلاحقة السريعة أكد لي أنها لا تمزح.

- البوست الأخير الي انتي كاتباه هو عاملّك لايك وأى حاجة بتكتبيها بيعلّق و بيعمل لايك.

سمعت كثيرا عن النظريات و الدراسات العلمية التي تفيد بأن البنات ليس لهن صاحبات. وبأن البنات تغار من بعضها. أعرف كل هذا الهراء وأكثر. أنت تعرف الكثير و تتوقع الكثير. تقول لنفسك أنا كبرت وتعلمت ورأيت الكثير ومررت بالكثير والكثير.

تعيش بمبدأ كن عبيطا ترى الوجود جميلا. تتوقع كل شئ وأي شئ من كل أحد وأي أحد. وبالرغم من كل هذا،و عندما يحدث ما عرفت دوما، وعندما يقع ما توقعت، تجد نفسك مصدوما بشكل غير متوقع. تيقن بأنه ما أن تصل لتلك المرحلة من الثقة العمياء و بأنك (جامد قوي)،إذا ما رفعت رأسك فسترى اللافتة المعلقة تحاول تنبيهك (احترس! خازوق صناعي بعد خمسين مترا) وبأنه (لقد هزرت هزارا مزعجا وضايقت البنك ادفع 100 جنيه أو ارجع لخانة البداية) بالطبع كلنا سندفع،بالذوق أم بالعافية سندفع.

- ماهو يا انتى يا مها عشان انتوا الى لسه مرتبطوش.

كتمت فمي كي لا تعلو ضحكاتي. كذلك لا أريد أن (أفصل) المتحابين و (أعكنن) عليهم الخروجة. لمحت مها من بعيد..

- وفاء أنا مضطرة أقفل عشان عشان..

تلعثمت، أين أنتِ يا أعذار عندما نحتاجكِ؟

- عشان عايزة أقفل.

اه عرفت الإجابة على البوست الذي كتبته الآن. منذ اللحظة التي يعرف فيها الأب أن الله رزقه بأنثى ، يحمل هم المجتمع ونظرته وهم تزويجها وهم طلاقها إذا لم تكتب لزيجتها النجاح. إن كان أحمقا فسيتركها لتعيش وهو يتقطع بسكاكين الشك و الغضب و الغيرة والسخط. وإن كان عاقلا سيلقي بها من النافذة دون إبطاء. أما إن كان مجنونا فللأسف سيتركها لتعيش في مصروهو يزرع فيها أحلاما وردية بالمستقبل الحالم الذي ينتظرها في مصر خصوصا ومجتمعاتنا العربية عموما.

أما الأم فهي أكثر تعقلا ومنطقية بمراحل فمن اللحظة التي تعرف فيها أن الله رزقها بأنثى ، تقصر على نفسها الطريق و تحمل على عاتقها مهمة تحويلها لذكر.

لوحت لي مها وهي تقاوم ضحكة أبت ألا تخرج حين رأتني

- طالما بتضحكي زى العبيطة كده يبقى وفاء كلمتك؟

جلست على الكرسي المقابل وغمزت

- لسه مكلماني قبليكي وأنا الي قلتلها اسألي نجوى يمكن هى.

يا أولاد المجانين !

****

خرجنا بكرامتنا قبل أن يتم طردنا من المكان.

- هي الخوازيق بتطلع موسم صيفي ولا شتوي؟

سألت مها معلقة على موقف وفاء المجنون.

- موجودة طول السنة في صوب مخصوصة دلوقتي، الحمدلله الناس مش مقصرة الصراحة.

ضاعت (العشوة) الهادئة . لذا ودون اتفاق منا توقفنا أمام جاد . طلبنا سندوتشات فول وطعمية. أعطيت مها السندوتشات و حاسبت.

- مش كتير السندوتشات دى؟ إحنا مفاجيع اه بس مش للدرجة دى يعنى.

سألَت مها.

- الزيادة نبقى نعطيها لحد غلبان.

قلت وأنا أفكر في واحد أو واحدة غلبانة بعينها على وجه الدقة.نزلنا الشارع الصغير المنحدر للمشاية السفلية. على يمينه مراكز صيانة محمول وعلى يساره كافيه البارون. بعد التجربة الصغيرة في سبكترا تأكدنا أن لا جدران تستطيع حبس ضحكاتنا فقررنا أن نأكل على سور الكورنيش ونتمشى قليلا بعدها.

الجمعة، المشّاية مزدحمة إلى حد ما فالجو جميل. و الدراسة بدأت لذا فالشوارع ممتلئة. أخذت أدور بعيني بحثا عن منصورة. الشارع يخلق في اليوم الواحد ألاف من منصورة. للتواجد في بيئة كهذه لابد وأن تتحولي إلى منصورة. امرأة تتخفى في ملابس رجل. لا تلبث أن تتخفى في تصرفاته و طباعه لا ملبسه فحسب.

ولكن منصورة ليست مثل أحد. هناك شئ ما يخبرني بأنها أكثر مما تبدو عليه. وبأن داخلها أكبر بكثير من مجرد واحدة من الشارع تسب أكثر مما تتنفس.

- هو انتى اتجوزتي ليه يا مها ؟

وجدت نفسي أسألها فجأة. عقدت حاجبيها وكأنما تبحث عن إجابة مناسبة. ليست أول مرة أسألها وليست آخر مرة. وكل مرة أسأل مها، تخبرني جوابا جديدا.مرة أنه نصيب. ومرة أنه كان غصبا. وعندما أخبرها بأني لم أر أحدا بمثل عنادها. تتنهد و تعود لتقول بأنه نصيب. سألتها هذه المرة وانتظرت. أخذت تنظر إلى النيل أمامها. المياة راكدة لا تتحرك. و شيء ما في شرودها نبأني بأنها على وشك الاسترسال.

- عارفة البوست بتاعك إجابته حاجات كتير. بس أهمها ان الي بيحصل لينا اننا وعلى مدار سنوات عمرنا بنموت بالبطئ يا نجوى.

شوّحت بيدها في عنف وكأنها تخاطب عدوا باديا أمامها

- بيموتونا بالبطئ.

زفرت بسخط

- عشان كده لما بنتغير بيبقي التغيير من اليمين للشمال مافيش وسط ومافيش رجوع.

- والنكتة بتقول ايه؟

قالت تنكزني كي أفيق من شرودي فنظرت لها مبتسمة وانتظرت النكتة

- مرة واحد بلدياتنا كان فاكر نفسه حاجة..

غمزت وأكملت

- طلع ولا حاجة.

تبدأ مرحلة الإبادة من بعد مولد البنت بقليل. أحب أن أسميها مرحلة (التسمين). تسمين العجل للذبح. هل تعلم أن هناك بعض الأسر المصرية التي تبدأ في (تجهيز) البنت لترك بيتها قبل أن تبدأ البنت نفسها في ترك (البزازة)؟ طيب هل تعلم أن مرحلة التسمين يمكن تقسيمها لثلاث أقسام أساسية؟ بدءا من: يارب أشوفك عروسة يا حبيبتي مع قبلة على الخد المتورد للبنت أم شرائط حمراء. فتضحك البنت وهي تخطف

العيدية. أنا عروسة الله! مرورا ب: عقبال ما أشوفك زي بنت خالتك. مع تربيتة سريعة على الكتف. لتنكس البنت رأسها و تجري على حجرتها بابتسامة خجلة. وانتهاء ب: يارب تبقي السنة الجاية في بيتك. مع مصمصة شفاه. لتجري البنت نحو أقرب شباك لرمي نفسها.

تؤمن مها بأن أول من يميت المرأة في مجتمعنا هي المرأة نفسها لا الرجل. الرجل غلبان. من يوسوس له ويشجعه على الزواج من أخرى لتأتي له بالولد، امرأة. امرأة تعي جيدا أن الولد والبنت ليسا بيدها ولا بيد غيرها بل بيد الله. وهي امرأة تعي جيدا كمّ الكسرة والوجع الذي سيصيب الزوجة عندما تشاركها أخرى في زوجها. في حالات كثيرة يقرر الرجل الزواج على امرأته من امرأة اخيه المتوفي بإصرار من امرآة أخرى تكون في الغالب أمه.

أو بنت يتم إجبارها (بكامل إرادتها) بأن تتزوج زوج أختها المتوفاة لأنها أولى بتربية الأولاد. يحملونها ذنب ضياع أطفال أختها باسم الشرع والعادات والتقاليد. أي جنون وأي سقم هذا؟ لذا فهي تقبل مرغمة، أو ترغم على القبول. ومن السبب؟ امرأة تدرك جيدا أن الأخرى ليست متاعا وليست جزءا من (العفش) يتم توارثه. ومع ذلك هي من تصر على سن القانون وتعطيه مسميات كثيرة منها المجتمع والناس و الصح و المكتوب. أي صح في خراب بيت على حساب بيت؟ وأي صح في إلغاء حرية كائن حي لمجرد أنه ضعيف. لا ليس ضعيفا وإنما لا يعرف قدر نفسه.

- نفس الي حصل معايا بالظبط،أو كان هيحصل يعنى.

عقدت حاجبي في غير فهم

- مش مراة عمي وعمي كانوا عاوزين يجوزونى لابنهم الثاني بعد ما ابنهم الأولّاني طلقني؟

معلومة جديدة أخرى يا مها. وكلما انتصرت المرأة في قهر المرأة، كلما زاد تجبر الأولى و انفصام الثانية.لكن الإنفصام لا يقتصر على علاقة المرأة بالمرآة فحسب و إنما ينتشر و يستشري عفنه فيما يتعلق بالرجل والمرأة أيضا. إذا كانت المرأة نفسها لا تحترم المرآة فهل سيفعل الرجل؟!

كمان، لا تنسِي أن الرجل وحده من حقه ذكر وتعداد مغامراته الرومانسية السابقة و الفخر بها أمام زوجته من دون الجميع. أيضا له الحق في العيش على الأطلال و نعي حبيبته التي أعطته صابونة وقت كانا في حصة الكيميا. ومن البديهي أن المجتمع يعطيه الحق بعقد المقارنات بين امرأته و جميع نساء العالمين. أما إن لمّحت المرآة لعلاقة سابقة، مجرد تلميح ستصبح في عداد الأموات. وإن ترحمّت على زوجها المتوفي سيتم تطليقها ولاشك "دي بتفوّل في وشي ياخواننا". هووف افهمي أرجوكِ، قلت بأن الرجل وحده من حقه الولولة، فحين يذكر من مات له، سيكون رجلا مخلصا أما أنتِ فنكدية.

وغني عن الذكر بأن المقارنات الخزعبلية التي تدور في مخه المخلوط بالزبادي لن تصب في صالح امرأته أبدا. ثم أن تعيش بجسدك مع امرأتك و تفكر في أخرى أوليست هذه أحقر أنواع الخيانة وأبشعها؟ ااخ نسيت بأن الرجل الخائن في عرف القوّادين أمثاله،يظل رجلا كامل العقل والدين و الرجولة. المخابيل صدقوا الكذبة. لذا فليس من حقها أصلا أن تعترض "عاوزة تخربي بيتك يا مجنونة!" وإنما ستقوم مثل الشاطرة و تفرد الغطاء على عهر زوجها كي تحافظ على بيتها و أولادها. اه برافو أنتِ سِتّت عاقلة الآن.

- بصي الموضوع باختصار هو محاولة مجموعة من المرضى ،في منهم مرحلته لسه مش خطيرة وفيه الي وصل مرحلة متأخرة مافيش أمل من شفاها، وكلهم بياكلوا في بعض بهدف السيطرة على بعض.

من تم كسرها وقهرها لا ترتاح إلا حينما تكسر وتقهر كل الباقيات. سألتُ مها كثيرا إذا ما كانت تفكر بالزواج مرة ثانية. وفي كل مرة تجيبني

- وهو أنا كنت اتجوزت مرة أولانية؟

لماذا أجد صوتكِ مقاربا في أوتاره المشروخة لصوت منصورة يا مها؟ ولماذا أشعر بأن كلامكِ صادر مني أنا؟ مها هي منصورة ومنصورة هى نجوى. كلنا في الهوا سوا. أردت أن أعرّف مها بمنصورة

- خليها مرة تانية عشان ألحق أروّح.

- لسه بدري!

افتعلت ضحكة

- لا المغرب خلاص هيأذن وأنا لازم اروح ألحق العلقة بتاعة كل مرة.

هل تعلم كم يحتاج البني آدم الطبيعي للوصول لهذه المرحلة من (التناحة) و البرود؟ الكثير صدقني. انتظرت مع مها حتى أوقفنا تاكسي. ركبت هي وأغلقت الباب وقبل أن ينطلق هتفت بها

- لازم ترجعي الجامعة تاني يا مها.

نظرت لي من الشباك و ابتسمت.

****

تابعت المشي علّي أجد منصورة. احتفظت ببعض السندوتشات لها. بعدما انتهينا همّت مها برمي الكيس في النيل أمامنا. أمسكت يدها بسرعة وأنا أتلفت حولي خوفا من أن تظهر منصورة فجأة لترمي باثنتينا في النيل.

رأيت الكثير من (الحبّيبة) يفترشون سور الكورنيش أو يتمشون هنا وهناك. أنا أيضا استمتعت بكثير من المريدين و المطاردين. ولكن على كثرتهم فأنا لم أشعر أبدا بأني قد وجدت مبتغاي. لذا دائما ما كنت أترك الفتافيت من ورائي كي ترشد قلبي وتدله على بيته حينما يقرر الرجوع. مفارِقة أم مفارَقة علمت أني سأعود أدراجي وحدي عاجلا أم آجلا.

تشغلني دوما فكرة الإرتباط. ومع كل عام أكبره تبعد الفكرة أكثر و أكثر. أمد يدي أستبقيها. انتظري هنا عاما آخر. ويمر العام لأستبقيها عاما آخر و آخر و آخر. من يراني ويرى رفضي لكل من تقدموا لي يزعم بأني لا رغبة لي في تكوين أسرة ولا قدرة لي على الحب من أساسه. ولكن أنا أعلم جيدا بأن هذا ليس صحيحا أبدا. قلبي الذي ينتفض حينما أسمع ضحكات صغير يجري هنا أو هناك. عيني التي تدمع حينما

تقع على الشاب الذي احتضن يد زميلته، أنا بحاجة إلى هذا الحضن جدا. أزحت عيني بسرعة، أنا لا أريد أن أكون عزولا. ولا حسودة. ضممت يدي إلى فمي ونفخت بهما لتدفئتهما.

أظن بأني لا أنتمي لهذا الزمن. لم أستسغ أبدا ظاهرة الحب السريع التي كانت تحدث حولي كل يوم في المحاضرات والسكاشن. يأتي الشاب ويخبر الفتاة بحبه لتخبره بحبها هي الأخرى و يقضيان ترما كاملا من المشاعر الفياضة. في الخفاء دائما في الخفاء.ثم ينفصلان في نصف العام . ليبدأ الترم الثاني مع قصة حب جديدة. آه أيها الحب، كم من المهازل ترتكب باسمك.

الحب (فعل) مضارع مستمر،بألف سنة مما يعدون. يحتاج النور والشمس لينمو صح؟ عندما صارحني زميل لي في السنة الأولى بحبه فرحت. نعم فرحت جدا و بناء عليه طلبت منه أن يتقدم لخطبتي. من يحب شخصا يرغب بقضاء حياته ،وما بعد حياته معه. أحبكِ = لنتزوج و نبقى معا. أليس هذا هو التطور الطبيعي (للحاجة الحلوة)؟

لكن زميلي كان له رأيا مخالفا.

- ده يبقي جواز صالونات، انتى تقبلي على نفسك كده؟!

اممم توقفت لأفكر قليلا فأنا أحب نفسي فعلا ولا أقبل على نفسي (كده) أبدا ولكن لحظة

- يعنى ايه كده!

تسائلت بصدق فأجاب بعصبية

- أقصد كده الي هو حد ييجى يتفرج عليكي في بيتكم و يشتريكي؟

ااخ نظرية لنتعرف أولا ولنمهل نفسنا وقتا كي نعرف بعضنا أكثر. وبعدها فلنرى. نرى ماذا؟ ماذا عن ولكن لا تواعدوهن سرا؟ سألته بغضب

- هتقول لربنا معلش أصلي ماليش في جوازالصالونات؟ ولا هو الشرع في جواز الأربعة بس؟

خلقت الخطبة للتعارف إذن ما المشكلة أنت وأنا نريد نفس الشئ صح؟ لا ، غلط. ماذنبي أنا إن تم إستبدال الخطبة من فترة للتعارف الرسمي إلى فترة للكذب الرسمي!

- ليه نستعجل؟

ولم لا نستعجل؟ أنت تحبني صح؟ كمان غلط. عرفت بأن هذا غلط وبأنها مجرد كلمة تقال وتتردد على الشفاه دون فهم. وبهذا استنتجت أيضا أن علاقاتنا تفشل لأننا نقوم بالأمور في غير مقامها.

تخيل معي: نحن نتعرف و نتكلم وندخل ونخرج و نقوم بما يجب فعله في فترة الخطوبة ،لكن في غير فترة الخطوبة. ماذا سنفعل في الخطوبة إذن؟! بعد الزواج تخلق فجوة من الفراغ. أنا استنفذت مشاعري ومارستها في غير وقتها ومكانها الطبيعي. النتيجة = خواء.

لعنة الله على من ابتدع لفظة (جواز الصالونات). أي حمار ألّفها؟ و أي حمارة صدقتها؟ ثم من العاقل الذي يقبل لوم (رجل كنبة) أو (ذراع كرسي) في صالون بيت على فشل زواجه؟ الكاتب أو السيناريست الذي أدخلها في فيلمه سيحمل عاقبتها إلى يوم الدين، كما يحمل قابيل ذنب كل من ارتكب فعلة القتل.

لا أحد يعرف كيف بدأت الأسطورة ولكني أميل إلى تخيل أنه كان شابا في مقتبل العشرينات. أحب بنت الجيران و فاتح أبيها في الموضوع. ولأن أبيها يعرف بأنه شابا جيدا فقد وافق بالطبع و طلب منه أن يشرفوه وأهله عندهم في (الصالون). كانوا قبل ذلك يجلسون في الفسحة أو الصالة ولكن الأب أوصى على صالون مخصوص مذهب (يلعلع) في العين ويخلبها. وتسلمه من يوم واحد فقط. إذن سيجلسون في الصالون ليتمموا زيجة ابنته و لنشرب نحن من (كيعاننا) إلى يوم الدين من جرّاء صالونه المذّهب.

كثيرون يستخدمون أسلوبا خاطئا في تزويج ابنتهم. أبو فؤادة كذب من الخوف و قال بأن فؤادة وافقت على عتريس. ماذا حدث بعدها؟ خرج الناس بالمشاعل ينادون ببطلان الزواج. كثيرون في الصعيد مثلا لا يأخذون موافقتها من الأساس، هذا خطأ. هل توقف الشرع أو المجتمع عن استئذان البنت في حكم تزويجها لأن رجلا واحدا فعل هذا؟ بالطبع لا.

كثيرون يغالون و يبذرون في طلباتهم إيمانا منهم بأن هذا (يعلي) ويرفع من (سعر) ابنتهم. هم سيبالغون ويغالون سواء جلسوا في الصالون أم في الحمام. هل هذا صح؟ بالطبع لا.

انظر ماذا طلب أبو عبلة مهراً لها؟ مائة ناقة حمراء تقريبا أو شئ مثل هذا لست متأكدة. كان من الممكن أن يكتفي بخمسين أو ثلاثين حتى ولكنه رجل طماع. هل يجب أن تكون طماعا أنت الآخر؟ ثم لماذا حمراء؟ هاه بجد؟!

أعلم بأن هناك عوامل عدة تضمن اكتمال بنود و صحة الزواج. كما أن هناك عوامل عدة تضمن نجاحه ودوامه طول العمر. سواء كانت الجلسة في الصالون أم فوق السطح. في المقهى تحت البيت أو (بئر السلم) حتى. بالمناسبة هذا ما حدث فعلا لزميلي الذي نصحني بألا أتزوج من الصالون، هو تزوج (جواز بير سلم) عندما ضبطوه مع بنت زميلته هناك. حظه العاثر أوقعه مع بنت جزار الحتة،و طبعا إما الزواج وإما الوقوع في (البير).

بعدها وعندما كان يصارحني زميل لي بحبه - وهم كثُربالمناسبة- كنت أسأله وماذا بعد؟ ليتهمني هو بعدها بالبرود و يتسائل بدهشة

- انتي ليه مسترجلة كده؟

وينهي الحوار بنصيحة أخوية بالطبع

- حاولي متكبريش الدنيا كده.

حاضر، أنت فعلا أصغر من أن أُكّبرك. لن أنكر أن هناك من شغلني في الجامعة ولكن لم أجد من يشغلني بالقدر الكافي كي يدفعني لحبه. الحب مسؤلية. و لا يحدث هكذا فجأة. لا يوجد حب من أول نظرة،هذا في رأيي هراء وحمق. هذا الذي تراه وتحبه من أول نظرة عشت تحلم به طوال حياتك وتتخيله وترسم خطوط شخصيته و طباعه التي سيكون عليها، بيديك. فعندما تجده أمامك فجأة تظن أنه حبا من أول نظرة. لكن الحقيقة أنه كانت هناك الكثير من النظرات داخل عقلك وقلبك قبل حتى أن تراه.

أعتقد بأن القسم الأكبر من العلاقات العاطفية يفشل لأننا لا نحب بعضنا بالطريقة التي نحبها. أقصد بأنه ليس كافيا أن تحب حبيبك وحسب، ولكن أن تحبه بالطريقة التي يحبها هو سر الإستمرارية والنجاح لهذا الحب. تخنقنا التوقعات البليدة وتميت فرصنا في النجاح. الفيلم قال بأن البطلة خرجت للبلكونة أم كانت فرندة يا ترى؟ ثم لماذا الإهتمام بالمظاهر على حساب الروح؟ لماذا أغطي وجهي بطبقات من الألوان و أجاهد في إرتداء الكعوب العالية التي تمنحني طولا زائفا؟ ولماذا أقول عكس ما أعني؟

تزوجت إحدى زميلاتي في السنة النهائية من الجامعة وهي سعيدة مع زوجها الحمدلله. عندها نظارة كانت ترتديها في المحاضرات وخارج البيت. ولكن لمدة سنتين، لم ترتدى نظارتها الطبية أمامه مرة واحدة. وبعدما أخذت تفرك بعينيها و تضع القطرات لما يزيد على الثلاثة أشهر سألها

- نروح نشوف الدكتور؟

هزت كتفها بدلال بأن

- مافيش داعي يا حبيبي أنا بس هلبس النظارة .

ليسألها هو بدهشة وهو يحك أذنه

- انتي عندك نظارة؟!

****

تصرخ فيّ بأن مثاليتي هذه لن تنفعني في شئ. . أخبرها للمرة الكام وعشرين بعد المائة بأنه يا بنتي مجتمعنا بمن فيه من أولاد وبنات و ستات ورجال بشنبات يعانون من حالة إنفصام حادة. هذا الذي أعطاني نصيحة أخوية بألا أكبرها لن يقبل بأن يصغرها مع أخته أو أمه.

كانت زميلتي غارقة لأذنيها في حب زميلها. كانت تحبه بصدق. دائما ما تعلن بأنها ستتحمل حتى يقف على رجليه. وستصبر حتى يقرر أن يتقدم لها. ستكون أصيلة. رفعت لافتة لا للصالونات و همت بحرق صالون بيتها لولا أن لحقت بها أمها في اللحظة الأخيرة.

وذات مرة كانت في كافيه مع حبيبها يتبادلان الغرام وكلمات الحب الملتهبة حين توقف حبيبها ليعقد حاجبيه و يقوم كالطلقة من على كرسيه ليمسك بشعر فتاة أخرى دخلت منذ قليل لتجلس على الطاولة المقابلة مع زميل آخر لها. تكهرب المكان واشتد الهرج والمرج. في البدء حاول الناس حماية البنت وهم بعضهم بضربه

- محدش له دعوة دي اختى.

تراجعت الناس مع همهمات موافقة بأن

- سيبوه يربيها.

كانت زميلتى تتابع الموقف من طاولتها غير قادرة على الحراك من المفاجأة. وحينما سمعت أنها اخته اقتربت من الحشد تحاول تخليصها. سألته ما المشكلة؟ وما الخطيئة التي ارتكبتها أخته كي يهينها بهذا

الشكل؟ في رأي زميلتي أنها لم تفعل شيئا مخالفا لما تفعله هي نفسها مع أخيها. حينها ترك شعر أخته ليدفع زميلتي لتقع

- اخرسي. أنا اختى متربية، مش زيك!

تعرف وفاء هذه البنت لأنها حضرت فرحها بنفسها على ابن عمها بعد هذه الحادثة بعام أو اثنين. ولكنها تعاندني

- عايزة تقولى ان مافيش حب؟

صرخت فيها وقد نفذ صبري من جهلها

- أنا برده يا وفاء بعد كل ده الى بقول إن مافيش حب؟

لا يا وفاء، و ألف لا يا غبية. ما أقوله هو أن هذا النطع عندما يقرر –وبعد كل اللف و السرمحة- بأن يتزوج سيجري لأقرب صالون. أنا ضده وضد (نطاعته) لست ضد الحب . يزعم هو وأمثاله بأن عندي مشكلة وبأن الاعتراف بالمشكلة هي بداية الحل. تمام، أنا أعترف أنهم كلهم حمير.

أنا فقط لا أستطيع تقبل سياسة الكيل بمكيالين هذه. وهي سياسة قذرة يفرضها المجتمع فينظر بعين للرجل الذي يشتم و يشرب السجائر و المخدرات و يسرق و يقتل و يزني على أنه بخير طالما جيبه عمران. و بأنه مهما أخطأ فهو (قال ايه) رجلا. وبعين مخالفة تماما للبنت التي ترتكب ربع ما ارتكب هو من ذنوب، فتصير هي منحلّة عقوبتها الرجم ويبقي هو في نظرهم رجلا عقوبته الزواج كي ينصلح حاله. أي عقم هذا، بل أي عهر! تشيح بيدها و تصر بأن على التنازل كي لا أخرج خسرانة بالكامل.

لماذا أتنازل؟ ثم عن ماذا أتنازل أصلا؟ ومن سأخسر؟ العريس أم نفسي؟

تقلب شفتيها و تمصمص

- بطّلي بقى رواياتك الإنجليزي دى.

تشير بإصبعها في تحذير

- هنا الراجل راجل، والست ست.

فأضحك. أضحك حتى تدمع عيني ولكني أبدا لا أسمح لدمعاتي بالنزول فتلك ستكون دمعات قهر و سخط. لو كان الرجل رجلا و الإمرأة إمرأة في مجتمعنا كما يزعمون، لانصلح حالنا منذ قرون ولما استشرى كل هذا الفساد في نفوسنا.

أشيح بيدي في سخط .في بلدنا الست فاعل مرفوع بضمة تضيق وتضيق حول عنقها حتى إختنقت. أما الرجل فمكسور بتنازلاته عن رجولته سواء عن جهالة كيف كان الرجال بحق، وذلك لضعف التنشئة والتربية السليمة. أم عن قصد بسبب الظروف الإقتصادية الصعبة التي تضطره للتغاضي والتنازل عن أخلاقه شيئا فشيئا. وما المرء منا بدون أخلاقه؟ هواء فاسد.

- في بلدنا الست راجل والراجل ممنوع من الصرف.

أنا مثالية؟ لماذا إذن أشعر دائما بالنقص؟ أنا صح أم خطأ؟ هل أنا فعلا (مكبراها)؟ أم أني على حق فأَثبُت؟ أنا أريد الحب ولن أتنازل عنه. ولن أقبل بأن أباع وأشترى وإلا كنت قد ارتبّطّ وتزوجت من زمان لأي واحد والسلام. ولكني لا أجد الحب الذي أريده. تعريفي يختلف عن تعريف كل من قابلتهم وقابلوني. في الوقت نفسه لا أتقبل فكرة الإرتباط دون مسؤلية. لن أعترف بأني مرتبطة إلا وهناك دبلة تحيط بيدي.

حاولت وفشلت. أنا حقا لست مصممة للإرتباط خارج دائرة الرسمية. لا أتنفس باطمئنان إلا وأنا بداخلها. مع ذلك أحيانا أرغب برمي نفسي في حضن أول واحد أجده في طريقي. فكرت في أن أتحدث مع الكثيرين ممن يخبرونني كل يوم بأنهم يحبونني ولكن لم أقدر. هل آتي بخط تليفون سري وأغير صوتي وأخشنه مثلما تفعل منصورة. ولكن أين أنا من منصورة؟ أنا لست في ربع شجاعتها حتى.

منصورة أخلصت لمبدأها. تشرّبت فكرة أنها رجلا حتى فاضت من مسامها وشقوق روحها. ملامحها رقيقة وجميلة جدا في الواقع، عيونها الخضراء ورموشها الطويلة. فمها (المسمسم) الذي يسمعك أكثر الكلمات حنوا، يدها الرقيقة و جسدها المتناسق. وفي المقابل تنقلب تلك الملامح الرقيقة إلى أخرى وحشية. اليد الرقيقة تمتلئ بالخدوش والندب الغائرة،يخشوشن الصوت،ويعوج الفم فيسب ويلعن ويبصق،أما الرموش فتتكسر و العيون الخضر فيعتريها سواد غاشم، سواد بئر بلا قرار لا يتردد على رميك فيه دون أمل في عبور مارة لإنقاذك. لا طاقة لي ولا حمل لشجاعة منصورة التي تتنقل بين وجوهها في صراحة ووضوح.

أما أنا فجبانة، أتخفى وراء قناع من الأدب والهدوء والعادات والتقاليد التي تخنقني وتسحب روحي يوما بعد يوم. و ربما لهذا فكرت في فتح أكاونت آخر باسم مستعار. لربما إن غيرت اسمي نسيت هويتي؟ و سأتعرف فيه على أولاد أُسمعهم وأسمع منهم كلمات الحب. والإسطوانات إياها. ثم بلاه بلاه بلاه! ولكن لم أقدر. حقيقي لم أقدر. هل جننت؟ هل أنا محترمة أم أتصنع الإحترام؟ ثم ما كل هذا التيه؟ هل أنا بهذا الضعف حقا أم أني قوية كما يردد الجميع؟

بنات كثيرات غير محترمات وبلا أخلاق ارتبطن. كثيرات كن على علاقة بواحد واثنين وثلاثة يستمتعن بوضعهم على الرف دون كلل ، وارتبطن. بنات كذبن وادعين الحب وهن عنه بعيدات نلن حب من أمامهن وأيضا ارتبطن. مها كانت صادقة. أنا صادقة. لم لا أنال بصدقي وأخلاقي ما نلناه هن بكذبهن وخداعهن؟ لماذا يحب الرجل من تتصنع و ينفر ممن تكون على حقيقتها؟ ترى هل يرى حقيقته البشعة في عينيها الصادقة ويدرك كم هو صغير أمام طوفان مشاعرها التي لم تمس بعد، فيهرب؟

آه تعبت من الأفكار ومن المشي. ومنصورة لم تظهر بعد . وقفت أتأمل النيل. وجه يطل عليّ من صفحة المياه .مهلا، أظن بأني رأيت هذه الملامح من قبل. جسد ضعيف وملابس واسعة تحاول أن تمده بالهيبة فتزيد من ضئالته عوضاَ. يدين تتحركان إلى أذنيه مشيرة لي بفعل المثل. لم أفهم! و الآن الوجه يخرج لي لسانه ويختفي. هززت رأسي وأنا أفرك عيني.المياه هادئة ولكن فجأة هبت قطرات المطر.

رفعت وجهي للسماء و أخذت نفسا طويلا. حبسته حتى جمعت كل أفكاري السابقة وكل التوهان وكل التردد و أطلقتها في زفرة قوية. كل من قابلتيهم يا نجوى ذكورا وليسوا رجالا. رجلكِ لم يأتي بعد .تعالت كلاكس السيارات في الشارع من ورائي فالتفت ببلادة

- ممكن يكون مزنوق في شارع زحمة بس المهم ميكونش وقع في بلاعة و لا عمل حادثة.

عدت بعيني للنيل أرقبه بعناد. ازدادت حبات المطر لتضرب سطح المياه فتحدث فيها اهتزازات ودوائر. احتميت بشجرة. ولد في العاشرة تقريبا يلف بعصا غزل بنات على كتفه. توقف بجانبي

- انت ايه الي مصحيك لدلوقتي؟

سألته ولم أنتظر جوابا، أشرت

- بكام الأكياس الي باقية معاك دى؟

قام بعدها وأخبرني فنقدته حقها. هم بتخليصها ومناولتها لي فمنعته

- أمال عايزاها بالعصاية؟

تسائل بدهشة فضحكت لبرائته

- لا أنا أصلا مبحبوش بس ممكن أكل كيس بشرط إنك تاكل معايا.

هز كتفه في إستسلام وقطع كيسين واحد لي وآخر له.

- اه تصدق مش بطال؟ بس ممكن تخفوا السكر شوية المرة الجاية؟

رفع كتفه ومط شفتيه في قلة حيلة تعالت الأغاني من النوادي في الجهة المقابلة فاستبقيته

- عارف يا صلاح كلنا بنغلط و..

- مسميش صلاح!

أشحت بيدي

- هس! مش قلتلك كلنا بنغلط يا اخي!

رفع حاجبيه. أشرت للنوادي في الشط المقابل

- السبب الوحيد الي يخلي الواحد يقبل يتجوز في البلد دي هو عشان بس يشغلوله كام أغنية لماهر زين وسامي يوسف.

لم يرد فرفعت يدي أتضرع في حركة مسرحية

- جوزوني وغنولي والنبي.

ضحكت وحدي على مزحتي أما هو فقد بدأ في التثاؤب. هووووف وأنا التي ظننت دمي خفيفا؟ وكلمة من الشرق و أخرى من الغرب

- وأيا كان قرارك، خليك في الأمان وابعد عن الصالون، اتفقنا؟

أخذت أهذي وأخرف دون أن أترك له فرصة للرد.

- ممكن أمشي بقي؟

أنهى غزل البنات خاصته و سأل . استمررت في الثرثرة لربع ساعة أخرى تحملها هو في صبر و أخيرا سمحت له بالمغادرة فجرى من أمامي فرحا بالنجاة من مخبولة تلقي بنكات سمجة.

- سلام يا صلاح!

هتفت أودعه فالتفت بغضب وضرب برجله في الأرض

- مسميش صلاح قلت.

سألته عن مقصده فمضى ولم يرد. غريب صلاح هذا! تنهدت، ومرة أخيرة ألقيت نظرة على النيل ثم أعطيته ظهري و تركت لمنصورة السندوتشات تحت فرشتها ومشيت.

الخطوات المطلوبة لخلق أنثى ب 100 رجل (مشوّهة ومحترمة) و (تنفع أم لأولادي) في مصر؟

1- ارمي بأنوثتكِ ودلعكِ من الشباك. (أنا ب100 راجل)

2- أنتي بنت، كوني بنتا إذن ولا داعي لأن (تسترجلي) (أنا – بنت مش مسترجلة- ب 100 راجل؟؟)

3- اخفي ما تحسين، اظهري ما تخفين،ثم حسي بما تظهرين. (انا بحبك بس بتقل عليك. أنا بتقل عشان بحبك. أنا بتقل فعلا ومحتاجة دايت)

4- شرف البنت مثل عود الكبريت. (بتحبني اتقدم لي رسمي، لحظة ماذا عن شرف اخي الولد؟)

5- اخوكى معندوش شرف ده صايع اساسا. (الولد لا يحتاج للشرف. يحتاج ل:قومي اعمليلي كوباية شاي)

6- البنت معززة مكرمة تبقى في (بيتها) و الرجل يطلبها. (بتحبني اتقدملي رسمي)

7- كل سنة وأنتي طيبة ويارب السنة الجاية تكوني في (بيتكِ) (امال ده بيت مين!)

8- لا لجواز الصالونات. (أنا مش جارية اشتريتهالك أمك)

9- لا للسرمحة والرمرمة في الشوارع. (انظر رقم 6)

10- شوّقي (أوريك كوعي؟)

تابع10- ...ولا تدَّوقي (اتفقنا لحد كوعي بس + بتحبني اتقدملي رسمي)

بعد كل هذه المخمضة وكل هذا العك . أنتي مؤهلة للزواج من ذكر آخر مشوه تم تربيته على يد واحدة لا تقل تشوها عنكِ. معكِ الآن فرصة ذهبية مع عرض الكومبو لإستكمال عملية تشويه زوجك (ذكر بالغ) + عملية تشوية للذكر و الأنثى اللذان سترزقان بهما. مبروك أنتِ أم! ارمي بأنوثتك من.....الخ الخ الخ

13

كَـي تَـعْـبُـر الـجِسر

الجمعة أخر الأسبوع. كان أسبوعاً شاقا وممتلئا عن آخره بالصفوف و العمل و الجري من هنا لهناك. لكنه كان رائعا بحق. تنهدت حينما أنهيت كتابة آخر كلمة في البحث المطلوب مني قمت و اقتربت من الشباك.أخذت أنظر للثلج في الخارج.

أخرجت نوتة الملاحظات وارتميت على سريري لأتفقد المهام التي يجب علي فعلها في الويك إند. اه غدا السبت سأنزل إلى JFK من أجل إستقبال مجموعة الطلاب الدوليين. عشرة طلاب قادمين من المملكةالمتحدة وماليزيا و روسيا و اليابان. أخبرت سترايدر بموافقتي بعد أن نظمت جدولي وأعمالي.

أحببت فكرة أن أذهب لاستقبال شخص ما لابد وأن يكون محتارا وتائها مثلما كنت.شعرت وكأنه دين علي إيفائه لفاسار ولمطاريد فيزا تحديدا. عندي إحساس جميل.

سأذهب مع سترايدر في باص مخصوص من الجامعة. تبدأ الرحلات في الوصول من العصر تقريبا وحتى قبل المغرب. تمام،يمكننا أن نتحرك ظهرا ولكننا فكرنا في أن نذهب صباحا باكرا كي نقوم بجولة في نيويورك ريثما يصل فوج الطلاب.

تابعت مراجعة النوتة. يا نهار! عندي أعمال كثير لو تمكنت من تنفيذ ربعها سأرقص من الفرح.السبت مساء سنقوم بإيصال الطلاب كل إلى غرفته. سترايدر أعطاني قائمة بأرقام الغرف المتاحة. سيرتاحون قليلا ومن ثم نذهب معا إلى فيزا من أجل العشاء. ستقوم فيزا بتنظيم عشاء و حفلة ترحيب صغيرة،باقي الرفاق سيتولون تفاصيل الحفلة. قلبت الصفحة. الأحد عندي غسيل. نظرت بطرف عيني إلى كومة الملابس في الركن.

آه أيضا أنا بحاجة للذهاب إلى متجر فاسار لشراء الكتب. سأمر على أديتي من أجل درس الهندية. وأيضا سأمر على سوبر ماركت زورونا! لشراء الملوخية والقلقاس. حلمت بالأمس أني آكل ملوخية و قمت ومعدتي تأنّ من الجوع. مع العلم أني قد تعشيت وأصحابي عشاء ثقيلا ولكن الأكل الأمريكاني لا طعم له. لهذا أكلت فراخ و بيتزا و مكرونة وعنب و كب كيك شوكولاه فقط. فعلا الغربة صعبة!

تمام، تريدون الحق؟ لست أبدا مع الولولة و الندب حول كمية المساكين الذين يرميهم حظهم تحت رحمة قضبان الغربة لتدوسهم برودتها. الغربة ليست للجميع. البعض يقدرونها و يؤتوها حقها فتتركهم لحالهم والبعض يكيلون لها اللعنات فتريهم جحيمها الخاص. إذا ما أعطينا كل ذي حق حقه، فالأكل هنا بالإضافة لأشياء كثيرة جدا- رائع ،ولكن كل ما في الأمر أنك تشعر بالحنين إلى أكل بلدك مهما كنت شبعانا.

عندما أدخل ستار بكس و أشم رائحة القهوة التي تسيل اللعاب، أضبط نفسي متلبسة بجرم الحنين إلى رائحة القهوة المضروبة وطعمها المحوج بمزيج الحبهان و نشارة الخشب.أيضا أستطيع أن آكل عشرات الدونات وأنا أفكر في قضمة واحدة من فطيرة مشلتتة بالعسل.

أحيانا أفتقد (الهرجلة) و الصوت العالي في الشارع. أو نداءات بائع بطاطا أو ذرة مشوي. عندما تتغرب فإنك تفتقد أشياء غريبة بحق. باختصار أكثر ما تكرهه في حياتك وما قد يكون دفعك للغربة أصلا، هو أول ما سيأتي على بالك.ليس بالضرورة أن تفتقد الأشياء وتبكي،أو الأشخاص و تولول على لحظة واحدة معهم،فقط أحيانا تفقدها لتضحك و تشكر ربك أنك تغربت بعيدا. مجانين نحن!

الغربة ليست وحشة دائما وإنما قد تكون هي نجاتك الوحيدة. فالغربة يا صديقي أرحم كثيرا من إغتراب نفسك وتيه روحك. الفكرة أننا مختلفون وبالتالي تختلف نظرتنا و طريقة تعاملنا معها. بعضنا يحبها و يفهمها فتريحه بدورها وتقدره. و بعضنا يكرهها ويلعن فيها لتلعن فيه بدورها.

ثم أصلا من قال أن الغربة غربة خطوط طول ودوائر عرض؟ الغربة الأصعب غربة روحك التي تتركك مغتربا داخل بلدك، وسط أهلك وأصدقائك و رفاق عمرك الذين تصاحبهم و يشاركوك في كل كبيرة وصغيرة منذ كنت في الحضانة بكيس بلاستيك فيه سندوتش جبنة بالطماطم. قلت لكم: مجانين نحن!

أعترف بأن أكثر شئ فقدته وشعرت بقيمته،ومنذ أن خطت قدماي أرض المطار أو أرضية حمام المطار بالتحديد هي الشطافة.

- كيف.. هذا ..!

خرجت وأنا ألهث وأشير بيدي إلى التواليت وإلى المسكينة التي كانت تغسل يدها. نظرت إلى في عدم فهم فاكتشفت أني أهذي بالعربية. أعدت سؤالي بسخط فهزت كتفها وخرجت بسرعة.

لا تصدق من يقول لك بأن الغربة تميته و توجعه. ما يميتك و يثير حنقك بحق هو عدم قدرتك على إكمال حمامك بأمان. حمدت الله أن جعل طهارتنا ببضعة قطرات للمياه وليست عبر قتل أنفسنا مثلما كان يفعل بنو إسرائيل. ذات مرة استوقفتني كل من ماتيلدا وآن لتسألاني بجدية عن تلك الزجاجة الصغيرة التي أحملها معي في طريقي من وإلى الحمام.

- هل هي مطهر أم دواء؟

سألتا في شك. فضحكت. أخبرتهما أنها فعلا مطهر. وبعدما انتهيت من الشرح اتسعت عيناهما في إحترام.

- لم أكن أعرف أن الإسلام بهذه النظافة!

قالت ماتيلدا وهي تشد على يدي. أمّنت آن على كلامها بإيماءة من رأسها وتربيتة على كتفي. لماذا أشعر وكأني حزت ميدالية مذهبة في سباق عدو؟ لمَ انتصبت الشعرات في يدي التي تربت عليها ماتيلدا في زهو. ثم لماذا ينظران إلى وكأني ملاك أتى يعلمهما مبادئ الطهارة؟ لم أتوقع كل هذا في الحقيقة ولكن لا أنكر أنني قد شعرت ساعتها بفخر لا حدود له.

****

يتساقط الثلج بجنون. جو رائع للمشي! أتيت بموبايلي

- من مستعد لفسحة في البحيرة؟

أرسلتها على جروب الواتس الخاص بنا. تابعت الثلج حتى أطلت ناتاليا من غرفتها المقابلة وأزاحت الستائر ، أطلقت صرخة عالية علامة الموافقة، ثم اقتربت من زجاج شباكها و طبعت عليه قبلة.

****

خرجنا ناتاليا و أنا. اتفقنا أن نذهب للمبنى الرئيسي أولا لنأخذ بعض المشروبات الساخنة ،وفي طريقنا للخروج توقفت ناتاليا و أشارت بيدها نحو السقف.

- تقريبا كانت هنا.

رفعت رأسي ناحية السقف الذي تشير إليه

- الحريق!

أخبرتني ناتاليا أنها قد قرأت عن الحريق الذي أصاب المبنى الرئيسي عام 1918.

- كان هذا الجزء مخصصا للخدم

- خدم؟

سألت بتعجب فهزت رأسها بنعم. في بداية إفتتاح الجامعة. كانت الإدارة تعين عاملات للخدمة من أجل القيام بالطبخ و ترتيب الأسرة والغسيل وغيرها من الأمور المنزلية عوضا عن الطالبات.

- تعرفين بالطبع أن فاسار كانت جامعة للفتيات فقط قبل الحرب العالمية.

ألقيت نظرة أخيرة على الجزء الذي أصابه الحريق،ثم دفعنا البوابة وخرجنا. قررنا أن نمشي من الباحة الخلفية للمبنى الرئيسي. أكملت ناتاليا بأنه في عصر أحد الأيام الدراسية في أوائل القرن الماضي، كانت فتيات فاسار يتحلقن حول الطاولات ينتظرن التحلية بعد الغداء الدسم الذي تناولنه منذ قليل. كانت تتخلل جلساتهم كثير من الهمسات و الضحكات. بدأ الحريق من حجرة الخزين في الطابق السفلي وتم اكتشافه بالصدفة. حين كانت إحدى الخادمات تقوم بتغيير الأسرة وفي طريقها للمجئ بشراشف جديدة ،لمحت لسانا من الدخان فسارعت بإطلاق جرس الإنذار.

لم تحدث خسائر جسيمة بفضل حسن تصرف الفتيات المدربات على الخروج بإنتظام ودون تدافع نحو نقطة بعينها أمام المبنى. وفي غضون عشر دقائق كان الجميع بالخارج. وبعد عشر دقائق أخرى أتت المطافئ من بوكيبسي. لحسن الحظ لم يمتد الحريق إلى جزء كبير من المبنى لأن الخادمة كانت قد لاحظت الحريق قبل أن يمتد لحجرات الطالبات بالطوابق العلوية. طالبات قليلات جدا فقدن بعض من متاعهن. أما الخادمات فللأسف لم يكنّ محظوظات مثلهن فقد فقدن كل ما يملكن لأن الحريق كان قد التهم المهجع الخاص بهن بأكمله. اجتمعت لجنة الأمناء في فاسار وقررن فورا صرف تعويضا مناسبا لكل خادمة.

بعد أن تم إخماد الحريق عادت إلى الفتيات إلى الداخل و كونن طابورا طويلا امتد إلى المكتبة حيث تم نقل الكثير من التحف و اللوحات لإنقاذها. بعض هذه اللوحات و التحف موجودة في متحف فاسار الآن.

****

تجاوزنا المبنى الرئيسي الآن وعبرنا الجسر الخشبي (جسر الأمنيات) الذي يفصل القسم الشمالي للحرم عن المكان الخاص بطلاب السنة النهائية. تضمن فاسار لطلابها في السنة الأخيرة الهدوء و الراحة التامة وذلك عبر إسكانهم في شقق صغيرة بعيدة عن منازل طلاب السنة الأولى والثانية الصاخبين.

الشقق رائعة بحق. تقع وراء الجسر من ناحية اليسار وتمتد للحرم الجنوبي حتى ملاعب الجولف. المكان هادئ ولكنه ليس منعزلا. عبرنا الجسر واتجهنا يمينا نحو البحيرة.

وصلنا البحيرة المتجمدة و جلسنا على أول مقعد خشبي صادفنا لنكمل ما نشربه وبعدها نستكمل لفتنا حول البحيرة. كان الجو هادئا. لا طلاب و لا تزلج. ربما بعد قليل يأتون. أنهينا كوبينا فأخذتهما واتجهت نحو وحش المهملات الآلي الموضوع على بعد عشر خطوات تقريبا من مدخل البحيرة.

أنا لا أبالغ هي فعلا ليست سلة مهملات عادية وإنما وحشا ذو عيون حمر يبرقان في الظلام. أو هكذا ظننت عندما قطعت على الطريق ذات ليلة. كنت قد خرجت من المبنى الرئيسي متجهة إلى سترونج. كان يوما طويلا و مرهقا بالكاد أنهيت صفوفي و مقابلاتي مع طلابي في شيكاجو وعملي في فيزا و اتجهت بنصف عين أجر قدما وأؤخر أخرى من التعب حينما وجدتها واقفة أمامي. تزمجر وترقبني بعيونها الحمراء. شهقت و كدت أقع من (الخضة) وهلعت حين رأيت طالبا يتجه نحوها هممت بالصراخ لتحذيره ولكنه سبقني فمد يده نحو فمها . الواد ضاع!

ثم يلقي فيه بالعلبة الفارغة التي كانت في يده. و فهمت كل شئ. الوحش ليس وحشا وإنما ألية لإعادة تدوير المهملات. اه تجد هذا و أكثر في فاسار ماعدت أندهش بعدها أبدا.

مثلا إن حدث ورأيت من شباكك أو أدى بك حظك العاثر للتأخر في حفلة هنا أو حضور حدث مهم هناك إلى الإرتطام بمجموعة من الطلاب الذين يجرّون عربة محملة بأشياء غريبة ومغطاه بأوشحة قرابة الحادية عشرة في طرقات الحرم شبه الخالية ،لا تدع خيالك يخبرك بأنها جثة. حتى وإن رأيت بنفسك الأصابع المعروقة والرأس تخرج لك لسانها ، هز رأسك و دعهم يمرون فقط بعد أن يهزوا رؤسهم بدورهم. ستعلم لاحقا أن هذا مشروع التخرج لصف الفن التجريدي 104. تمام، أنا أضمن لهم A فقد نجحوا في تجريدي من عقلي بالفعل.

اتجهت نحوها بثبات هذه المرة. لم تعودي مخيفة كالسابق يا صغيرتي. ألقيت بالكوبين من الفتحة المخصصة وفي الحال بدأت في عملية الهضم.تمنيت لها وجبة سعيدة و ربت عليها بحنان.

تبادلنا الأخبار عن العمل

- سترايدر مبتدئ أم متوسط؟.

هزت رأسها بغير اقتناع

- مبتدئ. أصلا سترايدر أعلن تخصصه وعنده الكثير من التخصصات الفرعية إلى جانب عمله في فيزا و غيره وغيره،لا أعلم لمَ اختار أن يضيف تعلم الأسبانية إلى كل هذه الفوضى؟!

- كي تنظم الفوضى لديه ربما؟

غمزت لها فتشاغلت عني بتفقد البحيرة

- الجو رائع فعلا.

رفعت رأسها وأخرجت لسانها تستقبل به بعض رقائق الثلج. ضحكت لمنظرها. ناتاليا طفلة كبيرة في أواخر الثلاثينات.

- لم لا تعطي سترايدر فرصة يا ناتو؟

أدخلت لسانها و التفتت لي وتنهدت ولم ترد. لم أحول عيني عنها فزفرت بضيق

- أي فرصة يا نون؟ أعطيت من قبله فرصة دامت أكثر من خمس سنوات فما النتيجة؟

فتحت كفيها

- لازلت وحدي،بل أنا وحيدة أكثر من أي وقت مضى.

ترى هل سيكون من الأفضل لو كانت لنا ذاكرة السمك؟ ننسى بعد خمس ثوان فحسب؟ لا ينفع؟ فهذا يعني أن ننسى الحلو و الوحش وننسى نفسنا. تمام، ماذا إن عدلناها قليلا لتستمر طوال أربعة وعشرين ساعة وبعدها تنمحي؟ أيضا لا؟ تخبرني بأننا نحتاج التجارب الموجعة كي نحتمي من وجع المستقبل. هممم ماذا إن جعلناها قابلة للتطويع فتكون ملكا ليميننا ؟ كليك واحدة وننسى ماننساه، ونستبقي مانرغب.

ولكن أليس هذا ما يحدث فعلا؟ بالفعل نحن ننسى مالانريده، نتناساه حتى والوقت كفيل بالباقي. المشكلة أن بعضنا ينسى سريعا وبعضنا يحتاج وقتا طويلا. بالضبط كمن نومه خفيفا ينعس ما أن يلامس الوسادة. والآخر الذي يتقلب لساعتين يستعيد أحداث يومه وسنينه كلها. لا فائدة فينا! الوقت هو الحل.

****

أعلم تماما ما الذي تتحدث عنه. لم تهتم ناتاليا بشئ طوال فترة دراستها سوى بموادها وكتبها.

حين كانت الفتيات ترغبن بالذهاب إلى المول للتعرف على الأولاد ممّن نفس عمرهن كانت تصحبهن ناتاليا تحت ضغط أمها. وما أن تخطو بقدمها داخل المول حتى تتركهم لتتجه هي إلى محل الكتب فتشتري كتابا و تبدأ في قراءته أو تكتفي بالتصفح إن لم يكن معها نقودا كافية.

وقت كانت صديقاتها يتطارحن الغرام مع من يشترى لهن تذكرة سينما وفوشار كانت ناتاليا مشغولة برسم الخطوط العريضة لمن ستقضي معه حياتها كلها لا مجرد سهرة فيلم مسائية من الثامنة للحادية عشرة. كل الأديان السماوية وبعض من الأديان الموضوعة، حرضت على الزواج و الإخلاص لشخص واحد بعينه. وكلها أنكرت علاقات ما قبل الزواج و أسمتها زنا واعتبرتها نجاسة. لكن ناتاليا انبهرت بفكرة الإسلام تحديدا في هذا الشأن. كانت تراها فكرة رومانسية أن تحفظ نفسك لشخص واحد. وأن تفكر و تخطط و تخلق الفرص المناسبة للقائه.

لربما كان هذا سببا في تقاربنا السريع لأن ما تفكر فيه بالذات قمت أنا بالتعبير عنه حين سُئلت يوما ما في الخريف الماضي.

- في الإرتباط عندكم ليس مسموحا بممارسة الجنس إلا بعد الزواج؟

- بالظبط. العلاقة الجنسية دون زواج في الإسلام تعتبر زنا.

أعدت خصلة نافرة من شعري

- لكن لا يتبع الجميع تلك القاعدة!

- وفي المسيحية عندنا كذلك. إذا ما علمت جدتي بأمر صديقي ستصاب بصدمة.

قالت آن وهزت ماتيلدا كتفها

- فعلا كانت الأمور مختلفة وقتهم.

كانت ناتاليا تتابع بصمت. ضربت آن على صدرها برفق وتنهدت

- اه أنتِ تحتفظين بنفسكِ لمن تختارينه صح؟ هاااه ياللرومانسية!

ضحكت ساخرة

- هناك لا يرونها رومانسية .يسمونه زواج صالونات .

- معنى هذا أنكِ عذراء؟

سأل كازو فضحكت. ليس لغرابة السؤال، (هناك) ليس غريبا أبدا. أما (هنا) ليس غريبا فقط وإنما غير مقبولا من الأساس. مثلا لو سأل أحدهم منصورة عما إذا كانت مارست الجنس من قبل لقالت للمجنون الذي (هبّت منه)

- أكيد أمال ايه، مع أمك.

وهذا تزامنا مع تهشيمها لوجهه و سبه ما يقرب من مائة و ستة وثلاثين مرة وهذا كله دون أن تنسى أن تطلب مني أن (أسد وداني). أنا ايضا إذا ما سألني واحدا من بلدي له نفس عاداتي وتقاليدي هذا السؤال لربما صفعته و سببته دون أن أسد أذني. فالسؤال يختلف معناه تماما ما أن يخرج من نطاق قارتنا الحارة لقارة الشمال البارد. هنا لا يراد من وراءه اختبارات شرف ولا يقصد منه شك أو إهانة لأن من سأله لا يشاركني نفس الخلفية ولا نفس العادات. أما هناك فسؤال مثل هذا لا يعني إلا الإهانة و الجنون.لذا فأنا حتى لم أندهش ولم أتوقف لأفكر

- نعم يا كازو!

و غمزت

- وصدقني يا صديقي الموضوع ليس سهلا أبدا.

- طبعا ليس سهلا.

صرخت ناتاليا وضحكنا. بعدها كان دور ناتاليا و حكت بأنها ارتبطت وتزوجت بزميل لها بعد أن تخرجت من الكلية وحتى قبل أن تأتي إلى فاسار بسنتين.

- كان الأول؟

- والأخير.

قالت ناتاليا بسرعة. نظرنا كلنا نحوها باستفهام. غمزت لكازو

- أصبت بعقدة نفسية من الرجال كلهم .

و انفجرنا كلنا بالضحك.

لذا أنا وناتاليا و دون تدبير منا كنا على نفس الصفحة تقريبا. ندرك جيدا مدى صعوبة أن تفكر عكس التيار. تحملت ناتاليا الكثير وحينما وجدته كانت مؤمنة بأنها أخيرا وجدت المختار. كان الانتظار يستحق ولا شك. تزوجته .أفنت نفسها في علاقة اكتشفت بالصدفة البحتة أنها زائفة. سنتهما الخامسة معا كانت صعبة. سنة كاملة كانت تخرج من السادسة صباحا لتعود في الثامنة مساء. هو فقد عمله وهي اضطرت أن تعمل في وظيفتين من أجل إعالتهما. لم تشتكي ولم تتوقف لحظة لتفكر.

- كان يوم جمعة.

أوضحت، حينما كانت عائدة من شيفت الوظيفة الثانية، تمني نفسها بعشاء رومانسي و بسهرة طويلة أمام التلفاز في حضن حبيبها. فتحت الباب و نادته. كانت دائما ما تناديه قبل حتى أن تضع شنطتها من على كتفها. أتاها صوت التلفاز يذيع مباراة مصارعة. أغلقته و اتجهت نحو حجرة نومها. أيضا لا أحد. أخرجت هاتفها تطلبه لربما خرج. غير موجود بالخدمة. أخذ القلق ينهشها. شئ ما خطأ. هاتف أنبأها بأن تتجه إلى دولاب الملابس تفتحه عن آخره لتجده فارغا تماما من ملابسه.

- تركني دون كلمة واحدة. لم يترك حتى ملاحظة على باب الثلاجة. لا شئ.

هزت كتفها وتابعت

- ما لم أفهمه هو لماذا؟ لماذا رحل دون أن ينهي الموضوع بشكل لائق؟ ألا تستحق خمس سنوات وداعا محترما؟

فقط لو أخبرها؟ لو أعد لها عشاء و شكرها وأخبرها بأنه لا يريد أن يكمل حياته معها، لكانت تفهمت و لكانت قدرت على المضي قدما. لربما ظلا أصدقاء حتى. لكن أن تقرر وضع نهاية دون أن تكلف نفسك عناء تنفيذ تلك النهاية بالشكل اللائق لهو العذاب بأحقر صوره.

أمسكتها من يدها لأوقفها

- تعالي لنتمشى.

رائعة البحيرة وهي نائمة في الثلج هكذا. الشجر أبيض وبلا أوراق.السناجب في بيوتها . البط في عشه. صعدنا التلة لنرى المشهد من أعلى . كادت ناتاليا أن تقع مرة ووقعت أنا مرتين. وفي المرتين أوقعتها معي. و أخيرا صعدنا التلة. أمسكنا بيد بعض ننظر للأفق. كانت السماء بيضاء تماما دون أثر للشمس. لم تتوقف ندف الثلج عن التساقط ولكن الرياح لم تكن قوية.

أخرجت هاتفي المحمول. خلعت قفازي وضبط الكاميرا على وضع الصورة الذاتية، أعطينا ظهرنا للبحيرة كي تظهر معنا في الخلفية. احتضنتني ناتاليا و ابتسمت في انتظار الصورة. طال انتظارها فسألت

- ما المشكلة؟

- احم لا أستطيع الوصول لزر الإلتقاط.

كانت ناتاليا هي من وقعت هذه المرة من الضحك و شدتني معها. لم نقم فورا هذه المرة وإنما استلقينا على ظهورنا و فردنا أيدينا وأرجلنا لنصنع ملاكا من الثلج. أخذت ناتاليا الهاتف و قامت بالتقاط الكثير من الصور لنا. هممنا بالنزول ولكنى توقفت و أشرت لناتاليا لترى الزلاجة المتروكة خلف الشجرة "استخدمني من فضلك!" قالت اللافتة.

نظرنا لبعضنا ناتاليا وأنا و دون كلمة زيادة حررناها من الثلج. لوح بلاستيكي كبير يتسع لي وناتاليا سنضع الزلاجة أعلى التل و سنتزحلق نزولا حتى حافة البحيرة. ثبت الزلاجة حتى جلست ناتاليا أولا و بعد أن استقرت

- هاه تمام؟

أومأت فاتخذت موقعي في المقدمة

- تمسكي جيدا. أحاطط وسطي بكلتا يديها. زحزحنا الزلاجة ببطء حتى بدأت في التحرك وحدها

- مستعدة؟

سألتني ناتاليا وقبل أن أرد زادت سرعة الزلاجة نحو الأسفل.

- اااه يا ناتاليا! ماذا فعلنا؟

تعالت صرخاتنا وضحكاتنا معا حتى ارتطمت الزلاجة بحافة البحيرة لتقف

- هووف ، اه أخيرا!

قالت ناتاليا بإرتياح وهي تربت على وجنتيها المحمرتين. ودون اتفاق منا قمنا بسرعة نتدافع

- أنا من ستكون في المقدمة هذه المرة.

- لا، أنا.

و تسابقنا للأعلى لنعيد التجربة.

14

مـيـم

انسكبت القهوة على الأرض و انكسر الكوب الصغير. أتى حمو مسرعا يتسائل عما حدث.

- معلش معلش دلق القهوة خير.

قلت بسرعة. مط أستاذ نبيه شفتيه معترضا وضرب بعكازه

- إش فهمك انتي؟

عاد حمو ليأتي بممسحة و هم الأستاذ أن يكمل وصلة صراخه لولا أن تم إنقاذي في الوقت المناسب

- ايه ياجدعان يعني اتأخر شوية الاقيكو كسرتوا الكوبايات؟

هش وجه الأستاذ و علت وجهى ابتسامة

- ياه يا عبدالحميد انت غطسان فين؟

- وحشتنى يا أستاذنا وانتي كمان يا منصورة، امال فين بلال؟

جذب كرسيا وهو يتلفت حوله.

- راح يشوف طلبية كتب وراجع.

هز رأسه وربت على كتف جاره

- عامل ايه يا أستاذنا و أخبار الشغل ايه؟

مط الأستاذ شفتيه

- اهو ماشي.

أتى عم بلال و تبادل التحية مع عبدالحميد وفي دقائق علت الضحكات وسط طرقعات الطاولة وأنفاس الشيشة.لا يتوقف الشاعر عن الكلام. إن لم يكن ينشد الشعر فهو يغني. وإن لم يكن يغني فهو إما (يناكف) في الأستاذ أو يتجاذب أطراف الحديث مع عم بلال ومعي.

- هي دي أيام ولا دي قهوة دى؟ فين لما كانت الكراسي عاملة زي المنحل من كتر الطلبة و الموظفين والناس الحلوة؟

أشار بيده وقلب شفتيه ممتعضا ثم أردف بصوت عال

- بذمتكوا دي أشكال تقعدوا وسطها دى؟

تلفت حولي في محاولة لرصد ردود فعل الناس إلا أنه لم يبد عليهم أن سمعوه. وحتى إن سمعوا فلا يقدر أحد على التدخل بأمر من صاحب القهوة شخصيا

- الترابيزة دي خط أحمر يقولوا و يعملوا الي يعملوه اه.

يعيدها عم منصور ويزيد فيها صيفا و شتاء. تابع عبدالحميد الولولة على ما مضى وعلى الوقت الجميل المدهونة ذكرياته بالسمن البلدي الأصلي

- مش المضروب بلبن بودرة بتاع اليومين دول.

ثم يعتدل على كرسيه ويأخذ نفسا من الشيشة و يطلقها في وجهي. و يذكرني بأن هذه القهوة قهوة العظماء. وهو لا يقصد الطلبة القدامى ذوو الطرابيش والأشكال النظيفة فحسب و إنما يشير بيده إلى اللوحات المعلقة لأم كلثوم و أنيس منصور وعبد الوهاب وعبدالحليم ووجوه أخرى لم أتبينها ولوحة كبيرة لعم منصور صاحب القهوة.

- أم كلثوم كانت بتيجى هنا امال ايه!

يقول وهو يضربني بلسان الشيشة حينما أهز كتفي غير مصدقة. يلتفت للأستاذ

- كانت بتيجى هنا الست أمال ايه!

فينظر الأستاذ لي و يضرب عكازه

- إش فهمك انتي؟

فأضحك. الست كانت تأتي إلى قصر الشناوي لإحياء حفلات مع عبدالوهاب و لحق بهما عبد الحليم.

- المنصورة كانت بتتقفل يوميها.

كان صغيرا وقتها ولكنه يذكر حلم أبيه الذي تلّبسه بدوره، بأن يعطيها أشعاره تغنيها "ولو ببلاش." اه إذن الموهبة متوارثة. يجذب نفسا طويلا آخر و يربت على كرشه

- عارفة أبويا دخلني الحفلة في الدِرا مرة ولا مرتين و شفتها. اه شفتها امال ايه!

وحينما سألته كيف أدخله أبيه وماذا كان يعمل؟ أخبرني بأنه كان أسطى كبيرا في الرخام.

- أبويا هو الى مرّكب السلالم الي في قصر الشناوي.

عرف أبيه بميعاد الحفلة و لأنه يعلم كم كان ابنه مولعا بفكرة لقاء الست فقد أمّن له الدخول من مدخل سري لا يعلم به سوى عمال القصر.

- أنا أول ما سمعت صوتها اتسطلت .

انتفض على كرسيه فجأه

- لكن مرة أبويا ساب لها ورق أغنية في أوضة المكتب الي في القصر.

كان يظن بأنه ما أن يجده الشناوي بك سيعجب به وحتما سيعطيه لعبد الوهاب الذي بدوره سيلحنه للست أو للعندليب هذا إن لم يطمع فيه و يغنيه هو بالطبع. أرفع حاجبي باستنكار، فيستنجد بالأستاذ الذي ينظر لي بسخط

- إش فهمك انتي؟

غيّر حمو الحجر

- ما تسمعنا حاجة يا شاعر والنبي.

- تحب تسمع ايه يا حمو؟ حب ولا هجر و لا شوق وأمل؟

مرر يده على كرشه في إستمتاع. درت بعيني بين ثلاثتهم. شعور بالأمان قلما أستشعره. رغبة غريبة في أن أقوم لأحضن كل واحد فيهم. عم بلال ينقر بأصابعه على الطاولة صانعا لحنا يتماشى مع ما ينشده الشاعر. الأستاذ أغمض عينيه و هز رأسه مع اللحن.

البنت الحلوة دي عينيها..

حلوين حلوين ياخواتي عليها..

يتمنى أروحلها و أقابل أهلها

و بقلبي أقولهم أنا طالب قربها

***

إن حصل ووجدت خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين لطلبت أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة. هذه الحلقة وهؤلاء الناس. لحظة، أعتقد بأني سأطلب طلبا آخر: أن تعود أمي. أنا و أخي وهي.

فطمت أمي أخي مذ كان عمره سنة، كي تتمكن من الخروج والعمل وتركه ورائها. كنا في الشتاء ولكن الجو كان دافئا. لم أشعر بالبرد أبدا طوال وجود أمي معي. حتى المطر كنت أحبه ولا أخافه لأني كنت أعلم بأن حضنها سيقيني البلل و البرد. لا أعلم أين كنا بالضبط. حينما كبرت عرفت بأنها قرية ميت نخلة مع ذلك لا أذكر أني رأيت أي نخل هناك.اممم ربما واحدة فقط! ولكني أذكر جيدا الغرفة التي كنا ننام بها. كنت أسمع صوت المطر يرتطم بسقفها الصفيح.بونج بونج بونج. دقات رتيبة متتالية.

كانت غرفة صغيرة بها حصيرة و كرسي خشب و طبلية. في الركن طشت و باجور وفي الركن الآخر ستارة تخفي ورائها حماما بلديا صغيرا. الطشت كنا نستخدمه للحموم كل يوم جمعة. تسخن أمي الماء على الباجور. تخلع جلبابها و تجلس في الطشت و تطلب مني أن أصب عليها الماء. حينما تنتهي تجذبني معها و (تمرشنى) حتى أكاد أبوش. أخي أيضا كان يناله من النظافة جانبا فقد كانت أمي تحمله في حجرها و تتركه (يبلبط) في رغاوي الصابون. وعندما ننتهي من الحمام تأخذ أمي جلبابها لتغسله وتنشره على المنشر أمام الغرفة. وتأخذ الطشت وترميه على الأرضية بالخارج.

عندما أغمض عيني باستطاعتي أن أشم رائحة التراب المختلط بماء حمومنا إلى اليوم. عندما كبرت كنت أرميه أنا لأن ظهرها كان يوجعها إذا ما حملت قشة. أرميه وأقف لحظات أتشمم رائحة الطين المبلول ولا أفيق إلا حين تناديني أمي للدخول. يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي نطبخ فيه. كنت أعد الأيام حتى يأتي. تجهز أمي الماء الساخن على الباجور و تتركه يغلي ويغلي ويغلي. أحيانا كنت أغفو وأصحو و أسأل

- لسه يامّه؟

لا ترد أول الأمر فأسألها ثانية لتنتبه

- لسه شوية ياعين أمك.

وتعطيني كسرة عيش ،أكلها سريعا أو أقتسمها مع أخي إن كان مستيقظا. ثم يغلبني النعاس فأغفو و اصحو لأسألها ثانية.

أمي تستيقظ قبل الفجر لتصلي، تأتي بطبق فيه لبن و تضع بجواره رغيف عيش. أحيانا لا نجد اللبن ونجد ماء عوضا عنه.عندما تأتي لإيقاظي كانت تجدني منتبهة. ما أن تسحبني أمي من حضنها كنت أفيق فورا. أنا لم أنم منذ ماتت أمي. ثم تذهب (لأكل العيش). ماذا تأكلين يا أمي ولماذا لا تأخذيني لآكل معكِ؟ أسألها ببراءة فتعدني بأنها ستأخذني حينما أكبر وبأنها تتركني من أجل رعاية أخي.كنت أظل أنا وأخي إلى الظهيرة حتى تأتي أمي بثلاث سندوتشات نأكلها معا و تنام ساعة واحدة و تعود من جديد لتأتي بعد المغرب. و تأتينا بسندوتشين لي ولأخي وحينما أنظر لها تقول باقتضاب

- كلت في الشغل.

و تضمني بيد وأخي بالأخرى وتنام دون حراك. أحيانا كنت أصحو على أناتها المتوجعة. وكانت لا تروح في النوم إلا حينما أطبطب على ظهرها وأهدهدها كما أهدهد أخي. أعتقد بأنها تفتقد أبي. كثيرا ما تناديه في نومها و تشكوه. تشكو له قسوة الأيام من دونه و تشكوه نفسه على تركها وحيدة. مات أبي حين كنت في الثالثة. تقريبا لا أذكره، بالرغم من أني أحيانا وقبل أن أنام أرغم نفسي على محاولة تذكر قسمات وجهه فأفشل.كنت أسأل أمي عنه وأطلب منها أن تحكيلي حكاياته طوال الوقت. لا هي تمل من الحكاية ولا أنا أمل من السؤال.

عندما كبر أخي قليلا كانت تسمح لي أمي بأخذه معي و الذهاب إلى كُتّاب الشيخ محمود في أول الشارع. في الحقيقة كنت في بادئ الأمر أذهب لأنه يعطيني القرص العجوة. كنت أخفي واحدة في جيبي و أعطي واحدة لأخي وأخذ واحدة. ومع مرور الوقت أحببت الذهاب لأن الشيخ محمود كان رجلا طيبا. لم يرزق بأولاد ففتح الكتاب كي يقضي وقته مع أولاد الحتّة. علمني الكتابة وقراءة القرآن. وحينما مات توقفت عن الذهاب وانقطعت القرص العجوة و ازددت جوعا.

حتى أتت أمي في يوم ومعها طاسة كبيرة تخفيها تحت طرحتها السوداء الطويلة. نادتني أمي فهرولت نحوها وأنا أحمل أخي بين ذراعي.

- ايه ده يامّه؟

كانت الرائحة خلابة.

- يلا هناكل يا منصورة.

أخذت آكل دون أن أعرف ما الذي آكله بالضبط.

- رز و فاصوليا.

وضّحت أمي

- وايه ده يامّه؟

- دي فراخ يا منصورة.

وحينما سألتها من أين تأتي تلك الفراخ، توقفت أمي عن الأكل. رأيت بعيني الأكل يتكور ويقف بعناد في (زورها) لا يبغي النزول. جاهدت حتى ابتلعته. و انفطرت في بكاء يشبه العويل.

****

كبرت وزاد إلحاحي وزادت أسألتي. أين تذهبين وماذا تعملين ولماذا لا يمكنني العمل معكِ؟ أخبرتني أمي بأننا

- أصلا مش من هنا.

وبأننا من الصعيد الجواني.

- من فين يامّه؟

تخبرني أنها قرية في أسوان .

- مليانة نخل.

تتنهد

- كنا ولاد أصول وكان عندنا قيراط أرض بنزرعه وناكل منه.

وعندما أسألها لماذا تركنا أرضنا؟ تنكس رأسها

- ماحدش بيسيب أرضه بخُطره يا منصورة.

و في يوم غائم لم يتوقف فيه المطر عن الهطول تبعت أمي دون أن تدري حتى وجدتها تدخل بيتا على أطراف القرية. تمكث فيه ساعة وتخرج. تمشي باتجاه الناحية الغربية و تدخل بيتا آخر تمكث فيه ساعة أخرى و تخرج. وهذه المرة تحمل كيس بلاستيك تحت طرحتها السوداء. لم أفهم ماذا يحدث. أخذت تدخل و تخرج هكذا حتى قرب الظهيرة. دخلت سرايا كبيرة محاطة بسور عالي واختفت عن ناظري. جريت ناحية البوابة و انتظرت قليلا حتى لا تراني أمي. رأيتها تدفع الباب الداخلي كمن اعتادت ذلك. خطوت ورائها و توقفت حين شعرت بيد قاسية توضع على كتفي

- انتي مين يابت وداخلة تتسحبي كده ليه؟

فزعت ولم أنطق. التفت لأجد خفير السرايا برأسه الأصلع و أسنانه المسودة حاملا بندقية صدئة على كتفه. بلعت ريقي وأزحت يده

- مسميش بت! أنا بنت الست الي دخلت دى.

قلتها وهرعت للداخل. التفت ورائي وأنا أجري فوجدته لازال محملقا يتابعني بفضول. تسمّرت أمام الباب غير قادرة على دفعه. لست أدري ما الذي سأجده وراء الباب. جبنت و تملكتني رغبة مفاجأة في الجري نحو غرفتنا حيث تركت أخي. لكني سمعت صرخة أمي فلم أحس بنفسي إلا وأنا في منتصف بهو واسع لم أقدر على رصد نهايته. صرخت

- ياني يامه!

كانت أمي ملقاه على الأرض تقاوم رجلا هائل الحجم لم أر في مثل ضخامته. ناديتها. فتوقف الرجل و قامت هي بسرعة تسألني من وسط لهاثها

- منصورة! ايه الى جابك هنا؟

لم أرد. فقط نظرت إلى الغول الماثل أمامي. كان يعدل من جلبابه و يمشي أصابعه على شاربه الطويل الكث. نظر لي الرجل بتمعن. شعرت بأن نظراته تحرقني فاحتميت بأمي. جسدها الهزيل اشتد كي يحميني من كيان لا أفهمه.

- ايه الي بيحصل هنا؟

انتفضنا وانكمش الغول و رفع رأسه ناحية الصوت في أدب. رفعت رأسي أنا الأخرى لأجد سيدة عجوز تستند على عكاز و تقف أعلى السلم. آه هناك سلم ؟ أين تنتهي تلك المتاهة؟ هتف بها الغول أن كل شئ تمام و نظر لأمي التي تمتمت

- وقعت يا ستى.

قطعت كلامها لتنظر إلى الغول

- وسيدي كان خارج و..

تلعثمت ولم تكمل كلامها.نظرت لي السيدة بتساؤل فضمتني أمي

- منصورة بنتي.

تفحصني الرجل ثانية وهمس باسمى ثم لعّب شاربه ومشى. شددت أمي من ضغطها علّي.حتى بدا وكأنها تريد أن تعيدني إلى داخل رحمها ثانية. تأوهت فأفاقت و تركتني أطلع السلم حين فتحت لي العجوز يدها.

****

أفقت من شرودي على هتاف عم بلال ويد عبدالحميد الشاعر تهزني لأنتبه.

- بقولك كله من أدهم صبري!

أوضح عم بلال بانفعال بأن الروايات المكدسة بأبطال مثاليين هي السبب في عدم استيعابه كمية العهر الأخلاقي التي تحدث حوله.

أخذ الشاعر نفسا من الشيشة وشرع يخبرني عن ابن خالة زوجته الذي تزوج بنت عمه من خمسة عشرة عاما. كانت أكبر منه بعشر سنوات إلا أن أباه أقنعه بأن السن لا لزوم له بين أولاد الأصول. خصوصا وإن كان لبنت الأصول ميراثا يزيد على الثلاثة ملايين بقليل إلى جانب المزرعة الكبيرة و السرايا القبلية.
وبالفعل تمت الزيجة في حضور الأهل و مباركتهم. وعاشا في تبات ونبات إلا أنهما لم يرزقا بأولاد ولا بنات. وحينما أصرت أم العريس على أن يذهبا للطبيب قبل مضي سنة من زواجهما أخبرهما الطبيب بأن كليهما سليما ولكنهما لن يستطيعا الإنجاب معا.

- امال ازاى باللاسلكي؟

سأل الأستاذ بنفاذ صبر فأشار له الشاعر بيده أن ينتظر. العريس والعروسة قادران على الإنجاب إن انفصلا وتزوجا من آخرين أما بقائهما معا لا ينتظر من وراءه بنين. لذا حينما علمت ابنة العم اجتمعت بزوجها وعمها و أخبرتهما بأنها لا مانع عندها من البقاء مع ابن عمها على المرة قبل الحلوة، مؤمنة بقضاء الله. أما إن كان لديه الرغبة في الخلفة فعليه أن يطلقها كي تتزوج هي الأخرى و تنعم بابن أو بنت يقران عينها قبل أن يجري بها العمر.

هرع عمها نحو المصحف ووضع يده عليه يخبرها بأن أخيه وصّاه على بنته الوحيدة و بأنه سيصون العهد. أما من ورائها فقد مالت الأم على أذن ابنها بأن..

- لازم تتجوز عليها وإلا هغضب عليك ليوم الدين.

وبأن..

- حرام عليك يابنى عايزة أشوف ولادك قبل ماموت.

لكن العم كان واعيا فمال على أذن ابنه هو الآخر و أخبره بأن صحيح قد تكون هذه الزيجة لا بنون من ورائها لكن ورائها المال، الكثير والكثير من المال. فلا داعي لأن يخاطر بفقدان هذا الميراث الذي جاء له على الطبطاب وبأن..

- اصبر يا ولا لحد مايبقاش فيه من مراتك رجا و ساعتها تطلب بعزمك إنك تتجوز. وساعتها الشرع كمان هيقف معاك.

- وحصل ايه ؟

هز الشاعر رأسه نافيا

- تعب و مات .

- والله خير الماكرين.

- يلا الله يجحمه ماطرح ماراح العرة النطع،مبقاش فيه أخلاق ولا حساسة والله.

- اه فعلا الناس الحساسين دول نعمة.

هز عم بلال رأسه فغمز له الشاعر

- اه امال ايه! بشرط نعرف بيحسسوا فين بالظبط؟

وقهقه ضاحكا في تلذذ. أما أنا فكانت تشغلني كثير من الأسئلة. ولكني أخاف من الفكرة التي تصر على صفع عقلي دون هوادة وتتلخص في أن من يسأل في بلدنا لابد يتوه أكثر.

- لا مؤاخذة عندي سؤال ،هي الرجولة على العريس ولا على العروسة؟

****

استأذنت ومشيت. وحينما أصبحت خارج القهوة لم أتوقف عن السب واللعن. بداخلي غضب عارم ولا تصريف له إلا عبر قتل سائق التاكسي الذي (كسر) على زميله دون أن يعطي إشارة. ولكن مالي أنا؟ إذن التصريف الوحيد عبر المشي. سأمشي من الميدان إلى المشاية.

اه لماذا نتزوج أصلا؟ لنطعن ونخون؟ أم لنسكن و نرتاح؟ على حسب ما سمعت فهذه الزيجة امتلأت بالكثير من التجاوزات التي تثير رغبتى في القيء. سرّعت من خطواتي أمر بين العربات حتى وصلت لمكتب بريد ميت حضر وهناك استندت على أول حائط وجدته وسمحت لمعدتي بالتعبير عن سخطها.

مسحت فمي وعبرت شريط القطر. عمر أفندي يهش بحثا عن الزبائن. لم يعد أفندي. فقد هيبته مع طربوشه. مررت بالحمامات الحجرية المعششات في وسط الشارع معلنين عن دهانات جوتن. اتبعت الطريق المنحدر ناحية الكورنيش عوضا عن السير وسط السيارات.

بدأ طابور الحبّيبة في التناثر على سور الكورنيش. مركب زينهم للرحلات النيلية ينتظر إكتمال عدد الركاب لبدء الجولة للشط المقابل.الوحيد الذي لا يتوقف صيفا ولا شتاء. مركب زينهم الراعي الرسمي للسياحة النيلية.والسياحة النيلية في مصر يعني (المنّيلة بنيلة) تتكلف اثنان جنيها إضافيا بدل غرق.

عموما الركاب لم ينتظروا زينهم و بدأوا في حركاتهم المتشنجة تماشيا مع اللحن الشعبي. الطابق الثاني للمركب خال. معظم الركاب يفضلون التواجد بالطابق الأرضي بجانب (الهبد والرزع) ولم لا؟ اتجهت ناحية المركب وطلعت.

وبرغم كل ما مررت و ما أمر به فأنا لا أزال أنصدم من البشر و أشعر بالخيبة من ردود أفعالهم. أنا في الحقيقة لا أغضب منهم وإنما أخافهم. نعم أنا أخاف من كل الناس. شردت بعيدا في المياه الداكنة التي انتشرت علي سطحها العلب البلاستيكية و الأوراق .

****

بعدما فتحت لي العجوز يدها فتحت عيني على دنيا جديدة. علمت بأن أمي تأكل العيش من الخدمة في البيوت. أصررت على الذهاب معها

- مبقيتش صغيرة يامّه.

ألحقت أمي أخي بشغلانة صبي مع نجار القرية. سمحت لي أمي باصطحابها. وقد تحسّن حالنا. كنا ندخل ونخرج و نتلقى أجرنا "شوية رز أو بيض ولبن" و أحيانا قليلة بضع عملات فضية تكدسها أمي في برطمان وتعلقه تحت الشباك. حتى نصل للسراية فتلتفت لي أمي وتعطيني ما كسبناه وتأمرني بالعودة إلى البيت.

- ليه يامّه؟ أنا عايزة اشوف الست الكبيرة.

تدفعني دفعا دون كلمة واحدة فأتركها وأعود على مضض. أتلفت ورائي بين الحين والآخر لأجد أمي لازالت ترقبني بعين واعية. اختلفت نظرة أمي عما كانت قبلا. لم أعد أرى منصورة الصغيرة التي تركض

هنا وهناك في عينها وإنما فتاة تقترب من عامها الخامس عشر. ولكن لمَ كل هذا القلق يا مّه؟ تعود أمي بعدما تنتهي من السرايا لأكون أنا قد جهزت غدائنا. يأتي أخى ليأكل ومن ثم يعود للورشة. أبقى أنا وأمي نحكي الحكايات حتى تنعس في حِجري. سألت أمي عن اسم قريتنا في الصعيد و أخبرتني أنها

- مليانة نخيل.

سألتها لماذا تركناها وتركنا أرضنا؟ لتخبرني كما تخبرني دوما

- محدش بيسيب أرضه بخُطره يامنصورة!

لكني لم أتركها تهرب هذه المرة فسألتها وألححت عليها حتى اعتدلت في حجري و نظرت للسقف وبدأت تحكي.

قبل شهر من تمام عامي الخامس عشر نمت في حضن أبيك كما اعتدت ولكن تلك الليلة صحوت مفزوعة على يده تهزني بعنف. كنت بين الصحو والنعاس فهزني أكثر و أخبرني بأن أكف عن ترديد ما أقول. وعندما سألته ما هذا الذي قلته و أفزعه لهذا الحد؟ ردد ما سمعه مني

- بلح أسود بيلمع مشفتش زيه ياسي عبكريم.

خاف أبيكِ من أن أجن كما حدث لستك. لم يدر بماذا يقوم أو ماذا يفعل؟ تكرر الحلم وتكرر الهذيان. أصرت ستك أن نذهب للشيخة فصرخ بها أبيكِ و طردها من البيت.

وفي نفس الليلة قطع صمت الليل صوت طرقات على الباب. قام أبوكِ يفتح الباب ليجدها أمامه متلفحة في سواد اليل. جاءت صابحة وهددته بأن عليه الرحيل قبل أن تزكم رائحة الدم الأنوف.اتهمها أبيكِ بالجنون و طردها. تريده أن يأخذني ونرحل ليحدث لنا مثلما حدث مع أبيه وأمه ولكن لا، لن يسمح لها بذلك. لن يترك بيته وأرضه مهما حصل.

تتابعت الأيام رتيبة لا جديد بها سوى ازدياد نوبات هذياني ونوبات فزع أبيكِ. وفي ظهر يوم بارد من يناير كنت أهم بأخذ الغداء و ملاقاته في الحقل ولكنه دخل علّى ووجهه مصفرا. اقتربت منه أمسك بيديه فأبعدهما عني حتى رأيت الدم يقطر منهما. لا أستطيع نسيان رائحة الدم في يده.

تحققت نبؤة الشيخة زكمت أنفي برائحة الدم في يد أبوكِ.

- ايه ده يا سى عبكريم!

لم يرد. أمرني بارتداء جلبابي ودون إبطاء جذبني من يدي وهرعنا نحو سكة القطر. لم يقل كلمة واحدة طوال الطريق. لم أعلم أين كنا ذاهبين ولا هو أيضا. تركنا كل شئ ورائنا. أرضنا وأهلنا وحتى أرواحنا تركناها هناك هائمة بين النخيل. كل ما عرفته أننا نهرب من مجهول لنجري نحو مجهول آخر.

لم يشح أبوكِ ناظره عن نافذة القطار. كان كمن يشبع عينه من كل ماحوله عالما بأنه لن يعود أبدا. بدا القطار وكانه لن يتوقف. لست أدري لكم ساعة أو كم يوما انطلقنا. كانت معدتي تتلوى من الجوع وشفاهي جافة من العطش. نظرت لوجه أبيكِ فوجدته جامدا لا روح فيه. خفت.

فقط هكذا وجدت نفسي أرتعش و أرتعش حتى لم أعد قادرة على احتواء دمعاتي. بكيت وبكيت حتى فقدت وعيي. وعندما صحوت لم أشعر باهتزاز القطار. لابد وأن ارتعاشة جسدي طغت عليه. لمحت الناس تجهز متاعها و تقترب من الأبواب. اه لابد وأن هذه محطتهم. رأيت حروفا لاسم بلد لم أفهم منها شيئا.

أفقت من شرودي لأجد جمعا من الناس قد تحلقوا حولي و بسيدة عجوز تسقيني ماء وبيدها الأخرى تطعمني بضع تمرات لم أذق في مثل حلاوتها. التفتت تربت على كتف أبيكِ

- مبروك مراتك حامل.

تكسر الجمود عن وجه أبيكِ ولأول مرة منذ تركنا البلد علا وجهه أمان انتقلت عدواه إلى و اقترب مني. لم يساعدني على النهوض وإنما جلس بجانبي . أخذ من يدي تمرة قسمها نصفين أطعمني نصف و أكل النصف الباقي وهمس

- هنسميها منصورة.

****

تسرب إلّى صراخ طفل يجري بمرح وراء أخيه.وجدت بعض الناس على كراس متفرقة بجانبي. لم أشعر بهم يصعدون. أتى من يلّم الأجرة. ومضى دون أن يطلب شيئا حين تعرّفني. بدأ المركب في أخذ دورة حتى الشط الآخر. أخذت نفسا عميقا يعلن عن ملكيتي لهذه الأرض وهذا النيل.

انتهت دورة المركب. نزلت واتجهت نحو فرشتي. لم أرى نجوى منذ صرخت بوجهها آخر مرة. ترى هل اكتفت مني و هربت؟

لم أنتهي من سؤالي حتى رأيت كيس بلاستيك معقودا ومخبأ تحت الفرشة. جلست القرفصاء وفتحت الكيس. لا توجد رسالة باسم من تركته إلا أني لا أحتاج الكثير من الذكاء كي أدرك مَن صاحبته.ابتسمت و أخذت آكل السندوتشات بتلذذ.

15

أَصحَاب الحِلم

تحركنا أوتوي وأنا قرابة العاشرة صباحا في باص الجامعة لإستقبال وفد الطلاب الجدد. أصيب سترايدر بنزلة برد حادة وقد كان من المقرر أن يصحبني إلى المطار و لكن نظرا لظروف مرضه تبدلت الخطة وتطوع أوتوي للذهاب.

- يوم مشمس ،هدية جميلة وسط هذا الثلج.

قالها أوتوي بابتسامة رائعة تسري بدفء في عينيه البنية. لا يحتاج الأمر خبيرا لإدراك أن أوتوي لا ينتمي إلى هنا. أوتوي يفضحه عامل قوي لا يتمكن من إخفائه مهما حاول. وكلما حاول إخفائه وتجاهله كلما عانده و بدا جليا في عينيه، الحنين. الحنين الذي يفضح كل (مطرود) و يلقي بنفسه من شرفة عينيه عند أول فرصة يقتنصها.

واثقة بأن أوتوي يرى النظرة نفسها في عيني لهذا كان تقاربنا محتما. تتلاقى أرواح المطاريد دون اعتبارا لحاجز لغة أو دين أو ثقافة أو حدود سياسية. المصيبة الكارثية عند أوتوي كما اختار أن يصفها هو- أنه لم يكن يعلم صراحة بأن له جانبا آخر غير الجانب الذي يظهر للجميع. وبالرغم من هذا كان يفتقد ما لا يعلمه.

قارب على الجنون. فمنذ صغره اعتاد أوتوي على أن يأمر فيطاع. بكلمة أو إشارة واحدة يركع الجميع أمام الكاريزما الساحرة التي يملكها. بنظرة واحدة من عينيه البنيتين ينال ثقة من حوله فيسلموه زمام أمورهم عن رضا و اطمئنان. كان قائد مجموعة وقت كان في الصف الخامس الإبتدائي. كان صف التاريخ بقيادة أستاذة سالي رودريجز يتحضر لرحلة ميدانية لوادي كانيون العظيم. و تم اختيار أوتوي قائدا للمجموعة. اختيار بديهي بالطبع، فالطفل ذو شخصية قيادية بالفطرة.

ولكن المشكلة كانت عندما بدأت المدرسة في تجهيز أوراق الطلاب من أجل حجز تذاكر الطيران،حينها فارت المشكلة فجأة ودون إنذار. علم أوتوي بأنه لا يملك أوراقا رسمية. وعندما سأل أمه أخبرته

- لأننا لسنا من هنا يا عزيزي،نحن أصلا من نيجيريا.

وكان هذا الرد الذي جعل عينيه البنيتين تزيد اتساعا على اتساعها ولأول مرة اختبر أوتوي الشعور بالهلع و امتلأت عيناه بالخوف.

أصرت الأستاذة على الذهاب بالباص بدلا من الطائرة كي لا تضيع الرحلة على أوتوي. فقد هو الرغبة في كل شئ.

- في لحظة واحدة وبعد إحدى عشر سنة اكتشفت فجأة بأن لي جانبا آخر مظلما لا أعلم عنه أي شئ.

أخبرني وهو يرسم دائرة واسعة أمام عينه. لكن الأستاذة العظيمة وقفت إلى جانبه ولم تسمح ليأسه بالسيطرة عليه. قرر ألا يتم تعليمه الثانوي

- ما الفائدة وأنا لا أملك المال الكافي للجامعة ولا حتى الأوراق اللازمة للتقديم على منحة؟

وبدأ أوتوي يجهز نفسه لفكرة أنه سيعمل بالمطاعم مثل أمه. لكن الأستاذة شجعته على تقديم أوراقه لمنظمة DACAأو أصحاب الحلم. ونجح أوتوي ونال منحة كاملة تكفلت بكامل التكاليف الدراسية في جامعة من أعرق الجامعات في أمريكا.

- أحلامي لا سقف لها مثل أمي بالضبط.

يقول أوتوي بين الفينة والأخرى وهو يبتسم ابتسامة حالمة. أم أوتوي مثلها مثل كثيرين، يأتون لأرض الأحلام في محاولة لتحقيق حلمهم. أو في محاولة للبحث عنه. هاجرت لأمريكا وقت كان عمر أوتوي سنتين. هربت من الفقر والجوع و أتت لأرض الفرص.

أينعم الطريق لم يكن مفروشا بالورود و فرصها كانت قليلة . كما أنها لم تجد حبة شوكولا على وسادتها في الصباحات التالية حين كانت تعود مكدودة بعد مشاوير البحث عن عمل.ولكنها و أخيرا تمكنت من نيل عملا ثابتا في مطعم المدينة و مسكنا صغيرا لها ولابنها الذي ألحقته بالمدرسة وعملت المستحيل من أجل أن يكبر في سلام. ولأنها خافت من أن يتشتت الولد بين أصوله وبين عالمه الجديد فقد أخفت عنه حقيقته و تعاملت معه على أنه أمريكي.

- لم أكن أريد أن ينعتك زملاؤك باللاجئ. خفت من أن تشعر بالضياع والتيه يا حبيبي.

قالت أمه وهي تحتضنه وتنهنه بدموع حبستها لما يزيد على العشر سنوات.

- يكفيك ما تتلقاه من مضايقات حول لونك الأسمريا صغيري.

مرحبا بك في أمريكا! أكبر دولة ديمقراطية/عنصرية في العالم. اعترف لي أوتوي لاحقا

- في الحقيقة كنت أحس بفقدان شئ ما، عثرت عليه بين دموع أمي في ذلك اليوم.

ومن يومها بدأ أوتوي في القراءة عن بلده وعن ثقافته و أهله هناك.

- وكلما قرأت كلما شعرت بأني منقسما بين شعوري بالغضب لإكتشافي المفاجئ وبين حنيني لأهلي وأصلي وأرضي.

بدأ أوتوي في التعرف على جانبه المظلم وإضائته يوما بعد يوم. بدأت عينه تتفتح على طلاب كثيرين في مثل حالته. في أرجاء الولايات المتحدة بأكملها و اقترب منهم واقتربوا منه وشعروا بأنهم ليسوا وحدهم. و قرروا بأنهم ليس عليهم مداراة الحنين في أعينهم بعد الان.

****

وصلنا نيويورك ظهرا. التفاحة الكبيرة التي تغري الجميع بقضمها و التي لا تهدأ أبدا. اتفقنا مع السائق على أن يأتي ليقلنا بعد ساعتين ونصف في نفس المكان.

الجادة الخامسة الشارع 42 غرب محطة القطار، حيث مكتبة نيويورك العامة. ثاني أكبر مكتبة في أمريكا بعد مكتبة الكونجرس بواشنطن. ورابع أكبر مكتبة في العالم. استوقفنا تمثال الأسد الحجري المغطى بالثلوج والقابع أمام المدخل من اليمين.

في المدخل يقف موظف الإستقبال يحيي كل الخارجين والداخلين بابتسامة. إلى جانبه سبورة سمراء مكتوب عليها "مرحبا" بجميع اللغات المعروفة تقريبا.

- هيا نبحث عن مرحبا بالعربية.

قال أوتوي وضحك. أراد أوتوي أن يدرس العربية حينما علم أني من سأدرسه،فالتحق بصف العربية للمبتدئين. بحثت عنها بعيني

- اه هناك.

سبقني أوتوي، تلميذي النجيب. التقطت لأوتوي صورة وهو يغمز ويشير بيده إلى الكلمة على السبورة. تجولنا بالداخل. المكان واسع جدا و به قاعات عديدة للإطلاع. أيضا هناك قاعات للدروس و المحاضرات.

جامعة الولاية تمنح طلابها إذنا بدخول المكتبة وإستخدام كتبها وقاعاتها. صعدنا للدور الثاني لنجد به قاعات أوسع وأكبر. استوقفتني لوحة جدارية لرجل يجلس بوقار على مقعد مكتوب تحته اسم المكتبة.

- هذا شعار المكتبة.

أخبرني أوتوي فهززت رأسي

- أعرف وهو تجسيد للحكمة، نملك مثال يشبهه للكاتب المصري القديم لكنه مقرفص.

غمزت

- حتى هذه الفكرة سرقها الأمريكان منا يابنى.

ضحكنا بخفوت.

***

وخطينا نحو قلب العالم. تقاطع العوالم و الجسر الأبيض كلها ألقاب و أوصاف لميدان تايمز الشهير. اكتسب الميدان اسمه بعد أن نقلت جريدة التايمز مقرها هناك في العام 1904. بعدها بثلاث سنوات بدأ تقليد إسقاط الكرة مع العد التنازلي الشهير في رأس السنة.

تقليد يتكرر في رأس السنة و يجذب أكثر من مليون زائر. مؤخرا يتم إسقاط الكرة في مناسبات أخرى مثل عيد الحب والهالوين. يمتد الميدان الشهير في وسط مانهاتن من الشارع 42 إلى 47 غرب. متضمنا الكثير من المحال التجارية العالمية ولافتات الإعلانات ذات الألوان والإضاءة الجذابة التي تخطف الأنظار. يعتبر الميدان من أكثر المعالم السياحية جذبا للسياح بالعالم، 130 مليون سائحا سنويا. هذا يعني ما يقرب من 330 ألفا في اليوم الواحد. تلفت حولي أرقب الناس والوجوه المتعددة التي تمضي هنا وهناك.

وجه أسمر وبنى وأبيض وأحمر، شعر أسود وآخر أشقر،رؤس أخرى مغطاه بحجاب وغيره. الكل يمشي مشدوها.

ترفع رأسك عن الوجوه بألوانها المختلفة لتقع عينك على ألوان اللافتات المجنونة و الفيديوهات المعلنة عن برامج و أفلام. تكلفة الإعلان في الميدان تبدأ من مليون إلى أربعة ملايين إذا ما أردت حجز لوحة إعلانية. هاهي إلين ديجينرس تطل علينا في لوحة عملاقة تحتل الواجهة الأمامية من مبنى على يساري. اللوحات الإعلانية تقترب في اتساعها من ملعب كرة قدم و تمتد لما يقرب الثمانية أدوار.

مبنى آخر على يميني يذيع جزءا من مسرحية علاء الدين التي تعرض حاليا في مسارح برودواي على بعد خطوات.

يشدني أوتوي من يدي لأنظر إلى التجمهر البادي أمامنا في الجهة المقابلة من الشارع. رجلا يحتضن ابنه و أخرى تقبل ابنتها. وهذان المتحابان يحتضان بعضهما ،آخران يتابدلان القبلات و يقفان وكلهم يبتسمون

ويضحكون و يلوحون لمبنى آخر أمامهم. دققت النظر، هم لا يلوحون للمبنى وإنما للافتة الإعلانات التي تحتل واجهة المبنى. كل عشر دقائق تلتقط كاميرا مثبتة في اللافتة صورة للواقفين وتحيطها بقلب كبير.
- عيد الحب!

قال أوتوي فبرقت عيني في فهم.

جذبني أوتوي رغما عني كي نستكمل الجولة. محل إم أند إمز على مقربة. دخلنا المتجر و غرقنا في الشوكلاتة. مررنا بالكثير من محال الملابس العالمية على عجل. إتش أند إم وجاب و فورإفر تونتي ون و سيفورا.

أما إذا ما كنت تحب الموسيقى عموما والروك بشكل خاص فأنا أرشح لك هارد روك كافيه. هو أصلا سلسلة من الفنادق و المطاعم تتوزع فروعها في أمريكا كلها. يعتبر الكافيه علامة تجارية مسجلة لعاشقي موسيقى الروك.و يحتوي على الكثير من الألات الموسيقية. أنواع كثيرة جدا للجيتار و اليوكولي لي . تستطيع تجربة الجيتار و العزف عليه.

وبالطبع التقطنا الصور،الكثير والكثير من الصور. ولا تنس قبل الخروج أن تصنع تذكارا لك. انتظرت دوري في الطابور. كان أوتوي يجرب بعض التي شرتات التي تحمل طبعة واسم المحل بالقرب مني.

أمسكت بنظارة أجربها حتى يأتي دوري.

انتهى الاثنين قبلي فأخذت دورى أمام الماكينة. وقفت دقيقة أقرأ التعليمات. قلادة على شكل قلب بخمسة وعشرين دولارا. أما تميمة الجيش بعشرين. خاتما بخمسة عشر. و إسوارة بثلاثين. اخترت قلادة الجيش. استخدمت بطاقة البنك للدفع . حسنا التالي. اختر النقش الذي ترغب به.

نقش ملون أو أبيض وأسود لِلُوجو المحل. أنا أحب النقيضين و أجمع بينهما في كثير من الأمور.الخطوة الأخيرة أدخل اسمك و تاريخ اليوم وأي مقولة أخرى تحبها . وقفت أفكر للحظة، ثم ضغط زر التأكيد.

ظهرت رسالة تخبرني بالإنتظار ريثما يتم صنع القلادة. وقفت أتابع العملية في فضول. كنت فرحانة جدا الحقيقة. صدر صفير خافت و رسالة تعلن عن إنتهاء العملية بنجاح. يمكنني مد يدي و التقاط القلادة من الركن المفرغ أسفل الماكينة الآن. التقطها أوتوي بدلا عني و سأل..

- من تكون منصورة ؟

****

تبدأ الشمس رحلتها اليومية بالشروق. وجه رقيق يمتاز بحنّوالبدايات وشوقها ،العنوان: الأمل.

بعدها تخطو الشمس بثبات. تمر بالكثير من المواقف و الحكايات الجميلة التي تقابلها بابتسامة فتحنو على مريديها و تملأ سماها بسحابات بيض تذهب عنا حرها. أما الحكايات التي تثيرغضبها تدفعها للسخط على كل من تلقي بآشعتها عليهم فتحيل نهارهم إلى جحيم. تتعثر خطواتها،تمشي خطوة و ترجع عشرة. وأخيرا

تلتقي بمن تطمئن له. تثبت أخيرا في حرارتها ووهجها حتى تستقر في العصرية. العنوان: المثابرة والنضج.

تمشي جنبا إلى جنب مع حكاياتها وذكرياتها الجميلة و تتكئ على كتف حبيبها على سور الكورنيش وتقفل رموشها على رحلة عمرها وقت الغروب. العنوان: بداية الرحلة. بلى البداية،فلا نهاية لمن بدأ بأمل و ثابر و حاول.

منصورة مثل الشمس تمام. لها أكثر من وجه و أكثر من حال لكنها أولا وأخيرا منصورة.
كيف أخبرك من هي منصورة يا صديقي فأنا نفسي لا أعرف.

خرجنا من المحل. و اتفقنا على الاتجاه نحو السلم الواسع ذو الدرجات الحمراء. لا تخلو تلك الدرجات من الناس. ارتقينا الدرجات نلتف من حول هذا ونمر من بين الجموع المتفرقة. وصلنا لقمة الدرج. أخذت أتلفت بعيني أحاول التهام كل ما حولى. اللافتات الملونة على يميني ويساري.هناك قناة تلفزيونية تجري حوارا مع بعض السائحين بأسفل السلم. مجموعة من الطوابير الطويلة وراء الدرَج تقف حول أكشاك متفرقة. جذبت أوتوي من يده أسأله

- ايه الطوابير دي يا إفي، هل يقوم المارينز بتوزيع اللحوم هنا ؟

ضحك في عدم فهم. أخبرني أنها أكشاك قطع التذاكر في برودواى. يمكنك بالطبع حجز التذاكر أونلاين قبل موعد العرض بشهور. ولكن إذا ما قررت دخول المسرحية دون تخطيط مسبق فالأكشاك هي الحل الأمثل. بالإضافة إلى ذلك فإن الأكشاك تقدم عروضا ممتازة لبعض المقاعد. مثل القرعة تذهب وتدفع تسعين دولارا لمقعد يتكلف ما لايقل عن 150 دولارا. برقت عيني في إستمتاع.

جلسنا على الدرج نشرب بعض القهوة و نأكل الهمبرجر من شيك شاك. اقترب الموعد. باقي عشر دقائق على اجتماعنا بالسائق. ألقيت نظرة أخيرة حولي. نزل إفي درجة سلم ورفع رجله ونزل درجة أخرى وتوقف. تابعته في فضول أشار لي بالإنضمام إليه. تبعت حركاته.اه نحن نرقص على درجات السلم وكأنها مفاتيح بيانو. قهقهنا ضاحكين في فرح.

****

تفقدنا مواعيد وصول الرحلات في لوحة المطار الإلكترونية. ستصل أول رحلة في غضون نصف ساعة. كنا قد قضينا الأمس في رسم بعض اللوحات الصغيرة باسم كل طالب على حدة. راجعت قائمة الأسماء وقارنتها بأول اسم منتظر وصوله. أول طالب سيصل من المملكة المتحدة واسمه آدم عمر. ترى هل هو عربي؟ ليس ضروريا. آدم وعمر اسمان عالميان. جنسيات كثيرة تطلق هذا الاسم على أبنائها. مثل اسم سارة و ليلى وسوزان عند البنات.

ثم ماذا إن كان عربيا؟ عن أي شئ تبحثين بالضبط يا نجوى؟ أم ترى هو ذلك الحلم السخيف الذي أخبرتكِ عنه منصورة؟

****

استيقظت على رنة الهاتف المتتالية. من سيتصل في هذا الوقت؟ ألقيت نظرة بنصف عين على الشاشة لأجد اسم منصورة.

ترى ماذا حدث؟ هل أصابها مكروه؟ هل أخي بخير؟ أختي حصل لها شئ؟ ضغط زر الرد و لم أقدر على النطق. كانت تصرخ بكلمات لم أتبينها فطلبت منها أن تعيد ماتقوله. سمعتها تبتلع ريقها في سرعة في محاولة لتنظيم أنفاسها. وسألتني إذا ما كنت أحلم. لم أفهم.

- انتي مصحياني الفجر عشان تسأليني لو كنت بحلم؟

صرخت فّي بغضب وطلبت مني بأن أفيق وأسمعها جيدا. اعتدلت في سريري، أمسكت بالمخدة الصغيرة أضعها وراء ظهري.قطبت حاجبي بعد أن نجحت لهجتها وكلماتها في إفاقتي، واتسعت عيناي عن آخرهما مما أسمع. بعدها لم أستطع منع ضحكاتي.

أطلقت منصورة سبة و انتظرت حتى سكت ثم أكملت غاضبة

- اضحكي زى ما انتي عاوزة بس أنا أحلامي مبتنزلش الأرض أبدا.

لم تنتظر ردا مني و أنهت المكالمة غاضبة.

***

انتبهت على إفي يهز كتفي

- هاه أين ذهبتي؟

التفت له

- تريد أن تعرف من تكون منصورة؟

أومأ موافقا في حماس واعتدل في مقعده يسمعني.

16

مـيـم

كنت قد انتهيت من ترتيب الحجرة ووضعت حلة الكوسة على الباجور. أخذت أنقي حبات الأرز لأجهزها. دخلنا أنا وأمي ثلاث بيوت اليوم. نظفت وكنست و غسلت سجاجيد. حتى أذن العصر. أمرتني أمي بالذهاب للسوق

- نفسي في شوية كوسة.

أعلم بأنها (توّزعني) فهي كالعادة لا تريدني معها في السرايا.

- جهزى الأكل وأنا شوية وهاجي.

هززت رأسي و اتجهت ناحية السوق. توقفت في منتصف الطريق أردت بأن أتبعها مثلما فعلت أول مرة. ولكنها ستغضب و أنا لا طاقة لي بحزنها.

اشتريت الكوسة التي طلبتها أمي و زدت باذنجانة وبضع فلفلات. الست من البيت الأول أعطتنا (شوية رز). حملت ما اشتريت و اتجهت للحجرة.الجو حار جدا. يبدو أن فبراير اختلط عليه الأمر حتى حسب نفسه أغسطس.

الكوسة تغلي. بعدت عن وهج الباجور. لازلت أتصبب عرقا. فتحت باب الحجرة وأخذت صينية الأرز معي أنقي شوائبها في الخارج. أسندت ظهري إلى الباب. الذباب في كل مكان. لا صوت لأطفال الشارع الصغار لابد وأن أمهاتهن نادتهم من أجل الغداء. وحدي أنا في الشارع و شجرة طويلة لا تهتز فيها ورقة واحدة. لا أثر حتى للعصافير. ترى أين ذهبوا؟

وقعت عيني على غراب أسود كبير يتربص بي من بين أوراق الشجر. رفرف بجناحيه وكأنه غضب لأني قد كشفت موقعه السري و أخذ ينعق بصوته العالي . تركت الصينية من يدي والتقط بضع حصوات رشقته بها كي أنهيه عن نعيقه. توقف حتى انتهت حصواتي ومن ثم عاود الكرة وكأنما يعاندنى.

أخذت الصينية ودخلت الغرفة بغضب.انتبهت لرائحة (شياط) اقتربت من الباجور أرفع غطاء الحلة كي أطمأن على الكوسة.اخ! ضاعت الكوسة. وجدت الحلة وقد قاربت الصلصة بها على الإحتراق. زدتها بعض الماء وأنا ألعن الغراب في سري. قربت معلقة صغيرة التقطت بها حبة قطعتها بأسناني الأمامية بحرص، وذقتها. اه جيدة ولكنها بحاجة لملح.

أرغب أيضا في قلي بعض الفلفل و الباذنجان لأخي. أخي لا يقضي وقتا كثيرا معى منذ اشتغل في ورشة النجارة. أصبح عصبيا و سريع الإنفعال. أخبر أمي بأن هذا من تأثير صاحب الورشة،ذلك الرجل النزق المتزوج من ثلاثة والذي أراد أن يجعلهن أربعة بإضافتي لهن. وحينما رفضت أمي تقدم لها هي. مخبول.

أُلح عليها بضرورة أن يترك أخي العمل عنده

- وكفاية انى بشتغل يامّة معاكي واهو حالنا بقى احسن، سيبيه هو يروح المدرسة.

ولكنها تربت على ركبتي وتخبرني بأنها شقاوة فحسب. وبأن

- القرشين الي بيجيبهم اخوكى أهم بينفعوا في أي حاجة.

أتنهد وأسكت على مضض. أمي لا تعرف ما أعرفه أنا. فأنا من لا تنام حتى يأتي هو قرب نصف الليل. هي تنام مكدودة بالرغم من نيتها في انتظاره. كل ليلة تخبرني

- هرتاح بس على رجلك ومش هنعس.

لكنها تنعس. ذات ليلة انتظرته خارج الغرفة . رأيته يأتي من بعيد. يتأرجح كمن يسير على حبل. يقدم قدما ويؤخر أخرى. وحينما سألته أين كان، تلعثم وأخبرني أنه آت من الورشة. سألته وأنا أزغده في صدره بغضب

- أي ورشة في نص اليل؟

أطلق سبة و رفع يده علّي محاولا ضربي. لم يكن في وعيه. ليس هذا صغيري الذي كنت له أما حتى تعود أمنا من شغلها في البيوت. اعترضت يده في طريقها لخدي وصفعته أنا. صفعة قوية تردد صداها في الشارع حتى ظننت أنها ستوقظ أمي. إلا أن الصمت الآتي من الحجرة نبأني بأنها في سباتها المكدود لازالت.

نكس رأسه و لم يرفع عينه. أخبرته بأن الرجل لا يعود بيته مترنحا في أنصاف الليالي وإنما الرجل من يحيط بيته وأهل بيته برعايته وبأن البيت يحتاجه و يحتاج حضوره بأكثر مما يحتاج جنيهاته. هز رأسه بخجل ولم يرد. احتضنته و قدته للداخل دون كلمة زيادة. كبر أخي للأسف. ليتك بقيت صغيرا يا صغيري.

أرحت حلة الكوسة من على الباجور ووضعت الأرز. أحضرت الباذنجانة الكبيرة التي اشتريتها مخصوص لأخي. أخذت أقشرها حتى أتاني صوت الغراب من الخارج فزلت السكين من يدي وجرحتها. رميت الباذنجانة وجريت على الطشت أفرغت بعض الماء في وعاء صغير وصببت على يدي أغسلها.

- أما غراب رخم صحيح! جاى تنعق على باب بيتنا ليه ياغراب الشوم؟

عدت لتقطيع الباذنجانة بحرص هذه المرة. قمت بنقعه في الماء كي لا يسوّد كما علمتني أمي. قطعت بعض الفلفل ودققت الثوم من أجل التتبيلة. أزحت غطاء الأرز وقلّبته.

- الرز معجن النهاردة.

ليست مشكلة أحسن من مافيش. عادت لذاكرتي أرغفة العيش وطبق الماء. هززت رأسي أهش الذكرى بعيدا. أنهيت تحمير الباذنجان والفلفل. أصدرت معدتي صوتا تعلن فيه أنها جائعة. جهزت ماء الإستحمام لأمي. أذن المغرب ولم تأتِ بعد. خرجت أرقبها . هذا الغراب الأرعن لا يكف عن النعيق. إن بقيت لحظة واحدة زيادة سأتسلق الشجرة و أنتف ريشه واحدة بواحدة. اه لا فائدة. عقدت حاجبي في حزم. تأكدت من غلق الباجور. أقفلت باب الحجرة. واتجهت للسرايا.

السرايا لازالت قابعة في مكانها منذ رأيتها وقت تبعت أمي خفية. لم يتغير شئ. فقط سقط الدهان وتقشر عن جدرانها الخارجية فبدا الطوب الأحمر و كأن الجدار ينزف دما.

تمام، بدأت أفهم لمَ تمنعني أمي عن المجئ هنا. حتى الأشجار التي تحيط بالسور أشجار مقوّسة و صلعاء لا توجد بها ورقة واحدة. أي شجر هذا الذي يحمل الهم حتى تقوّس ظهره!

تسمرت فجأة حين رأيت الغراب. ترى هل تبعني إلى هنا؟ لا لا لابد وأنه آخر. لم يكن الخفير الذي رأيته أول مرة موجودا. كانت بندقيته مسنودة بإهمال عند البوابة. دخلت بسرعة قبل أن يظهر فجأة و يضايقني بأسئلته السخيفة.

اقتربت من الباب الداخلي. أسندت أذني على الباب ولكن لم أسمع أي صوت. هل أنادي على أمي؟ أم على الست الكبيرة؟ اه ستغضب أمي كثيرا. ترددت من الموضوع كله وهممت بالرجوع. ولكن لا، فليكن مايكون. أخذت نفسا ودفعت الباب بيد مرتعشة ودخلت.

كان البهو مظلما. لم يفتحوا الأنوار. مررت بالسلم الكبير و ناديت

- في حد هنا؟ يامّه؟

لمَ يرتعش جسدي هكذا؟ بلعت ريقي و عاودت سؤالي بصوت أعلى

- يالي هنا؟ أنا بدوّر على أمي.

ردّ علّي صدى صوتي المرتعش . هممت بالعودة وصعود السلم حين سمعت جلبة في المطبخ. لابد وأنها أمي، ليتها تكون أمي. اختنقت من وجودي في هذا المكان وأنا لم أكمل دقائق عشرة، فكيف تحتمل أمي المسكينة هذا الصمت الذي يبتلع كل من حوله وما حوله كثقب أسود؟ حتى النور ابتلعه.

لم يكن للمطبخ بابا وإنما ستارة كبيرة سوداء. اقتربت من الستارة أنوي إزاحتها ولكنها سقطت فجأة. جذبتها يد ما. مهلا أنا أعرف هذه اليد جيدا. لطالما كنست وغسلت سجاجيد.

- أمّه؟

كانت ملقاه على وجهها، تأخذ نفسها بصعوبة. وجهها حين رفعته كان داميا و مزرقا. أرحتها على صدري. لا أفهم مايحدث.

- انتي وقعتي يامه؟

لم ترد. زاغت عيني في المطبخ أبحث عن إجابة. طاولة كبيرة في المنتصف يتفرق على سطحها بعض الأطباق و السكاكين. ثلاجة كبيرة تزأر وتهتز. إلى جانبها غسالة بالكهرباء تقطر منها المياه. رائحة نتنة تأتي من الغسالة.بوتجاز كبير في الركن به أربع عيون حمر ترمقنني بتشف. حلة كبيرة ممتلئة عن آخرها بالمياه التي تغلي وتغلي و تفور على سطحه لتغرقه. تسسسس.

ستارة أخرى وراء البوتجاز مرفوعة من جانب لتبدو من ورائها أكوام البصل و الثوم و البطاطس المكومة. عدت بعيني إلى أمي التي لم يكف جسدها عن الإهتزاز. زادت زرقة وجهها ولم أدر ماذا أفعل.

وقعت عيني على زجاجة مياه ملقاه على الطاولة. هرعت نحوها ولكني تسمرت في مكاني حين رأيته يخرج من وراء أكوام الثوم والبصل.

تسارعت دقات قلبي. رجعت للوراء أحتمي بأمي الملقاه على الأرض وقد علا نحيبها المتقطع. كان يعدل من ملابسه دون أن يشيح بعينه عني. إنه الغول الذي رأيته زمان. ازداد ضخامة.

نقلت نظري بينه وبين أمي. ترى هل...

- اسم النبي حارسك انتي كبرتي وادوّرتي خالص.

غمز وهو يقترب مني. جذبتني أمي من جلبابي في محاولة منها لشدى للخارج. تخشبت و لم أقدر على الحراك. جاوزني دون أن يتوقف. تنهدت تنهيدة كبيرة سرعان ما أعدت حبسها بصدري حين وقف واستدار لي

- ماتبقي تيجى انتي بدل أمك المرة الجاية؟

وأشار لها

- أصل زى ما انتي شايفة كده هي مبقاش فيه منها رجا خلاص.

غمز

- بس طبعا تلّيني دماغك قبل ماتيجى.

وبعدها حدث كل شئ بسرعة. لم أفق إلا والسكينة بيدي تقطر دما. هل قتلته؟ ولكن كيف؟ كيف لعصفورة أن تقتل غولا؟ ولكن كل ما فيه يشير بأنه قتل. الدم الذي يجري منه على أرضية المطبخ ليختلط بمياه الغسالة النتنة. عينه التي تكاد (تنّط) من مقلتيها من المفاجأة. وجسده الذي يهتز في جنون.

جريت نحو أمي. كانت قطعة ثلج باردة. فتحت عينها فجأة وبأنفاس متقطعة همست

- طعمه حلو قوي!

- ايه يامّه الي طعمه حلو؟

ابتسمت بوهن

- البلح الي أبوكي بيأكلهوني، أسود بيلمع مشفتش زيه يا منصورة.

قالتها وسكنت تماما. حاولت إفاقتها ولكن دون فائدة. جريت نحو الخارج. لست أدري ممن أجري ونحو من أجري. كانت تمطر. آلمني خدي حين ارتطمت به قطرات المطر الساخطة، كانت تغلي.

احتميت بالسقف. استحالت الأرض طينا من شدة المطر. أكره المطر وأكره من يحبونه. تكوّم الخفير في الكشك الخاص به . رفعت رأسي أبحث عنه. الغراب لازال واقفا يرقبني. حين رآني رفرف بجناحيه ،نظر لي مرة أخيرة ونعق ثم طار حتى اختفى. لقد أشرف بنفسه على تنفيذ المهمة ولا يوجد سبب لبقائه الآن.

مسحت دمعاتي التي اختلطت بالمطر. أخذت نفسا عميقا. اتجهت للداخل مرة أخرى. حملت جسد أمي الذي كان خفيفا كالريشة. ضممت ثوبها الذي تقطع في أماكن كثيرة حول جسدها المزرق.لا ليس بعد. أرحتها عند الباب الخارجي ودخلت مرة أخرى. ألقيت على جسده نظرة. كان لايزال يهتز.

اتجهت نحو البوتجاز. أغلقت الشعلة فتوقف الماء عن الفوران. وبيدي العاريتين حملت الحلة و اتجهت نحوه. هل سمعت أنينا؟ لا يهم. هل صدر الأنين مني أم منه؟ أيضا لا يهم.

ألقيت بالمياه المغلية على وجهه وجسده حتى آخر قطرة. و دون أن ألقي عليه نظرة واحدة زيادة، اتجهت للخارج حملت أمي أضمها إلى صدري ومشيت.

****

أفقت على هزات قلقة. أهو جسدي الذي يهتز من البرد؟ عادت الهزات مع نداء قلق لاسمي. فتحت عيني لأجد نجوى جاثية فوقي تنادي اسمي بخوف.

- مالك يا ميم؟

سألت بقلق. اعتدلت وفركت عيني

- كنتي بتعيطي؟

هززت رأسي نافية.

- انتى ايه الى جابك دلوقتي هى الساعة كام؟

ابتسمت

- الساعة سبعة ونص.

نظرت لها بدهشة. لازال الوقت باكرا. لابد أنها لم تنم.

- مجانيش نوم ومعرفتش أشوفك امبارح فقلت اجى أطمن عليكي.

اتجهت نحو منطقة منخفضة من السور، وقفزت. صرخت نجوى و اندفعت نحوي لكنها توقفت حين وجدتني أغسل وجهي و يدي من النيل.

- متقلقيش مش هنتحر.

هزت كتفها بإستسلام . قفزت أعبر السور مرة أخرى وسألتها بابتسامة

- فطرتى؟

أخبرتني بأنها معي أينما ذهبت. طلبت مني بأن أعتبرها مثل ظلي الذي يتبع دون كلام، موسى الذي لن يسأل الخضر حتى أبدي لها أنا ما خفا عنها. أخبرتها أنها لن تستطيع معي صبرا وبأن المشقة والهول الذي ستراه وتسمعه وتتعلمه اليوم سيتخطى ما تعلمته عمرها كله. ردت بأني سأجدها إن شاء الله من الصابرين.

- مش هينفع تتحركي معايا كده.

قلت وأنا أشير بإصبعي نحوها في إشمئزاز. كانت ترتدي جيبة بنية و قميص بيج بكم طويل، فوقه جاكت بني قصير،و كوتشي أبيض في بيج و طرحة بنية منقوشة بورود بيج. اكتملت اللوحة بعيونها البنية الواسعة و رموشها الطويلة.

بدا القلق على وجهها الخمرّي المشرب بحمرة وعضت شفتيها القرمزيتين في قلق. شدت من الجاكيت حول جسدها.

حككت رأسي و تظاهرت بالتفكير

- لازم نوسّخك شوية.

وقفت أمامي مأخوذة غير متأكدة مما إذا كنت أمزح. تشاغلت عنها بالتمطي و التثاؤب وعندما وجدتها لازالت واقفة أشرت لها بيدي أن تسرع.

أزاحت الحيرة عنها، و أخذت تتلفت بحثا عن شئ ينفع (لتوسيخها) لمحت كومة من التراب بجوار السور، انحنت نحوها وأمسكت بها بيدها اليمنى. ونظرت نحوي.أنا أتابعها بفضول حقيقي . هل ستفعلها ؟ وفعلا رفعت التراب نحو وجهها. فضحكت أنا وتنهدت هي بارتياح إلا أنها حاولت التظاهر بالبرود .

- أول درس، ناس كتيرمن بره متمكيجين ومتأنتكين ولابسين الي على الحبل ومن جواهم يقولوا لكومة الزبالة قومي واحنا نقعد مطرحك.

قلت وأنا أمسك بكفها أفتحه ليتساقط التراب عند قدميها. هزت برأسها دون أن ترد

- بس برده مش هينفع تتحركي معايا كده، تعالي ورايا.

أحتفظ بكيس بلاستيك به قميص و بنطلون. أرتديهما عندما يكون الطقم الذي ألبسه مغسولا. أخذت الكيس البلاستيك من تحت الفرشة. كومت الفرشة و تركتها مكانها.

عبرنا الطريق و اتجهنا نحو أول عمارة قابلتنا، نحو البدروم الذي أعرف مكانه جيدا.ترددت هي ووقفت عند البوابة دقيقة حسمت فيها أمرها ثم تبعتني. ناديت على صابحة، بوابة العمارة فلم ترد.

تدليا من الصعيد هى وزوجها- وكانت يدا بيد معه، في الواقع كانت يده ورجله لأنه كان يعرج إثر تعرضه لحادث.وذات مساء عادت من مشوار لتجده في فرشتها مع أخرى. أخبرتني بأن ما حرقها بجد و أذهب

بعقلها هو أنه كان قد أزاح رضيعها ذو الشهرالواحد من على الفرشة، ألقى به جانبا ليفسح الفرشة لنفسه ولمن أتى بها من الشارع.

بدلا من قتله –وهي تقدر،قررت أن ترميه في الشارع يتكفل هو به. (كرشته) وطردته و مسكت هي العمارة. يعرج بين السيارات ويشحت عند الإشارة و أحيانا أخرى أمام عمر أفندي.

أخطأ مرة وتعدى على منطقة الباز إلأ أنه انضرب علقة ساخنة وتوعده بأن يقطع له رجله عن آخرها إن حدث ورآه في منطقته. حكى لي وحكيت لها فضحكت بكامل عزمها. وصابحة لديها ضحكة ترج العمارة بأدوارها العشرة. كلب أجرب من يتنازل عن تلك الضحكة.

ناديتها مرة أخرى، لابد وأنها خرجت تقضي أي مصلحة. أزحت الباب بهدوء فانفتح. وليد صابحة يرقد على الفرشة أمامي وقد كبر قليلا. أشرت لها بالقدوم وأعطيتها الكيس

- اقلعي.

فتحت فمها فأخذت الكيس منها وأخرجت القميص والبنطلون و أعطيتهما لها

- اقلعي يلا.

دخلت الحجرة الصغيرة وأغلقت الباب. جانني صوتها مندهشا

- ده فيه نونو هنا!

ابتسمت وهمست

- لا فيه اتنين.

يمر الناس في حياتك دون توقف ويثير كل منهم مشاعر مختلفة فيك. منهم من يثير في خلاياك عاصفة من الحب تزهر ورودك وتفتح مسامك ،آخرون يولدون طوفانا من الكراهية يقتلع أمامه كل أخضر فيك. أخرون تشعر معهم بالأمان وأخرون تستمد منهم الأمان. بعضهم يشعرك بأنك مسؤلا منهم والبعض الآخر تشعر بأنك مسؤلا عنهم.

نجوى ومنذ اللحظة التي اصطدمت بها واصطدمت بي، وأنا أشعر بأنها تقع ضمن نطاق ممتلكاتي. والشارع يعلمك أن تحافظ على ممتلكاتك بحياتك إن تكلف الأمر.

فتحت الباب و خرجت. تفحصتها بعيني. كان القميص واسعا والبنطلون طويلا. حاولت ألا أضحك

- الطرحة كمان لازم تظبطيها.

قامت بفك طرحتها فانساب شعرها البني الناعم. كوّرته كحكة وربطته. والطرحة عصبتها أنا حول رأسها،لففت جزئا حول رقبتها وتركت طرفيها يتدليان على كتفيها.

قامت بترتيب ملابسها ووضعها في الكيس ولكنها تركت الجاكت.

- مش هتحتاجي الجاكت.

همت بالإعتراض ولكنها توقفت في اللحظة الآخيرة. كوّمت الكيس وراء الباب. تفحصتها بعيني مرة أخرى وعندما اطمأننت لمظهرها أخذتها وخرجنا.

تبعتني في حماس لا يقطعه سوى توقفها لحظات (تشمر) فيها البنطلون الطويل ثم تعاود المسير. كنت ألمحها بطرف عيني محاولة ألا أضحك.

أحتفظ بمعدات النظافة في بدروم إحدى العمائر المنتشرة بالمشاية السفلية. عندي معارف كثيرين في معظم العمارات هنا. طلبت منها أن تنتظرني ريثما أدخل وأخرج. دخلت و خرجت بمقشة كبيرة متهالكة تساقط نصف شعرها لكثرة ما قامت به من كنس. ناولتها المقشة

- انتي هتكنسي من هنا لحد فيلا غيث.

رفعت حاجباها في فزع فسألتها في برود

- ايه مش عاوزة تقضي اليوم معايا؟

هزت رأسها

- يبقي تسمعي الكلام.

تمتمت

- بس.. بس ده كتير قوى

عقدت حاجبي وأمسكت بالمقشة أنتزعها

- خلاص خلاص!

عبرت الطريق وحدها وانتظرتني حتى أشرت لها بألا تشغل بالها بي. أعطيتها ظهري ومشيت بالاتجاه المعاكس.نادتني فلم أقف. نادتني مرة أخرى

- طب هنتقابل فين؟

أجبتها دون أن ألتفت

- أنا هلاقيكي.

****

تعتريني رغبة قوية في التسكع. مشيت ومشيت حتى قادتني قدماي إلى بوابة توشكى أو بوابة الموقف. يقف عندها الميكروباصات التي تأتي بالطلاب من خارج المنصورة. دكرنس و أجا و السنبلاوين و ميت بدر والمحلة وطنطا و سندوب.

تنقلب البوابة إلى (موقف) كبير يوصل الطلاب من وإلى بيوتهم. عندما كنت صغيرة في كتاب الشيخ محمود كنت أسمعه يتكلم بانبهار عن الأزهر الذي كان يدرس به. وكنت أحلم بالذهاب أنا الأخرى. تخيلت

ذلك الأزهر مكانا سحريا وحدائق رغدة مليئا بالأشجار و الورود الجميلة. جنان يتحلق فيها الأساتذة مع طلابهم ويدرسون تحت أوراق الياسمين.

قلبت شفتي وأنا أراقب الموقف أمامي.أنا لا أشتكي، في الحقيقة هذا أفضل كثيرا للطلبة، فبدلا من أن يركبوا مواصلة من بلدهم إلى سندوب ثم يقفون لأكثر من ساعة بانتظار مواصلة أخرى للجامعة. يكونون بهذا قد أضاعوا وقتهم و مصروفهم. توفر لهم الميكروباصات نقلة واحدة وتوصيلة واحدة.

علا صريخ مجموعة من الطالبات فجأة خوفا من المشاجرة التي بدأت من العدم بين السائقين إعتراضا على من تدخل في دور من. اكتفى أمن الجامعة بالإشاحة بعينه بعيدا في بلادة.

تدخلت أنا و فتحت طريقا للطالبات يعبرن منه في أمان. بعدها تركت السائقين ليأكلوا بعض. على كل سيهدأون الآن.

أين صلاح؟ بالتأكيد لم يأتي بعد. أكوام الزبالة على الجانبين تنبئ عن عدم ظهوره وربما لأكثر من يوم أيضا. طبعا البيه لا يلزمه الشارع بمن فيه.

هززت كتفي و أكملت طريقي نحو بوابة تربية عند الجلاء و شارع جيهان وشارع المستشفى العام. ربما أجد الباز أفندي.

باصات تابعة لجامعة خاصة تقف أمام سور الجامعة تنتظر طلابا بالتأكيد. وصلت قبالة بوابة تربية. أرقب تدافع الطلاب و سؤال واحد يشغل بالي دوما. كيف ينهشنا الفقر والجهل مع كل هذا الشباب ؟

تلكّعت أمام البوابة. أحب مراقبة وجوه الطلاب. استندت على الأعمدة الحديدية التي وضعت لتنظيم أعداد الطلاب. تمام مثل الحواجز الموجودة في المطارات والتي تساعد على اصطفاف رواده في طوابير دون تدافع. هنا الأعمدة أصغر بالطبع. مع اختلاف آخر وهو أن الطلاب هنا يتركون الحواجز و يتكومون وراء بعضهم في طابور غير واضح الملامح حيث يكون كوعك في جنب زميلك و قفاك في فم من يليك.

عجيب هذا الشعب! عنده تحسس من الخصوصية،فإذا ما وجد نفسه واقفا وحده دون أن يلكزه هذا أو يعطس في وجهه ذاك سرعان ما يبدأ بالهرش والتلفت بحثا عن أقرب كومة من البشر ومن ثم يذهب و (يفعص) نفسه بينهم. تذكرني هذه الحواجز الحديدية بمثيلاتها التي يسوقون فيها البهائم للذبح.

اه هاهي إعتماد أتت برضيع على يدها وافترشت الجانب الأيمن من البوابة. لست أدري لمَ يتركها أمن الجامعة؟ ولكن بعدما أخبرتني بأنها تأتي لهم (بالطفح) حتي يتركوها بسلام هززت رأسي في فهم. ومانوع الطفح الذي يفضلونه طعمية وفول أم شاورمة؟ سألتها يوما وأنا أشير إلى محل "البغل" ومحل الشاورمة السوري في الجلاء ورائنا. فضحكت و أطلقت سبة بذيئة

- لا دول الطفح بتاعهم فياجرا.

بالتأكيد لا تعني سندوتش الجمبري و الإستاكوزا والكابوريا الميكس. وإنما حبوب الفياجرا التي يسرقها زوجها من مخزن الأدوية الذي يعمل به. يسرقها و يعطيها لإعتماد توزعها بمعرفتها و بسعر مناسب للحبايب طبعا.

- راحوا فين العيال دى للفياجرا دول في إعدادية لسه!

سعلت بعنف حتى بصقت

- القعدة تعمل أكتر من كده يا منصورة!

أنا أعلم جيدا عن أي قعدة تتحدث. الأمن على البوابة معظمهم إن لم يكن كلهم- خريجين مؤهلات عليا وكانوا من كام سنة فقط طلابا في نفس الجامعة. العمل الحلال ليس عيبا. المهم الشرف. كفاية هبل!

اخرس و تخيل معي. أنت تحلم و تطمح و تذاكر وتتعب لتتخرج و تذهب للجيش ثم تأتي لتجلس فرد أمن على جامعتك التي شهدت أروقتها على أول همسة حب قلتها لحبيبتك، وأول حلم حفرتماه معا على الشجرة هناك. تبددت همساتك في بحر لجّي من الطلبات و قطعت الشجرة ليحل محلها كشك الكينج لتصوير المستندات وشحن كروت التليفون. ترى أيهما أكثر إيلاما أن تعيش بلا أمل أم أن تفقده بعد تملكه؟ الفياجرا نفسها تحتاج لفياجرا كي تتمكن من إزالة إحباطك.

تظهر لوزتي الرضيع مع بكائه، ليس إبنها بالتأكيد وإن كان- فهذا يعني أنها تضع وليدا كل أسبوع تقريبا لأني أقسم أن وجه الطفل يختلف كل أسبوعين على الأكثر. أقرصها بغضب

- جاية تقاسمي العيال الغلابة دول في مصروفهم؟ ثم مين العيل ده سارقاه ولا جيباه من أنهي داهية؟

فتبصق و تشيح بيدها

- كلنا غلابة يا منصورة.

ضيقت عليها الخناق يوما حتى أقرت بأنها تقتسم نسبة من الأرباح مع أم الطفل أخر اليوم. وقفت أسألها عن الباز أفندي فقالت بأنه يجلس عند الناصية الثانية من المستشفى. سلّمت عليها ومشيت.

****

سرت بين السيارات أبحث بعيني عن الباز أفندي حتى وجدته متكوما تحت دكة أمام مستشفى الرمد. اه هو يقوم بدور أعمى اليوم. متجدد هذا الباز. يعجبني كثيرا أنه لا يثبت على دور بعينه حتى يكسر ملل الروتين اليومي. فقط لو عملنا كلنا بضمير هكذا لأصبحنا دولة متقدمة بحق.

يرتدي نظارة شمس مكسورة. ترى من أين أتى بها؟ يمد يده ليضرب بها من يمر أمامه عن غير قصد بالطبع. فيلتفت الشخص لينهره إلا أنه يتوقف حينما يرى عماه ويعطيه مافيه النصيب و زيادة على هذا فهو يعتذر أيضا. لا أدرى من الأعمى الحقيقي في تلك الحالة.

ارتطم بي رجلا يرتدي الزي الرسمي لشيوخ الأزهر، جبة وقفطانا. هل سرقة الغلبان للغلبان حرام شرعا يا شيخ؟ لم يرد لأني لم أنطق بالسؤال.

اتجهت نحو الباز أفندى. توقفت و التفيت من ورائه حتى لا يراني. سمعته يقول بصوت مشروخ أي شئ لله يا أولاد الحلال. رق قلبي له. مددت يدي في جيبي أبحث عن نقود فلم أجد سوى نصف جنيه مخروما.

ألقيته في يده دون أن أواجهه فقبض عليه باستماتة ووضعه في جيبه بسرعة وهو يدعو لي بطول النظر والعمر. طول النظر في مجتمعنا بلوى أما طول العمر فهو إبتلاء مكتمل الأركان.

- الله يسامحك!

قلتها بمرح فالتفت ورائه بسرعة و ضحك

- هو انتي؟ غطسانة فين بقالك كام يوم؟

هززت كتفي

- في الدنيا. عديت على صلاح بيه قبل ما أجيلك ملقيتوش.

- صلاح بييجى بمزاجه انتي عارفه.

قالها واعتدل يتمسح بمن كان يمر أمامه

- حلوة النضارة دي ما تجيبها لفة؟

هز رأسه بلا

- لما أخلص بيها النهاردة هديهالك. هعمل بكرة أعرج ابقي تعالى خديها.

سببته وضحكت. إن كان كل الناس بمثل وضوحنا لانقلب مجتمعنا يوتوبيا خالصة. بقيت مع الباز أفندي نتحدث في تفاهات من كل حدب وصوب حتى آلمتني رُكبي من القعدة. ضربت على كتفه مودعة وتحركت إلا أني عدت فتوقفت

- وراك حاجة النهاردة المغربية؟ عندي ضيفة كده وعايزين نقعد معاها قعدة حلوة، ابقى قول لصلاح لما ييجى.

هز رأسه بحماس

- ضيوفك على راسنا من فوق. بس من امتى يعنى بيجيلك ضيوف ؟ ده إحنا منعرفلكيش أصل من فصل.

أصدرت شخيرا عاليا وسببته. رفع يده أمام وجهه علامة الإعتذار. سببته مرة أخرى و أعطيته ظهري لأمشي ومرة أخرى توقفت

- هات الجنيه الي أنا اديتهولك يا باز الكلب.

مد يده في جيبه وهو يتمتم بأنه كان نصف جنيها فقط.

- عرفت ازاى وأنت أعمى ؟ اه قصدك إنك بتمثل طب ده كان خمسة جنيه بقى يا حيلتها.

علّيت صوتي محاولة جذب الناس حوله فرفع سبابته ووضعها على فمه مترجيا إياي أن أصمت. مددت يدي بنفاذ صبر، وضع بها خمسة جنيهات فضة. أخذتها وغمزت

- متتأخرش المغربية بقى.

ومشيت.

ربتّ على الجنيهات الخمسة في جيبي. فرجت وكنت أظنها لا تفرج. سأمر على الواد صبحي في جاد. وصلت ناصية الشارع و اتجهت يسارا. سمعت آذان الظهر. لمَ أشعر وكأني نسيت شيئا؟

أشعر ببقايا شئ منسي يخبط تلافيف عقلي في دقات رتيبة. سألت عن صبحي فلم أجده. سببت من كان واقفا وطلبت واحد فول و واحد طعمية وهنا توقف الشئ المنسي عن الخبط ليصفعني فجأة على وجههي.

- ياني يامه! ده أنا نسيت نجوى.

سببت الولد الواقف وطلبت سندوتشين زيادة. دفعت و جريت. كنت أنتوي تركها ساعتين بكثيره ثم أعود. لا أدري كيف نسيتها؟ هل تكون زهقت ومشت؟ أكيد. ما الذي سيبقيها من الصباح الباكر للآن؟ ااخ وكيف ستمشي يا فلحوسة زمانك وقد أخذتي منها ملابسها و (حرّزتيها) عند صابحة؟ صابحة ستقسمها نصفين إن حاولت الإقتراب من كيسي البلاستيك.

هززت رأسي في عنف أطرد الفكرة. لاحت الفيلا أمامي سأنزل الطريق المسفلت المنحدر لأجدها عند الكورنيش وسيكون كل شئ تمام.

- ياني يامّه!

هرولت أكثر.

وقبل أن ينتهي سور الفيلا لمحتها. كانت منكفأة على دكة وتربع يديها أمامها مثلما يفعل طلاب المدارس حين يأمرهم مدرسيهم بالنوم على (التختة). تلطخ قميصها و بنطلونها فتغير لونه البيج والبني إلى رمادي و أسود في مواضع عدة.

تابعت النزول بسرعة ولكني توقفت حين سمعت كلاكس التاكسي الغاضب. سببته و أشرت له بالمرور. تشابكت رجليها و بدا كوتشيها البيج باهتا ومبقعا بالطين.

اه ما هذا الذي فعلته؟ طلبت منها ونفذت. أتظنني خضرا بحق تلك المجنونة كي تلتزم بأوامري هكذا؟ عقدت حاجبي أبحث عن المقشة. وهل هذا وقته ؟ سببت نفسي. كانت ساكنة وكأنها غارقة في النوم. لمحت بعيني مجموعة من طلاب الثانوية الذين قاموا بالتزويغ بعد تحية العالم وبعد سماع صوت شادية أصله معداش على مصر. لا هو (عدى) يا شادية و (نط) من فوق السور كمان.

تلكّعت المجموعة و اقتربت من نجوى الساكنة كالحجر. يتغامزون و يتضاحكون. يشد أحدهم الآخر و يتدافعون. وفجأة أفاقت. نظرت لهم وحدثتهم، لم أتبين ما كانت تقول لهم إلا أنهم ضحكوا في مرح. هل قالت نكتة؟ أشك.

زاغت عينها على الناس المارين بها والذين يرقبون الأولاد في تناحة ويتجاوزونها كأنها ليست موجودة، ومن ثم يمشون وكأن الفيلم لا يعجبهم. اقترب واحد من العيال يحاول شدها فأمسكت بالمقشة. اه ظهرت المقشة. التقطتها من تحت الدكة و أمسكت بها كالساموراي. نظر الطلاب لقائدهم إلا أنه لم يهتز فتحلقوا حولها واقتربوا أكثر.

رميت بكيس السندوتشات من يدي

- يلا يا وسخ أنت وهو من هنا.

التفتوا نحوي وقد أخذتهم المفاجأة. و التفتت هي والمقشة لا تزال في يدها. وجهها أبيضا من شدة العطش والجوع أكيد. نقودها وهاتفها في الجاكت الذي أخذته منها. سمعت بتنهيدتها المحبوسة. هززت لها رأسي أطمئنها. حاولت الإبتسام

- سدّي ودانك.

أسمعتهم من السبات ما جاد به النصيب، ووقفت أمامها مواجهة لهم تاركة ظهري لها تحتمي به. و مع رؤيتهم للمطواة التي أخرجتها من جيب بنطلوني الخلفي. توتر الطلاب في وقفتهم. وشهقت هي. فتحت المطواة وحينما رأوا النصل تبعثروا كالذباب. وقفت أتوعدهم وأسبهم حتى اختفوا. سمعت بجسدها يرتمي ورائي على الدكة و المقشة لاتزال في يدها.اقتربت منها و أمسكت بالمقشة أخلصها من بين أصابعها المرتعشة.

- نون! خلاص مشيوا.

نظرت لي كمن تفيق من كابوس. حاولت افتعال ضحكة وأشرت خلفي حيث كانوا

- دول شوية عيال!

لم تنطق. اقتربت منها أكثر أهزها من كتفها. حولت نظرها بين يدي وبين المطواة. وجدت نفسي أنكس رأسي ، أغلقتها وأعدتها لجيبي الخلفي بسرعة

- انتي عارفة لازم أحاول.. لازم أدافع عن..

- أنا جعانة قوي وعطشانة.

قامت لتأتي بكيس السندوتشات الذي رميته أنا منذ قليل. فتحته وأخذت سندوتشا قضمت منه بسرعة و باليد الأخرى أخرجت واحدا ناولته لي بصمت.

جلسنا حتى المغربية نتبادل الحكايات . حكيت لها عن وجهي الأول (الشوراعي) و وجهي الآخر (المثقف).

غربت الشمس في حنو. يفتح لها النيل ذراعيه في حب. تنهدت و بسطت يديها في إستسلام. لم أستطع منع نفسي من تفحص أثر الجروح و الخدوش وقد تفرقت في باطن كفها ،منها جرح امتد إلى باطن معصمها بشكل طولي. دققت النظر،الجروح في باطن كفها تبدو من احمرارها حديثة على عكس ذلك الجرح الطولي الذي تخفيه تحت (كم) قمصانها الطويلة.

كانت عيناها شاردتان أمامها ولكني كنت موقنة بأنها في مكان آخر

- هييه روحتى فين؟

- دي الطريقة الوحيدة الى بتخليني أحس إني عايشة.

قالت دون أن تلتفت نحوي. ثم ضمت كفيها إلى صدرها و سكتت. عرفت لمَ ألقتنا الصدفة في طريق بعضنا البعض يا صغيرتي. أه صدقيني ليس عليكِ أن تشرحي أي شيء. نظرت دون وعي مني إلى

جروحي القديمة التي لا يطيب إلتهابها أبدا. أشعر بها تغلي للآن. كل منا لديه أسراره. قبضت كفي في إصرار، أشُّد على ذكرياي.

ابتلع النيل الشمس و ظهرت الأنوار في النوادي على الضفة الأخرى. بعد قليل ستنبعث الأغاني و الصرخات و الزغاريد معلنة عن بدء ملحمة كارثية أخرى في هذا البلد. تثائبت

- مش يلا ولا ايه؟ أنا تعبت النهاردة.

- لا تعبتي ايه؟ دى لسه السهرة ما بدأتش!

نظرت لي متسائلة. قمت و أنا ألوح في حماس بأني جهزت لها قعدة ستعجبها ولا شك. تكاسلت عن النهوض فجذبتها من يدها. قامت دون مقاومة ومشينا عائدين إلى عمارة صابحة لتستعيد ملابسها.

لمحت الباز و صلاح وقد سبقاني- جالسين على الرصيف المقابل للعمارة متحلقين حول ركية نار. جذوع خشب في طشت ألمونيوم قديم كانت تستخدمه صابحة للحموم ولكنها استبدلته بآخر جديد. يتطاير الشرر منها كلما اقترب منها صلاح يُهوّي على كيزان الذرة التي يشويها. صابحة إلى جانبهما تجهز الشيشة بيد و تهدهد رضيعها بالأخرى.

اتجهنا أولا نحو البدروم و انتظرت حتى قامت نجوى بتغيير ملابسها. الملابس لم تتغير ولكن نجوى هي من تغيرت عادت فتاة الجامعة إلى جلدها الأصلي ولكن عيناها تغيرتا. خليط من العناد و الإصرار ينضحان منهما . تَحَرُّر. حتى الأعمى سيرى ذلك. اعترى وجهها بعض الإجهاد ولكن حماسها وفضولها للسهرة التي جهزتها من أجلها أضاف بريقا ساحرا لعينيها البنيتين. عبرنا الشارع

- هاه هنروح فين؟

- وصلنا!

قلت وأنا أشير نحو شلة المخابيل الثلاثة الذين تعالت عقيرتهم بالضحك والغناء والسباب كل في وقت واحد. انكمشت نجوى ورائي ولكن بعد لحظات استعادت هدوئها و مشت معي خطوة بخطوة.

- نون!

قلت وأنا أشير نحوها بابتسامة

- صاحبتي.

قام صلاح بسرعة فكاد أن ينكفئ على وجهه لولا أن أمسك به الباز وهو يلكزه بركبته.

- أهلا يا أبلة نون، ضيوف منصورة على راسنا من فوق، أنا صلاح.

أخذت نجوى يده و لم تفزع حينما شد عليها بقوة. تركت صابحة الشيشة و قامت لتسلم و (تبوس) من هنا ومن هنا. استسلمت نجوى لقبلاتها دون اعتراض .

- ايه اسم نون ده!

سأل الباز وهو يقلب شفتيه مستنكرا.

- ده زى اختصار كده عندى واحد اسمه شاكر خضير هلال مسميه على الموبايل ش خ ه .

قال صلاح بثقة فضحكتُ و ضحكت نجوى.

- وده بقى هاني!

غمزت فأطلق الباز سبة سريعة اعتراضا على هتك سره فضحكت

- أقصد الباز أفندي.

كتمت نجوى ضحكة بدت جلية في عينيها. و مدت له يدها فالتقطها و أستبقاها قليلا في يده

- إيد ناعمة مش واخدة على البهدلة.

قلت موجهة حديثي لنجوى

- الباز كان بيلعب دور أعمى النهاردة .وتقريبا لسه الدور راكبه معلش!

ضحكت نجوى و قلب الباز شفتيه في إمتعاض. تزحزح صلاح و أشار إلى نجوى بالجلوس بينه وبين الباز وجلست أنا إلى جانب الباز وصابحة إلى جانبي. أخذت منها رضيعها ألاعبه و أهدهده. قلب الباز كيزان الذرة أمامه. من أين أتوا بالذرة ؟ لايهم، كانت الرائحة جميلة وتسيل اللعاب. نام الرضيع بين يدي وأشرت لأمه أن تسمّي عليه. انفتح صلاح في الكلام ولم يسكت إلا لإلتقاط أنفاس الشيشة حين ناولته صابحة المبسم. وقامت لوضع رضيعها في فرشته.

الشيشة معمرة. يا أولاد المجانين حشيش في نصف الشارع؟ بائع الترمس يجر عربة أمامه. و ينشد

- إني أتنفس تحت المااء. إني أغرق أغرق أغرق

أشار نحوه صلاح

- بؤ بؤ بؤ. غرق خلاص

ضحكت والتفت نحو نجوى .ترى هل ستلحظ التعميرة الخصوصي؟ مرر الباز الشيشة لنجوى فارتبكت. أخذت أنا الشيشة من يده بشكل عادي و ناولتها لصابحة التي كانت قد عادت، أخذت منها نفسا طويلا و أعطتها لصلاح. نضجت كيزان الذرة. ناول الباز كوز الذرة لنجوى.

- خدي بالك عشان ..

أراد الباز أن ينبه نجوى لسخونته إلا أنها لم تمهله وأخذت تقضم من الكوز بنهم. اه صغيرتي جائعة. أتت صابحة ببراد الشاي ووضعته على النار. قامت ثانية لتأتي بالأكواب و بالسكر. أخذت كوز الذرة معها تقضم منه قبل أن يبرد.

ناولني الباز الشيشة فأخذتها. كانت عينا نجوى تتابعانى و أنا آخذ نفسا طويلا و أخرجه في وجهها فسعلت. أشرت بالمبسم نحوها

- تجربي؟

نقلت نظرها بين المبسم وبيني ومن ثم أمسكت به بارتباك

- أعمل ايه؟

ضحك صلاح و ضرب على ركبه، سعل الباز وبصق إلى جانبه

- دى نونو خالص ياناس!

جذبتُ نفسا (كركرت) له المياه، و أشرت لها أن تفعل مثلما فعلت بالضبط. تجاهلت نجوى سخرية الباز وصلاح و أخذت المبسم. قلدتني مثلما طلبت منها و فورا بدأت موجة من السعال.

- ده معسل مخصوص مبيطلعش غير للحبايب يا أبلة.

قال صلاح.

- كفاية عليكى كده النهاردة.

بدا عليها الإعتراض إلا أني لم أمهلها

- قلت كفاية.

ارتفعت أصوات الأغاني من نوادي الأفراح أمامنا

- حلوة حلوة وحلوتين

علا صوت صلاح بالغناء

- حمرا يابلدي!

ضحك الباز و ضرب على ظهره. تابعت نجوى بعيني كانت مستمتعة وكأنها تشهد عرض فيلم. أتت صابحة بالأكواب و استأذنت أن تذهب لقضاء مشوار في السريع. رفعت البراد من على النار و صببت الشاي. أعطيت نجوى كوبها. كانت محتارة في كوز الذرة. أنهته ولا تعرف أين تضعه. حينما يأست وضعته تحت قدميها وتناولت مني الكوب.أخذ صلاح رشفة من الشاي و تنهد

- اه فاكر يابو هاني يومك كان عامل ازاى؟

أشار نحو القاعة على الضفة الأخرى والتي انعكست أنوارها على مياه النيل

- كان يوم أسود ومطين على دماغها. يلا الله يرحمها بقى!

أطلق الباز شخيرا وبصق. أبعدت نجوى رجلها كي لا تصيبها البصقة في حين أن الباز أفندي لم يبد عليه الإنتباه لها أصلا

- ليه كده بس ياسطى ؟ما انت ربنا رزقك بالواد والبت وكله ألسطة.

- هي الرجالة كده مبتتمزجش إلا لما تقعد تولول زى النسوان قد ايه هي غلطت يوم ماتجوزت!

قالت نجوى بغل

- مع انكوا عارفين كويس انكوا كدابين، بتكدبوا وبتصدقوا الكدبة.

فتح الباز أفندي فمه و بحلق لها صلاح قبل أن ينفجر في ضحكة طويلة عالية.

- لو الرجالة مرتاحين في جوازاتهم مكانوش هيخونوا مراتاتهم.

قال الباز بغضب

- اه لو كانت صابحة هنا كانت كلتك بسنانها.

قلت متوعدة .ردت نجوى

- غلط. الي بيخون بيخون سواء متجوز أو لا.

هم الباز بمقاطعتها إلا أني أشرت له خفية أن يصمت

- الراجل مش بيخون عشان مش مرتاح. لا ده بيخون عشان متربـاش من الأول ان الخيانة حرام وغلط و عيب.

كورت قبضتها

- عيب ازاى والراجل ميعيبوش إلا جيبه؟

سألتُ ساخرة وأنا ألوح بيدي

- وهما فين الرجالة دول؟ مجتمعنا مليان ستات مسترجلة و دكرة مسترجلة برده، أنهى أوحش بالذمة؟

سحب الباز نفسا ولم يرد. خطفت المبسم منه و أخذت نفسا طويلا حاولت أن تكتمه مثلما ترانا نفعل إلا أنها فشلت فأخذت تسعل

- فلما بيتجوز بيبقي عقله جاهز للخيانة عشان عارف إن مافيش عقاب وكأن ربنا يوم الحساب لما يشوف النطع من دول هيقوله عدي ياسطى انت راجل وهيمسك البت من شعرها يقولها تعالى انتى كده كده ناقصة عقل ودين.

زفرت ساخطة

- بقى البنت الي ناقصة عقل ودين يحاسبها المجتمع ويعلق لها المشانق لما تغلط؟ والراجل العاقل الرزين المؤمن بالفطرة يهرب من العقاب؟

رمت الباز بالشيشة

- متقولّيش بقي بنخون عشان مش مرتاحين.

يلا السلامة على مجتمع أصبح فيه العقل سبة ونقمة على صاحبه هذه الأيام.

- يلا يا عاقلة!

صرخت فيها

- يالي أمك عاقلة!

فعلا سبة جميلة. ضحكت بجنون. هز الباز كتفه

- اه ياستى إحنا ولاد كلب!

- لا متقولش كده، ده انتوا ولاد ستين كلب!

قلت أغيظه فرفع يده على رأسه

- حقكوا علي يا ستات .

- أنا بقي فاكر يومي كويس قوي.

تدخل صلاح وهو يربت بيده على كرشه.

- ولو طلت أكرره تانى هكرره تاني. أنا بحب عيالي و بحب مراتي غيرش بس الأيام السودة والظروف الأسود الي بتعكنن على الواحد.

- وهو الحب أحلى ولا الجواز يا صلاح؟

سأل الباز.

- التمر حنة!

قاطعته ساخرة.رفع صلاح رأسه للسماء يرقب البدر و يسرح في حبه و ذكرياته

- وهو يعني ايه حب أصلا؟

أهلا! قعدة المحششين تناقش تعريف الحب وماهيته وكينونته و طبيعته الغامضة. يا أولاد المجانين!

- الحب ياصاحبي هو إنك تلاقي حد يهرشلك في المكان الي مش طايلاه إيدك.

قال صلاح وهو (يتأمز) و ينتفض محاولا الوصول لنقطة في منتصف ظهره. مد الباز يده حيث أشار صلاح و أخذ يهرش ويهرش. غمزت لنجوى

- وده يا ستى تعريف واحد أجرب للحب.

أشار الباز نحو صلاح

- الراجل ده حقّاني.

سألت نجوى بسخرية

- يعني لا يخاف في الحق لومة لائم؟

حك الباز رأسه و قلب شفتيه

- لا يا أبلة يعني بيدي حقن!

وتعالت قهقهاتنا في جنون. سألتني نجوى إن كنت أحببت من قبل . لم أعرف بم أجيبها؟ هل أخبرها بأني –وطبقا لقوانين المجتمع- قد تخطيت السن القانوني للحب والإرتباط؟ وبأني مثل كثيرات غيري ينظر لنا المجتمع بإعتبارنا سمكات يجب أن يتم طهوها بسرعة قبل أن تطلع رائحتها؟

أم هل أخبرها بأني أحببت لكن لم أحب في نفس الوقت؟ أحببت وهما. أحببت أبطال الروايات عند عم بلال وخدعت بمثاليتهم.

- منه لله أدهم صبري!

همست فسألتني بدهشة

- رجل المستحيل؟

أومأت بالإيجاب فضحكتُ و ضحكتْ هي الأخرى حتى لم تعد قادرة على أخذ نفسها بانتظام.

- معلش ماهو محدش بيتوجع قوي..

حركت يدي على قفايا بسرعة

- إلا لما بينضرب على قفاه جامد قوي!

وضعت يدها على صدرها تهدئه

- ياه يارب يارب!

نظر لي صلاح بقلق

- هي البنت اتسطلت ولا ايه؟

أشحت بيدي مطمئنة والتفت لنجوى حين قالت برومانسية

- أصل أنا برده أول حب في حياتي كان سي أدهم.

قلب صلاح والباز عيونهم في عدم فهم. هز الباز كتفه و اعتدل يغير الحجر. و عاود صلاح الغناء

- جت القطة قالها بسبس قالتله سم كده!

- لا قالتله مبكلمش ولاد لو سمحت.

رفعت نجوى سبابتها محذرة و انفجرت في ضحكة طويلة أخرى

- ايه يا صلاح الي بتهببه ده يا أخي؟ بوظت ذوق البنت في الأغاني.

خطفت الشيشة من الباز وأخذت نفسا طويلا،ناولتها له ثم تنحنحت

- اسمع يابني انت وهو.

وغمزت لنجوى

- وهي.

غنيت من كلمات الشاعر. لست متأكدة مما قلت إلا أني كنت ألمح عين نجوى التي تتابعني بانبهار وكأني ألقي شعرا بالرومانية القديمة في حين قلب صلاح صينية الشاي وأخذ يدق عليها وتبعه الباز بالتصفيق حسب الإيقاع. صرخات المارة وهتافاتهم و احتكاك كاوتش العربات القريبة وزمارة بائع غزل البنات ، كل هذا وأكثر انقلب (ريمكس) و انضم للوحة غنائي يزينها و يحييها أكثر. كنت في حالة سلطنة وعندما انتهيت صفقت نجوى و تبعها صلاح والباز بحماس.

عادت صابحة وأعدنا تسخين الشاي. حكى صلاح لنجوى عن مزرعة الفراخ وعن المدرسة. مصمص صلاح حين أخبرته نجوى بأنها تعطي دروسا خصوصية عندها في البيت

- وهو في أحلى من شغل الحكومة ؟ كفاية انك هتقعدي متعمليش حاجة!

هزت نجوى كتفها حين أخذ يحاول إقناعها بأنه يمكنه التوسط لها للعمل في المدرسة التي يقوم بحراستها. وبخصوص المزرعة بالطبع لم يخبرها بأنه يسرق ولكني رأيته يميل عليها و يهمس لها أن تخبره فورا إذا ما احتاجت فراخا في أي وقت. من الواضح أنه أحبها.

حدثها الباز عن ولده وبنته و حدثتها صابحة عن الكلب الأعرج الذي خلعته. كانت تسمع وتسمع دون أن تقاطع أحدا منهم. كنت أتابعها من وراء حلقات دخان المعسل. كان الفرح باديا عليها. و كان هذا جل ما تمنيته. أن أسعدها.

خمدت النار و استأذنت نجوى للقيام. حاولوا استبقائها و لكنها اعتذرت منهم ووعدتهم بالعودة بعد أن نظرت نحوي مستأذنة فهززت رأسي موافقة. قمت لتوصيلها

- مافيش داعي أنا هاخد تاكسي.

ابتسمت و أذعنت لها. أوقفت لها تاكسي

- هشوفك بكرة؟

هتفتُ فأطلّت برأسها من الشباك و ابتسمت.

17

مَـمـلَـكـة الـحُـب

أعلنت شاشة المطار عن تأخر رحلتها القادمة من المملكة المتحدة. التفتُّ لأوتوي بغضب مصطنع

- اعتقدت إن الإنجليز بيحافظوا على مواعيدهم.

ضحك. أرسلت لسترايدر أخبره بتأخر الرحلة و بقرب وصول اليابان و روسيا. حملت لافتة بأسماء الواصلين من روسيا و حمل أوتوي لافتة اليابان. وصلت روسيا أولا وبعدها بدقائق وصلت اليابان استقبلناهما و تعارفنا سريعا. أخبرتهما بأننا لازلنا في انتظار ماليزيا

- هاهي ماليزيا.

قاطعني أوتوي فالتفتُّ نحو من أشار . رائع

- يبقى لسه إنجلترا.

تفحصت لوحة الرحلات، من المفترض أنها وصلت، قلبت شفتي. اقترح أوتوي بأن يخرج مع الوفد الحالي إلى الباص حتى ينظموا الحقائب ريثما يصل الطالب الأخير. فكرة جيدة

- تمام. هجيبه وأجيلكوا على طول.

ناولني اللافتة التي تحمل اسمه. أنا من كتبتها ليلة أمس. كتبتها ولم أقف لأسأل نفسي لحظة عن أصله وفصله. كأنه حقيبة علّي استلامها وإيصالها للجامعة. أما الآن فأنا متوترة وكأني أنتظر نتيجة إمتحان. ربنا يسامحك يا ميم.

- آدم عمر!

همست بالاسم وأنا أتفحص اللافتة

- أيوة أنا.

رفعت عيني عن الورقة بسرعة وضممت شفتي في عدم فهم. الواقف أمامي طويل و أسمر بعيون سوداء و شعر أسود ناعم. يرتدي قميصا من الصوف الأبيض و جينز أسود. وينتعل حذاء أرضيا أبيضا مريحا. يمرر يده في شعره الناعم بين لحظة وأخرى يرغمه على العودة إلى الوراء عندما يغطي رموشه السوداء الطويلة. أنا أتفحصه بدقة وهو يلاحظ هذا و يبتسم ولكن عندما طال تفحصي ارتبك

- أنا آدم عمر!

أخذت أدور بعيني بين الاسم في اللافتة الساكنة بين يدي و الواقف أمامي وكأني أقارن بينهما في محاولة للتأكد. ما هذا الجنون؟

- آدم عمر؟

سألت بغضب غير مبرر. ارتبك مرة أخرى ومرر يده في حقل شعره الأسود. هووف توقف عن هذا أرجوك.

- اسفة! أقصد أهلا!

عادت ابتسامته سريعا لوجهه

- أهلا بيكي!

مرة أخرى قلّبت نظري بين الورقة في يدي وبينه

- هو فيه صورة لّي في الورقة مثلا؟

سأل وهو يخطف اللافتة. قلبها دون العثور على الصورة التي كان يرجوها فرفع حاجباه مستفهما

- معلش.. لا.. أصل أنا.. افتكرت حاجة ، ثواني هو انت ...

قاطعني بمرح

- أنا آدم عمر والله العظيم!

- يا صلاة النبي!

همست. سأل

- قلتي حاجة؟

لهثت من المفاجأة

- انت بتتكلم عربي؟

سؤال سخيف

- أنا بتكلم عربي أيوة.

إجابة جميلة.

- انتي مقابلتيش عرب ومتفاجأة صح؟

نكتة سخيفة. العرب هنا أكثر من الأمريكان نفسهم. إن أردت أستطيع إصطحابك لأكل الحمام و المحشي يوم الجمعة بعد الصلاة.

- انت بتحب البلح؟

قرّب حاجبيه في تفكير

- اممم أعتقد اه بحبه، وانتي؟

- مش عارفة، أقصد تقريبا أيوة.

أطلت النظر لحقيبته علّي أتمكن من رؤية ما بداخلها مثل سوبرمان

- هل فيه إمكانية إن يكون فيه بلح في شنطتك؟

ضحك. ااخ ضحكته جميلة. هززت رأسي أهش صدى ضحكته بعيدا.

- مش معايا للأسف.

ثم غمز

- على فكرة الأمن مسألنيش الأسئلة دي كلها.

تنهدت

- طب سؤال أخير وخلاص؟

انتظر السؤال بصبر

- انت قاتل أو هربان من ثأر؟

فتح فمه مذهولا، أنا نفسي لا أعلم ما هذا الذي أهذى به

- دول سؤالين على فكرة. و الإجابة هي لا و لا.

ضحكت و صفقت بيدي

- يبقى نبتدي من الأول.

مددت يدي

- أنا نون!

أخذ يدي في يده

- وأنا آدم!

استبقى يدي في يده فسرى منه دفئا ارتعشت له كفي وانتقلت ارتعاشته إلى جسدي كله. ترى هل لاحظ؟ لا أظن، فابتسامته الدافئة لازالت مستقرة على شفتيه

- ممكن أفهم..

قاطعته وأنا أسحب يدي لألتقط الكاري أون أجرها

- أكيد لازم تفهم. بص يا سيدي، ميم، دي صاحبتي، كلمتنى النهاردة الفجر و وصفتلى راجل بيأكلني بلح وقالها إنه أول راجل.

كانت عيناه تتسعان شيئا فشيئا

- وهي فسرت إنه أول راجل يعنى هيبقى آدم، وحضرتك اسمك ايه؟

لم يرد فأكملت بحماس

- آدم ومش معاك بلح بس بتحبه ومش قاتل ولا هربان من طار ودى هفهمالك بعدين، المهم ده معناه ايه؟

أفاق من صدمته .حكّ رأسه

- مش عارف!

غمزت وأنا أخرج من بوابة المطار

- معناه اننا هنتجوز!

مرر يده في شعره و جر حقيبته الكبيرة يتبعني وابتسامة جذلة تتألق فوق شفتيه.

غربت الشمس و ازدادت برودة الجو. أحكمت الجاكيت حول جسدي. نسيت قفازاتي الجلدية. أووف يدي تجمدت، انزلقت الحقيبة من يدي وكادت تشدني معها لولا أن أمسك بي يحفظ توازني. الثلج يتساقط ، وحقيبته ملقاه على الأرض. لم ينحني لالتقاطها وظل ممسكا بيدي.

- تمام؟

سألني فهززت رأسي. حينها خلص الكاري أون من يدي وانحنى يلتقط حقيبته ليجرها. اعترضت ولكنه لم يمهلني. كان قد سبقني بخطواته الواسعة للباص الذي أشرت نحوه. ترك الحقائب لأوتوي وعاد لي. ثم مد لي يده فعقدت حاجبي

- بعرف أمشي لوحدي من غير سنادات!

قال في رجاء

- عاوز أتأكد من حاجة بس.

اه من الواضح أني لست وحدي المجنونة. منك لله يا منصورة! مددت يدي فتلقفها بلهفة. أخذ يقلبها لثوان ثم تنهد وابتسم

- بالظبط زى ماتوقعت.

نظرت له بتساؤل

- إيدك مقاس إيدي.

خسارة! لم يكتمل الحلو. إنه مجنون. رفعت يدي الحرة أنظر لها و لكفي التي تغوص في بحر يده فلا يظهر منها إصبع واحد. مرر يده في شعره. ودون تحرير يدي، انطلق يشدني إلى جانبه في خطوات سريعة نحو الباص.

كان أوتوي قد انتهى من تحميل الحقائب

- هاه قاتل هو أو هربان ؟

سأل وهو يغمز

- مجنون!

أجبته وأنا أشير لكفي الواقعة في أسر يده العملاقة. دخلنا الباص وتحركنا نحو فاسار. جلس الطلاب على مقاعد متفرقة. ارتمى آدم على أقرب كرسي إلى جانب الباب و سمعنا غطيطه قبل أن يترك الباص نيويورك.

****

اتخذت أنا المقعد المقابل و افترش إفي المقعدين ورائي. وقفت ألقي نظرة سريعة على باقي الوفد فوجدتهم كلهم نائمين. السائق هوالوحيد المستيقظ لندعوا الله ألا ينام هو الآخر. عدت لمقعدي و اتكأت على النافذة جانبي.

وفي بقايا بصيص من شمس الغروب، تابعت ندف الثلج المتساقطة تهوي سريعا إلى الأرض إما لتذوب فورا على الأسفلت الأسود و تدوسها الأقدام. أو تتلكأ فتعلق بورقة شجر عطشى. بعضها أكثر عنادا فيمضي قدما ليسقط على أرنبة أنف طفلة تلهو بمرح بين الثلوح فتتوقف لتهرش أنفها وتعطس.

البعض الآخر يتكوم ليخلق تمثالا لرجل ثلج قصير، يجري ولد صغير مع كلبه للإتيان بجزرة من البيت لإستخدامها كأنف له. أرقب أيضا الولد نفسه يتمسك برجل أبيه و يشير لنظارته في رجاء. ينبح الكلب محاولا إقناع صاحبه و أخيرا يرضخ الأب لتوسلات ابنه و يعطيه نظارته يُلبسها لرجل الثلج. يقف بعيدا و يحيط كتف زوجته بذراعه يرقبان ابنهما في حنان.

وما الحياة بذكرياتها و مواقفها إلا رقائق ثلجية، بعضها ترعاه و تبنيه بيدك حتى يتحول صرحا آمنا تدخله وقتما تشاء و تذكره دوما بابتسامة تذيب حزنك. مواقف أخرى وأناس يؤلمك وجودهم فسريعا تذيبهم وتنساهم. ليصير الواحد منهم بعد ما كان لك كل شئ، ولا أي شئ. التفتّ خلسة نحو آدم، و شيئا فشيئا تذوب في أعين أحدهم كأن لم – يوما تكن. هل يمكن ؟ تنهدت وعدت لأفكاري.

****

تحسست جيبي و أخرجت قلادة هارد روك أتفحص اسم منصورة عليها. تذكرت يوم أخبرت منصورة بضرورة أن تشتري هاتفا، كالعادة عارضتني و تحججت بألف حجة. طلبت بطاقتها كي أشتري لها خطا باسمها فضحكت.

- بطاقة ايه؟

كنا في السوبر ماركت نشتري بعض البقالة حسبما أذكر، طفل صغير أتعب البائع العجوز وأثار ضيقه من كثرة طلباته وعناده. يريد بسكوتا فيعطيه فيغير رأيه ويطلب شيبسي، لا مصاصة، لا لا لبان فراولة. زفرت منصورة

- يابني انجز في يومك ده عايز ايه؟

نظر لها الولد برعب فلكزتها في كتفها

- ايه هتاكلي الواد؟ ثم ردي على هنا زى مابكلمك.

أشارت لي بيدها علامة الصبر

- انطق يابني، بسكوت؟

هز رأسه بنعم فسأله البائع بابتسامة شماتة جلية وقد رحمته منصورة من سماجة الطفل

- سادة ولا محشي؟

- يابنتي ردي على بقولك؟

- ماشية بكارنيه النادي ، تاخديه؟

قالتها بسخرية و خطفت باكوا البسكوت من يد البائع دون أن تمهل الصغير السمج وقتا للإجابة

- خد بسكوت محشي كرنب اهوه!

خطفه الولد وجري دون أن ينظر وراءه. لا بطاقة، لا شهادة ميلاد، لا شهادة تأمين، لا شئ. في نظر الحكومة منصورة لا توجد من الأساس. وفي نظر الناس أيضا. قطبت حاجبي حين فهمت الطرفة. فعلا شئ يدعو للضحك.

ماذا إن احتجتي إثبات هوية في أي كمين؟ تهز كتفيها. ماذا إن مرضتِ و احتجتي تأمينا؟ تمط شفتيها. ماذا إن أردتِ الإستقالة و قبض معاشكِ؟ تضحك بشدة وتبصق.

منصورة لم يتم تعيينها في أي وظيفة من الأساس. ممدوح أبو سالم من يعطيها راتبها الشهري. هي تعمل عنده لا عند الحكومة. فتحت فمي في ذهول فضحكت أكثر و ضربت على كتفي. المهم أني اشتريت لها خط الهاتف باسمي. و سافرت بعد أن اتفقت مع أخي على إيجاد حل لهذه الكارثة.

كان هذا من سنة تقريبا وحتى الآن لا جديد بخصوص أوراق هوية منصورة. استطاع إفي حل مشكلته في بلد غريب بشكل أسرع. فتحت كاميرا الهاتف ألتقط صورة للقلادة

- اعتبري دي بطاقتك الجديدة.

وضغط إرسال.

****

لاحت فاسار في الأفق تلفت حولي. استيقظ الوفد أو معظمه، آدم لازال نائما. وقف إفي يتحدث معهم في حماس ويخبرهم بأننا سنتجه أولا إلى السكن و بعدها سنذهب مباشرة إلى فيزا لحضور العشاء الصغير الذي حضره لهم باقي الزملاء هناك. نادى إفي آدم يوقظه، فرك عينيه و تثائب

- صح النوم!

ابتسم

- هنروح على السكن تحطوا الشنط ونتقابل في فيزا بعد نص ساعة.

أومأ موافقا

- بس مش فاكر اسم البيت الي هنزل فيه؟

أخرجت لائحة بأسمائهم و بأماكن سكن كل منهم. الروس سينزلون في منزل رايموند. اليابانية معي في سترونج.

- انت في لاثروب.

مرر يده في شعره و ابتسم. أوصلنا الطلاب كل إلى مسكنه و اتفقنا على أن نتقابل أمام نقطة معينة حددناها للجميع للإنطلاق منها إلى فيزا. تكفل أوتوي بالروس و أخذت أنا اليابانية معي إلى سترونج.

اسمها كاوري. فتاة لطيفة في الخامسة والعشرين تدرس الفن. أخبرتها عن ماتيلدا ووعدتها بأن أعرفها عليها قريبا وعلى كازو الذي سيحب ذلك بالتأكيد.

أتى آدم معنا وانتظر في غرفة المعيشة الكبيرة في البهو الرئيسي حتى تأكدت من وصول البنت لغرفتها. نزلت لأجده جالسا على الأريكة الكبيرة أمام التلفزيون. كان التلفزيون مغلقا إلا أنه استمر يحملق إلى الشاشة

- معلش هقطع عليك الفيلم؟

ضحك

- يلا يا بيه مافيش وقت لتلفزيونات.

أشرت عليه بأن نأخذ المخرج الخلفي لأن لاثروب أقرب من تلك النقطة. مررنا بمطبخ سترونج ووجدت بعض الفتيات يحضرن العشاء. لوحت لهن و مشيت. تبعني آدم يجر الحقيبتين. ماتيلدا موجودة و غرفتها مفتوحة.

- أهلا نون وصلتِ الآن؟

قالت وهي لاتزال على مكتبها. أومأت و أشرت نحو ضيفي

- آدم من يو كيه.

تنحنح

- ومصر.

قامت وسلمت عليه. أخذ يدها في يده و حادثها بالفرنسية. اممم غريب! يكتفي بسلام الأيدي. بدت عليها الدهشة حين حادثها بالفرنسية و سرعان ماتبددت و اخذا (يرطنان) سويا حتى أتت آن

- اه اكتملت اللمّة.

عرفتها على آدم و غمزت له

- هترطن معاها بالألماني دي كمان؟

ضحك. تحدثنا سريعا وسألتهما إن كانتا ستحضران العشاء في فيزا

- كلنا سنحضر.

نظرت مستفهمة فردت ماتيلدا

- كازو وناتاليا جاهزان و بانتظاركِ.

- طب كويس أنا رايحة أوّصل آدم.

- ستسكن في لاثروب؟

سألت ماتيلدا هز رأسه و أشار لي

- هي الي بتقول.

ضحكت آن

- اه ستسمع الكلام دون مناقشة إذن.

خرجنا من سترونج واتجهنا نحو الباب الخلفي للاثروب.

- أصحابك لطاف قوي.

- ولسه كمان كازو وناتاليا هتحبهم قوي.

قلت بحماس وأنا أمد يدي نحو الباب. ااخ مقفول.

- نروح من الباب الرئيسي؟

سأل فهززت رأسي بلا. دققت الباب و ناديت على ناتاليا وكازو. وفعلا أطلت برأسها بعد ثانية وفتحت. رحبت بآدم و خرج كازو و سلم عليه و تكفل بإيصاله إلى غرفته في آخر الممر.

- متنساش قدامك ربع ساعة تقريبا و نتقابل.

أشرت للخارج فابتسم

- طبعا!

استوقفته فالتفت في تساؤل، غمزت

- اوعى تنام.

ضحك.

في البهو الرئيسي أمام الكانتين و حيث التقينا أول مرة، نظم سترايدر والباقين عشاء رائعا. سمحت لنا الإدارة بميزانية 150$ وهذا أكثر من رائع. سنقتصد ونوفر بعض المال لمناسبات قادمة أخرى. طلبوا المخبوزات من المخبز اليوناني في جادة رايموند.

و الأكل إيطالي و مكسيكي. تفقدت طاولة الطعام المكسيكي. لست معجبة جدا بالمطبخ المكسيكي ولكن الجواكامولي و الناتشوز مقبلات أكثر من رائعة. وبالتأكيد مطعم إيطالي يعني بيتزا. الحمدلله لن أنام من غير عشاء.

تفرق الطلاب يتحلقون وقوفا في البهو. هذا يضحك وهذا يُعرف هذا على ذاك. جو دافئ. وعلى سيرة الدفء نظرت من البوابة الزجاجية الكبيرة لندف الثلج المتساقطة بالخارج. سأفتقد هذا كثيرا. شعرت بالعطش. طاولة المشروبات في الركن. جذبت كوبا بلاستيكيا و تفقدت الزجاجات أمامي. اه وجدتها. عصير الرمان. صببت لنفسي والتففت لأجد آدم ممسكا بكوب آخر يدعوني لملئه.

- ايه رأيك في الحفلة يا آدم؟

أشرت حولي في حماس

- منتهى الدفا الي في الدنيا.

لست أدري ما الأكثر دفئا؟ الجو من حولي أم ابتسامتك أيها الغريب؟ ملأت كوبه فرفعه نحو كوبي وضربه ضربة خفيفة محدثا تكة مكتومة لإرتطام البلاستيك

- في صحتك.

ضحكت. وقف سترايدر في منتصف الغرفة يدعو من حوله للإنصات. رحب بالجميع و وعدهم بقضاء وقت ممتع و آمن في فاسار.

- والآن سنلعب لعبة.

غمز سترايدر لناتاليا التي انضمت لي و لآدم فلكزتها في مكر. سنتبادل التعارف بشكل عادي كما نفعل الآن ولكن اللعبة تقضي بألا يزيد وقت حديثك مع نفس الشخص لأكثر من خمس دقائق.

- ستتولى جين التوقيت و ستصيح بإنتهاء الدقائق الخمس ووقتها ستبدل مكانك مع الشخص المجاور لك.

أكمل سترايدروهو ينظر نحوي بابتسامة غامضة

- ولكن..

اه عرفت أنه لابد وأن يكون هناك فخ ما. أعلم هذا جيدا فأنا من حضّرت الفخ. نظرت ناتاليا لي مستفسرة فتظاهرت بعدم الفهم وكان دورها لتلكزني في كتفي. ليلة الأمس حينما كنا ننظم اللافتات ونتأكد من غرف الوفد و نختار الطعام والمخبوزات، خصصنا وقتا لألعاب التعارف و كسر الجليد بالطبع.

- ستتبادل أنت والشخص الجديد المعلومات التي عرفها كلاكما عن طالب الفيزا أو الطالب القديم.

ضحك

- لعبة إستخبارتية صغيرة، وبعد نصف ساعة، وهو وقت اللعبة بالكامل سنسأل كل منكم عن بعض المعلومات الخاصة ومن يجيب عن أكبر عدد من الأسئلة ستكون له هدية خاصة من نون.

التفتت الأنظار نحوي فلوحت بيدي في حركة مسرحية

- فهي من اقترحت اللعبة.

وضّح سترايدر. لكزتني ناتاليا مرة أخرى وضحكت.

- مستعدون؟

صرخ سترايدر وبحماس هتفنا بالإيجاب.

- انطلقوا.

إذن فالسباق بين الوفد الجديد و الفيزا. على الوفد الجديد أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عننا وعن الجامعة في خلال نصف ساعة. وقفت مع إحدى الطالبات الروس. لمحت ناتاليا مع آدم. و أوتوي مع كاوري. والباقون كذلك تفرقوا هنا وهناك. ولخمس دقائق أخذت الروسية تسألني وأسألها. حتى صرخت جين بالتبديل.

أنا الآن مع كاوري . تحدثنا لخمس دقائق و بدّلنا. واجهتني ناتاليا وضحكنا.

- كيف كانت نيويورك؟

- اه رائعة كالعادة، مشينا في ميدان تايمز و دخلنا ديزني ومحلات كتير، اه و المكتبة.

أخذت أثرثر و أثرثر حتى أتى سترايدر ينبئنا بإنتهاء الدقائق الخمس واستأذن ليتبادل الحديث مع ناتاليا

- طبعا يا باشا تفضل.

قربت معصمي أدقق في الساعة وغمزت

- أربع دقائق وخمسين وأربعين و عشرين، دقيقتين إلا ربع.

ضحكنا.

- دوري.

- اه السيد آدم عمر؟

- وربنا أنا.

ضحكت

- هتفضل ماسك لى الموقف ده لحد ما تمشي صح؟

هز كتفه فرفعت يدي أمام وجهي

- قلت لك إن ده حلم وأنا ماليش ذنب فيه.

ابتسم

- طبعا طبعا. المهم عندي سؤال؟

بدت الجدية على وجهه،فتحت يدي إشارة لإعطائه الإذن فتلفت حوله قليلا

- كان نوعه ايه البلح الي في الحلم؟

ضحكت لكنه لم يزح عيونه السود عني

- بتتكلم جد؟

أومأ وانتظرني بصبر، يرشف من العصير

- بلح اسود بيلمع مشافتش زيه قبل كده.

قلت وأنا أرقب سواد عيونه اللامعة.

انتهت النصف ساعة و طلبنا عشر دقائق زيادة. كان الجميع مستمتعا. انضم لنا بعض الزملاء الذين كانوا يمرون لأخذ مشروبا سريعا قبل الذهاب لصفهم المسائي. قابلت ماري من صف الدراسات الأمريكية وسألتني إن كنت سأحضر الفيلم التسجيلي للصف و الذي سيعرض مساء الآثنين. لست متأكدة، الاثنين يوم حافل فهو بداية الأسبوع الدراسي وغالبا ما يكون ممتلئا عن آخره. غمزت لي

- طلبنا الأكل من جستو.

- طبعا سآتي؟

ضحكت ولوحت لي وخرجت. تسعين بالمائة لضمانك نجاح الحدث أو الحفلة التي تجهز لها يعتمد على نوعية الطعام الذي ستطلبه. عندما تكتب الإعلانات و تجهزها فلتترك مساحة لذكر نوع المطبخ الذي سنأكل منه. جستو مطعم جميل يقع خارج فاسار. أرغب بالذهاب إليه يوما قبل السفر. وما أن نتأكد من أننا لن نجوع، نسارع بالذهاب فورا. في الواقع أحيانا نذهب فقط كي نأكل

- والباقي شكليات يعني. عندكوا كده في لندن؟

سألت آدم وأنا أضحك. أعلم عنه معلومات أكثر الآن. أخبرني أنه تخصص في القانون الدولي وتعين أستاذا مساعدا في ليفربول حيث يعيش مع أبويه. يُدرس أبوه القانون أيضا وتدرس أمه المصريات .

- دي من الجامعات الي مقدمة فيها بس لسه موصلنيش رد، اه على فكرة أنت ممكن كده تدرس لسترايدر؟

أشرت له هناك فأومأ آدم بالإيجاب.

- لما دردشنا أنا وهو قالي.

مر بأصابعه في شعره

- ليفربول جامعة مش سهلة في إختياراتها لطلابها بس إن شاء الله تتقبلي.

هززت كتفي وعدت لسؤاله عن أبويه

- عايش معاهم في نفس البيت؟

هز رأسه بالنفي

- شقة منفصلة بس جنبهم يعني، جدي وستي بقى عايشين في سوري.

- لا ماتتأسفش يا حبيبي بتحصل عادي.

ضحك . مدينة سوري Surrey، مدينة جميلة تحمل الطابع الريفي الإنجليزى. و لا تبعد كثيرا عن لندن. جداه لأبيه يحبان الريف لأنه يذكرهما بريف مصر.

- شفتي فيلم أجازة العيد لجود لو و كيت ..؟

- هل سمعت اسم جود لو؟

قاطعتنا آن حينما كانت تمر لملء كوبها بالعصير

- نون تعشق كل ما يتعلق به.

غمزت آن و مضت. نظر لي في فضول

- احم احم أيوة تقدر تقول جود لو الكراش بتاعي.

ضحك

- طيب يبقى أكيد شفتيه.

نظرت له في تساؤل

- الي كان بيحكي عن البنتين الي بدلوا بيوتهم مع بعض في الكريسماس؟

برقت عيني عندما تذكرت. اه هذا من أفلامي المفضلة فكرته رائعة و حبكته أيضا. طول عمري وأنا أسيرة لفكرة تغيير جلدك و حياتك و نفسك نفسها عندما يقتضى الأمر. لو لم تفعلا ما فعلتاه لانتهت حياتهما قبل أن تبدأ. والأهم أن به مستر جود لو وأنا مهووسة به جدا.

- جدك وستك عايشين في المدينة الي اتصور فيها الفيلم؟ واااااو

قلت بانبهار حقيقي فأنا أحببت مشاهد الريف الإنجليزي العريق. والحقول و الخراف التي ترعى هنا وهناك و الكوخ الذي سكنت به البطلة وكل شئ كل شئ. همّ بقول شئ ما إلا أن سترايدر وجين هتفا بانتهاء اللعبة وتعالت الصرخات في مرح.

والآن حان وقت التصفية لإنتقاء الفائز صاحب المعلومات الأكبر. كل طالب على حدة ولمدة خمس دقائق سيكون عليه أن يجيب عن أسئلة عنا وعن فاسار، و صاحب أكبر إجابات صحيحة هو الفائز.

وبدأت الجولة الأولى مع اليابان تلاها الروس و ماليزيا و أخيرا مستر آدم. تعادل آدم مع كاوري.

- سؤال أخير سأسأله عليكما معا و الأسرع هو من سيفوز.

أومأت كاوري في تصميم. لا مزاح مع اليابانيين يا سادة. ومر آدم بيده في خصلات شعره وهز كتفه. يبدو لا مباليا. مالت ناتاليا على سترايدر وهمست له ببضع كلمات برقت لها عينه و نظر نحوي في لفتة سريعة. تنحنح

- والسؤال هو: من منكم مستعدا لحضور حفل عيد ميلاد إن' نوننا العزيزة؟

وتعالت الصرخات. فتحت فمي في ذهول. لم أتوقع هذا أبدا. اندفع الجميع نحوي يهنأنونني. المطارید كلهم هنا. آن وماتيلدا احتضنتاني. كازو ربت على كتفي في حب. إفي العزيز يصفق في جذل. آدم يبتسم في سعادة. زاغت عيني في المكان كله وحيثما أقلبها تقع على من أحب. اه إنها لحظة من الجنة.

تتابعني ناتاليا العزيزة من بعيد. بعض طلابي أتوا أيضا.

- إن القصيرة العزيزة.

أوه أديتي أيضا. نظرت لناتاليا في عرفان. أخذت سمير في حضني بيد و عائشة أمه في اليد الأخرى. لم تعد لي قدرة على عرقلة دموعي فحررتها. مالت علّي ناتاليا

- لا مكان للدموع اليوم.

- متى قمتى بتجهيز هذا كله ؟

سألتها من بين دمعاتي وأنا ألهث

- لست وحدي، كلنا كنا معا. ثم أنا قلت بأني سأحتفل بعيد ميلادكِ هنا كما احتفلتي به في مصر.

احتضنتني

- أنا محظوظة أن ساقني القدر إليكِ عزيزتي.

- أنتِ اختى يا ناتاليا.

قلت بصدق من وسط دمعاتي. ازداد الصخب حين ظهرت آن و كازو بالتورتة. تورتة الشوكولا التي تخبزها ماتيلدا على الطريقة الفرنسية و تأبى أن تبوح بسرها لمخلوق. غنينا سنة حلوة ياجميل

- تمني أمنية يا قصيرة.

هتف أديتي درت بعيني في من حولي واحدا واحد ثم أغمضتها. لا أريد لهذه اللحظة أن تنتهي. أريد أن نبقى كما نحن حتى آخر الزمان. ولكن رغما عني تذكرت نصفي الثاني في مصر.

- ليس لدينا اليوم بطوله.

- نريد أن نتذوق التورتة.

تعالت الهتافات في مرح. أعرف تماما ما أريد ودون لحظة زائدة فتحت عيني أطفئ شمعة وأضئ ألف ألف طاقة نور أخرى في روحي.

تعالت الصرخات و أتى سترايدر بزجاجة شمبانيا اشتراها خصيصا لهذه المناسبة

- أعرف بأنكِ لا تشربين الكحول ولكن اسمحي لنا أن نشرب نحن على شرفكِ وشرف الوفد.

هززت رأسي في تقدير.

- من دون الواحدة والعشرين يتفضل بالخروج.

هتفت ماتي في مرح وتعالت الموسيقى. اختار أديتي أغنية بنجابية لم يستطع أيا منا فهم كلماتها إلا أنها نجحت في توحيدنا كلنا في قرار واحد، الرقص. رقص كل منا حسبما بدا له. و ضحك علينا أديتي حتى كاد ينقلب على قفاه مثلما يقولون.

اختارت آن بعدها أغنية ألمانية و تلتها فرنسية لماتيلدا أما ناتاليا فاختارت أغنية لعمرو دياب كانت قد بحثت عنها و جهزتها كي تفاجأني. رقصنا على إيقاع الموسيقى دون الإهتمام بتفسير أو ترجمة الكلمات. للموسيقى لغة واحدة على أية حال.

اه ولكن لابد وأن تكون أدركت جيدا أن الغربة ليست فقط غربة سفر وحواجز ومطارات و أختام، تلك الغربة لا تقارن بإغترابك الحقيقي داخل ثنايا روحك. فإغترابك النفسي لن يخرجك منه ألف فيزا إلا إن سمحت له، فقط اسمح له وانظر ما سيحدث.

****

أخذت نفسا عميقا حتى دخلت بعض ندف الثلج إلى أنفي فعطست. كنت قد هربت إلى شرفة الدور الثاني بحثا عن مكان أختلي فيه بنفسي. ترى لماذا نخاف من السعادة؟ منذ كنا صغارا ونحن نرى الكبار يمسكون بصدورهم و هم يجاهدون ضحكاتهم ليقولوا من وسط لهاثهم "خير اللهم اجعله خير!" حقيقي لم أفهم. هذا ما وجدنا عليه آبائنا صح؟

و فعلا كبرت لأقلدهم و أحاكي ما يفعلون. كلنا نحاكي دون فهم. لماذا انسحبت من فقاعة السعادة بالأسفل و تسحبت كي أجلد نفسي وأفتح معها نقاشا عن أهمية الخوف لصحة الإنسان؟!

بدأ عقلي في تعديد أسبابه دون استئذان. هل نخاف من مرور اللحظة؟ أم نعلم أنها عاجلا أو آجلا ستمر؟ لذا نقرر أن نحجّم سعادتنا انتظارا و توقعا للأسوأ؟ لكن لماذا نحجّمها؟ إن كان الأسوأ آت لا محالة فلماذا لا نحررها و نعطيها حقها عن آخره، أليس هذا هو العدل؟

رفعت رأسي أرقب الثلج المتساقط علّه يمّن على بإجابة. تنبأ خبراء الطقس بأن تلك آخر عاصفة. ربيع مارس سيذيب كل الثلوج.

- شكرا إنك اديتني عيلة تانية هنا كمان.

همست للسماء. لا أرى شيئا ولكن أعلم أنها هناك فوقي، مرفوعة بعمدان لا نراها و أعلم أن الله حولي في كل مكان. اه السعادة أيضا لا ترى بالعين المجردة وإنما نحس بها تغزو خلايانا. قبضت بيدي على السور

- بلغهم سلامي وقولهم مايخافوش على.

- بتكلمي مين؟

قفزت من مكاني فزعة

- اسف خضيتك؟ أنا بس شفتك وانتى طالعة و..

ارتبك و مرر أصابعه في شعره

- و حبيت أبقى معاكي.

تنحنح

- تحبي أسيبك؟

هززت رأسي بلا و درت بعيني بين الثلج حولي. ابتسم بحنان

- مكنتش أعرف إنه عيد ميلادك؟

ارتكن بيديه على السور فشعرت بدفء يده حين لامستني و مجددا سرت رعشة كهربية إلى جسدي.ترى هل لاحظ؟ فركت يدي أداري ما ألّم بي وافتعلت ضحكة

- ماهو مش عيد ميلادي فعلا!

نظر مستفهما فأخبرته بأني احتفلت بعيد ميلادي في أجازة الشتاء في مصر و لكن ناتاليا أصرت أن نحتفل ثانية

- كنت فاكراها بتهزر.

بدا عليه الفهم فلمعت عيونه السود ببريق أخاذ . هربت بعيني بعيدا

- تعرف إن المبنى الي احنا فيه ده كانت ساكنة فيه الممثلة جين فوندا؟

سأل بمرح

- معقولة! كانت بتدرس هنا؟

أومأت بحماس

- ميريل ستريب كمان، استضافها طلاب قسم المسرح نوفمبر الي فات وكان حدث جميل.

رفع حاجبيه في إستمتاع. أخذ يحدثني عن المسرحية التي قام بها وهو صغير، إلا أنني لم أفهم حرفا واحدا فقد شغلتني لكنته الإنجليزية ذات الرنة الكلاسيكية. وكأني انتقلت إلى إحدى فصول رواية من روايات جين أوستن.الخ تهت.

رنين رسالة استدعاني من حرم صوته .

- أين أنتِ؟ وقت الهدايا؟

كتب كازو و كررت آن السؤال

- يلا ننزل؟

أومأ موافقا. اتجهت نحو آن وكازو و ماتيلدا. ناتاليا و سترايدركانا يرقصان على موسيقى هادئة وعندما رأتني أتيا نحونا

- هاه جاهزة لهديتكِ؟

سأل كازو بحماس

- اشتريناها معا.

قالت آن

- ولكن أنا صاحبة الفكرة.

غمزت ناتاليا. أخرجت آن علبة مغلفة من تحت طاولة المشروبات وناولتني إياها. ترى ما هي الهدية التي أجمعت عليها الأرجنتين و فرنسا وألمانيا واليابان؟

كارت صغير ملصق أعلاها "لأنكِ أنظف قلب." و صورة سمايلي يغمز. التوقيع: المطاريد.

هززتها محاولة تخمين ما بداخلها. وصلني صوت خشخشة مكتومة. كتب جديدة؟ لا أعتقد. اه ممكن تذكار من متجر فاسار كنت قد رأيت مفرشا كبيرا من الصوف بلوني الجامعة الرمادي والمارون. هززتها مرة أخرى، أيضا لا.

- افتحيها يا نجوى!

قال آدم وهو ينظر نحوها بفضول

- نعم افتحيها الآن.

صفقت ماتيلدا في جزل. أسندت العلبة على الطاولة. و قطعت الورق المذهب الذي يغلفها. بدا جزء من المنتج مرسوما على العلبة. تبدو كأداة من أدوات المطبخ

- مقشرة بطاطس؟

سألت في عدم فهم. قهقه كازو و صفقت ماتيلدا مرة أخرى وهي تتقافز

- افتحيها وستعرفين.

أزلت الباقي من الغلاف الورقي و فتحت الغطاء الكارتوني. وهاهي في يدي. زجاجة بلاستيكية في حجم زمزمية متوسطة ولكن هذه عنقها طويل ينتهي بمرشات.

آدرتها لآدم علّه يخمن ماهي فضحك حتى احمر وجهه. وأخيرا فهمت. اه ماذا أقول؟ إنهم يفهمونني. برقت عيني في مرح و صرخت

- شطّافة يا أولاد المجانين؟

تعالت ضحكاتنا و تحلقنا معا في حضن دافئ طويل لن أنساه أبدا ما حييت.

ياله من يوم! ارتميت على سريري أعيد أحداثه مشهدا بمشهد. جولة نيويورك مع إفي و وصول الوافدين الجدد و حفلتهم التي انقلبت لحفلتي أنا و الشطّافة التي وضعتها بفخر في الحمام و لكن ليس قبل أن أصورها لحسام ومنصورة.

أتى رد حسام بعد دقائق مستفهما فأخبرته بأنها هدية ووعدته بشرح الأمر كله صباحا حين أحادثه سكايب.

منصورة أيضا لم تفهم وحين أخبرتها أرسلت رسالة صوتية مكونة من ثلاثين ثانية فقط. في الثلاث ثوان الأولى أخبرتني بأن (أسد وداني) وفي السبعة وعشرين الباقية سبّت ما يقرب من السبعة وعشرين سبة في انبهار تام بهذا الإختراع العجيب.

ثم أرسلت رسالة صوتية أخرى لدقيقة كاملة هذه المرة تسب وتلعن طوال الستين ثانية هذا الشعب النتن الذي لا يشطف نفسه بعد كل حمام.

رسالة أخرى أتت من ناتاليا تقول فيها بأنها قد أضافت آدم إلى مجموعة الواتس و كازو أيضا قام بإضافة كاوري. أرسل آدم يخبرني

- هدية عيد ميلادك هتوصلك بكرة أو بعده بالكتير هنا في الجروب.

وغمز. اه غمزة أخرى؟

- أرجوكوا كفاية مفاجآت!

- تصبحون على خير يا مطاريد.

قالت ناتاليا

- نوما هنيئا يا جماعة.

ردت ماتيلدا. و أتى صوت آن عاليا من الغرفة المجاورة

- تصبحون على خير يا فتيات سترونج.

ضحكت. أسبلت جفوني وفمي تزينه ابتسامة حالمة .

قطع نومي الهادئ دقات جرس الإنذار. فأنتفضت و أزحت البطاطين وقمت ألتقط الجاكت والبونيه من حيث تركتهما.

فتحت باب حجرتي لأجد آن وماتيلدا وبعض من الفتيات الأخريات يتجهزن للخروج. وضعت البونيه على شعري ونحن في طريقنا للباب. لم نتدافع وباقي الفتيات. كل يعرف ما عليه فعله.

عندما تنطلق صفارات الإنذار تتجه إلى أقرب مخرج وتنتظر خارج المبنى لحين وصول أفراد الأمن التي تنبئك بزوال الخطر. هذه أولى قواعد الأمن التي يتدرب عليها الطلاب هنا من قبل المرحلة الإبتدائية. لذا لا وجود لأي هرج أو مرج.

تذكرت أول مرة انطلقت فيها صفارات الإنذار وأنا هنا الخريف الماضي. لم أكن أعرف ما الذي يحدث بالضبط؟ هل قامت الحرب؟ هل هي نهاية العالم؟ حينها أصبت بنوبة فزع إلا أن الفتيات طمأنني واصطحبنني معهن للخارج في هدوء وسرعة. اه كان تدريبا لا أكثر. ومن يومها وأنا أجهز نفسي لأي موقف مماثل. النظام حلو يا أولاد!

- هل هذا تدريب ؟

سألت وأنا أنزل درجات السلم

- لا نعرف بعد.

هزت ماتيلدا كتفيها وهي تتأفف من البرد وتحكم الجاكيت حول جسدها. تلفتنا حولنا لنجد كل فتيات سترونج في الفناء الخلفي للبيت. خلال عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر من إنطلاق جرس الإنذار يتم إخلاء المبنى بالكامل.

- الساعة كم الآن؟

سألت آن وهي تتثائب فردت واحدة

- الثانية والنصف.

برررر وحوحنا من البرد. التفتنا نحو لاثروب. الجو هادئ و يغطون في نوم عميق. يا لحظهم! عندما يدق جرس الإنذار عندهم نخرج لهم ألسنتنا من الشباك إن كنا مستيقظين.

بعد ربع ساعة تقريبا، خرج لنا أفراد الأمن. أخبرونا بأن جرس الإنذار انطلق أولا من الطابق الثاني وعندما ذهبوا لتفقده وجدوا مجففا للشعر وقد نسيته إحداهن في الكهرباء.فتسبب ذلك في شياط أسلاكه و تصاعد الدخان الذي أدى لإنطلاق الإنذار.

تم التعامل مع الموقف بفعالية وحزم وسرعة. طمأنونا بأن كل شئ تمام الآن . شكرونا على حسن تصرفنا و سرعة خروجنا و امتثالنا لقواعد الأمان. وأخيرا طلبوا منا بمرح أن نجري إلى السرير بلا خوف الآن. وفعلا جرينا نتحصن بالدفء. وبعد خمس دقائق كنا نغط ثانية في النوم.

18

نون

لم أقابل منصورة بالأمس. ولسبب مجهول لم أنعم بأي نوم يُذكر. طلع الفجر و قد قررت أن ألغي جميع حصص اليوم والذهاب لملاقاتها. سأعمل لها مفاجأة. أم أنا التي ستتفاجأ؟ لا يهم.

المهم أني انتظرت حتى أتت الساعة السابعة و طرت على الشارع. وجدتها متكومة في فرشتها التي تركت لها السندوتشات تحتها. راقبتها لحظات. كم هي مسالمة وبريئة.

رموشها الطويلة تظلل عينيها فلا تظهر خضرتهما ولكن يمكنني تخيلها. اقتربت منها بهدوء كي لا أوقظها وانحنيت نحوها. تصنع من كلتا يديها وسادة تضعها تحت رأسها. و رجلاها مضمومتان نحو صدرها في موضع جنيني لا يتماشى ورصيف الكورنيش. لا يسترها سوى بطانية قديمة مهترأة لا يتعدى سمكها جلدة الكراسة التي يكتب بها طلاب أولى إبتدائي في الحصة.

بدأ جسدها في الإهتزاز فجأة، جفلت و هممت بالسقوط على ظهري إلا أني تماسكت و نجحت في الإستناد بأصابع يدي اليمنى أتشبث بالفرشة. أخذت تتمتم بكلمات متفرقة لم أتبين منها سوى :المطر ..أمي.. و الغول. اممم هل كانت تحكي لها أمها حدوتة قبل النوم عن الغول؟

زادت هزات جسدها و بدأت أسمع صوت أنين وكأنها تصارع مجهولا. لم أستطع مراقبتها أكثر فقررت إيقاظها.

تفاجأت من وجودي و سألتني عن الساعة. أخبرتها بأني سأقضي اليوم معها . أرغب بإضفاء بعض الحياة لحياتي الميتة. ووجود منصورة يقدم لي منحة كاملة و مفتوحة.

وعدتها بأني سأكون لها كالتابع الأمين الذي لن يرهقها بأي أسئلة أو بأي أحكام. على كل، من أنا لأحكم عليها؟ وافَقَت. وأخيرا قابلت من هى أكثر جنونا مني. أردت بأن أتقافز فرحا، بأن أصفق أو أصرخ ولكن فرحتي لم تكتمل حين بدأت في النظر لي و كأن مظهري غير لائق.

شددت الجاكت حول جسدي. وحينما أخبرتني بأني يجب أن (أوسخ) نفسي انفعلت. ولم أستطع منع فمي من السقوط في دهشة. تابعتها لحظات كي أتأكد من جديتها. أشارت لي بنفاذ صبر فأخذت أتلفت حولي بحثا عن وسيلة مناسبة لتحقيق درجة الوسخ الذي ترغبه.

لمحت كومة تراب مكومة على الرصيف. قبضت على كومة التراب. إذا كان هذا هو المطلوب كي أصحبها، قربت الكومة من وجهي أزعم رشه بها ولكنها استوقفتني. اه كان إختبار إلتحاق. أرادت التأكد من تبعيتي. ما يدهشني في منصورة هي أنها دائما ما تخالف توقعاتي.

منصورة تعطيني دروسا وتعلمني ما لم أتعلمه في سكاشن الجامعة. أتفق معكِ يا منصورة الوسخ الذي يملأ النفوس أكثر من الوسخ الذي يغطي الملابس. ثم أنا لا ألمح وسخا على قميصها و بنطلونها. اه يا لئيمة يا منصورة و اه يا غلبانة يا نجوى.

طلبت مني أن أتبعها إلى عمارة قريبة. أنا قلقانة، و شعرت بالقلق أكثر حين اتجهنا نحو البدروم. وقفت عند المدخل مترددة. ما الذي أفعله هنا بجد؟ التفتت وأشارت لي. شئ ما في خضار عينيها الصارمة يأمرني باتباعها في صمت. أخذت نفسا عميقا أداري به انفعالي و تبعتها. ناولتني الكيس البلاستيك و طلبت مني أبدل ثيابي بثيابها. أشارت لي بالدخول للحجرة. قفلت الباب ورائي و انتظرتني هي بالخارج.

كانت غرفة صغيرة بها شباك صغير للتهوية و تلفزيون أصغر و طاولة و طشت تحتها و باجور. في الركن توجد كنبة طويلة لابد وأنها السرير

- ده فيه نونو هنا!

هتفت بدهشة. كان رضيعا نائما في سلام. ألقيت عليه قبلة سريعة و بدأت في تبديل ملابسي.

لم تكن هناك مرآة كي أتحقق من مظهري إلا أني حين خرجت وواجهتها شعرت بأنها تقاوم ضحكة تعتمل بداخلها . اه تلك الماكرة تستمع برؤيتي في هذا القميص الواسع و البنطلون الطويل الذي (ينسلت) مني بين كل لحظة وأخرى.

عدلت من وضع طرحتي ،عصبتها حول رأسي كما كنت أراهم في سوق الخضار. لم أعترض.أردت إرتداء الجاكت و لكنها أخبرتني بأني لن أحتاجه. تمام ،هي أدرى مني بما أحتاج.

كوّمت الكيس وراء الباب و أشارت لي باتباعها للخارج. كنت أقف بين لحظة وأختها (أشمر) البنطلون وأرفعه. التفتت هي مرة ولم تعلق إلا أني لمحت ابتسامة في جانب فمها سرعان ما وأدتها في مهدها قبل أن أراها.

ذهبت إلى عمارة أخرى و خرجت بمقشة بالية. أعطتني المقشة و قالت بأني سأكنس من هنا وحتى فيلا غيث. يا سلام! أنا أصلا أكنس غرفتي بالعافية.

هذا كثير يا منصورة. ولكن لا يبدو عليها أنها سمعتني. شعرت بأنها ترغب بالتخلص مني وحسب. حتى عندما ناديتها و سألتها كيف سنلتقي قالت بأنها

- هتلاقيني .

زفرت في إستسلام. وقفت أرقبها للحظات حتى ابتعدت عني. نظرت للمقشة في يدي وتنهدت

- استعنّا على الشقا بالله.

ازدادت زحمة المشاية السفلية بالطلاب المتجهين للجامعة. الناس في كل مكان.وقفت الميكروباصات تنزل و تحمّل الطلاب. باصات المدارس ملأت الدنيا. لم يكن بالمشاية موقع لقدم.كنت أتلفت بين الحين والآخر أرقب وجوه الناس وأرى إن كانوا يتابعونني. كنت خجلة.

توقفت عن الكنس. دققت النظر في الوجوه من حولي. هم لايروني من الأساس. اه تحقق حلمي أخيرا، يا لفرحتي! أنا مخفية بالنسبة لهم. أرتدي طاقية الإخفاء التي حلمت بها.

حتى كفوفي لا رغبة لي في إخفائها. شمرت عن ساعدي و لم أكترث للشق الطويل في معصمي الأيسر. حتى وإن رأوني فلست أنا من سيرون وإنما آخرى لا أعلم من هي.

تعمدت الإصطدام ببعضهم لأفاجأ بهم يفتحون الطريق لي و يتفادوني كالوباء. لا يحرقونني بنظراتهم ولا يقلبون شفاههم حين يروا ألواني غير المتناسقة. اه تحررت.

كنست وكنست حتى نسيت كل من حولي. لم أكن أكنس الرصيف قدر ما كنت أكنس مخاوفي. جمعت كومة كبيرة من عقبات وحواجز كانت متفرقة في ثنايا نفسي لما يزيد على الثلاثين عاما. هاهي تحت أمر مقشتي. كوّمتها بعنف. لم أستئذنها. كومت وكومت و بعدها نفخت فيها فطارت مع التراب تذروها الرياح كأن لم تكن يوما.

تصببت عرقا و أدركت لم أخبرتني منصورة بأني لن أحتاج الجاكيت.

- بتعملي ايه يا ميم في صيف أغسطس انتي؟

تنهدت

- ولا في رمضان؟

كنت عطشى و كنت خجلى لشعوري بالعطش. اه الجاكيت به نقودي وهاتفي. ما الذي يمكنني فعله الآن؟ لم أدر ما الوقت.

استوقفت رجلا خمسينيا أسأله عن الوقت، لم يسمعني.سألته بصوتي الرقيق. نظر لي بعدم فهم. يجب أن أستخدم صوتا يعلو على صرخات السائقين و سباتهم. يصل لأذنيه عبر هتافات بائعي الترمس والذرة وصرخات السائقين . فلأستخدم صوت الشارع إذن.

سؤالي هو هو لم تتغير كلماته ولم تزد عن

- الساعة معاك كام؟

نظر في ساعته بسرعة

- داخلة على 11.

أخذت أتلفت حولي، تأخرت منصورة. وأخيرا وصلت عند الفيلا. تركت جسدي يسقط على أقرب دكة خشبية وجدتها. تركت المقشة لتسقط تحت رجلي.

لا زال العطش يهزني. كل جسدي بدأ في الإهتزاز. شعرت بحلقي يجف و بوجهي كله يكاد ينفجر من الوهج و الصهد. ما عدت متأكدة أننا في الشتاء.

- خدي يابنتي شكلك هبطانة.

التفت و أخذت القلة دون كلمة زيادة.

- أطعم مية دقتها في حياتي.

قلت و ضحكت من قلبي. لم أتبين معالم صوتي. لست أدري ماذا يحدث لي ولم أهتم. تناول منى القلة رجل خمسيني تبدو عليه الطيبة. تبعته بنظري لأجده يذهب نحو عربة الترمس. اه هو بائع الترمس إذن.

- انتي جديدة في المنطقة؟

وجدت نفسي أجاوبه بنعم وبأنه سيراني كثيرا. لوح لي بيده و دفع العربة أمامه في صبر. الحمدلله. شربت و ارتحت. اخ ليس تماما أنا جعانة جدا. معدتي توجعني من شدة الجوع. لم أجوع هكذا من.. من..

لا أعلم متى كانت آخر مرة شعرت فيها بالجوع. لا أعلم متى كانت آخر مرة شعرت فيها بالحياة. غلب الجوع التعب، فربّعت يدي و سندتها على الدّكة و نمت.

أخبرتني أمي بأن آخذ معي بطانية ثقيلة عندما أذهب إلى بلاد بره. أخبرتها بأن نتيجة المقابلة لم تظهر بعد. فربت أبي على كتفي بحنان و ابتسم لأمي ابتسامة العالم بخفايا الأمور.

- لازم تعرفي اننا سايبينك تسافري عشان إحنا واثقين فيكي.

قالت أمي فنكست رأسي

- مافيش داعي تتكسفي من شئ، كلنا بنغلط ،لكن مش كلنا بنفوق في الوقت المناسب. لكن بنتي هتفوق في الوقت المناسب.

احتضنني أبي فبكيت في حضنه.

- أنا آسفة أنا مكانش قصدي والله!

انضمت أمي لنا و اكتمل حضننا الجماعي، أردت أن لا ينتهي أبدا. طفق أبي وأمي يرددان بأني سأفيق في الوقت المناسب. وبالفعل أفقت. دون أي سبب واضح أفقت لأجد مجموعة من الأولاد الصغار تقف على مقربة مني و يتناقشون في أمر ما.

جفلوا عندما قمت فجأة. اقترب مني أحدهم محاولا جذبي نحو المجموعة، أخبرتهم بأنه

- عيب ده أنا مدرسة وبدرس لأكبر منكم.

ضحكوا على النكتة. زاغت عيني على الناس المارة من حولنا. هممت بطلب المساعدة إلا أن البلادة و التناحة الغريبة في أعينهم أوقفتني. اه تذكرت المقشة. رفعتها بسرعة و لوحت بها أمام وجهي ،و أخيرا ظهرت منصورة.

فجأة أتت كالمنقذ الشجاع الذي سيحمي الأميرة الصغيرة. الفرخة أتت لتحمي كتكوتها المبلول من الحدأة. ابتسمت و طلبت مني أن أسد أذني. احتميت وراء ظهرها و راقبت وجوه العيال. لم يبد أنهم استجابوا بالطريقة التي توقعتها هي لذا فقد مدت يدها إلى جيبها الخلفي.

تابعتها بفضول فوجدتها قد أخرجت مطواة و فتحتها تلوح بها أمام وجوههم و قبل أن تنهي تهديدها كانوا قد تفرقوا كالذباب. لا أعرف بالضبط ما الذي أثار صدمتي إلى هذا الحد. هل اندهشت من عمر (العيال)؟ أم من ما كانوا ينوون فعله بي؟ هل صعبت علي نفسي؟ أم صعبت علّي منصورة؟ أنا في الشارع من كام ساعة. أما هي ففي هذه الغابة من كام وكام سنة.

أن تلبس ملابس رجل وتتصرف و تتكلم كواحد من الرجال هو أقل المطلوب كي تنجو. أفقت من شرودي على كلمات منصورة المتبعثرة. كان الإرتباك باديا على محياها. لابد أنها تؤنب نفسها على تركي. ولكن أنا من تؤنب نفسها على تركك أنتِ بالشارع يا منصورة.

لمحت بعيني كيس بلاستيك على الأرض و رأيت السندوتشات خارجة من فمه. لابد وأنها أوقعته قبل المعركة. انحنيت و فتحته. اه أنا جعانة. أخذت سندوتشا أكلت نصفه في قضمة وأعطيتها واحدا.

والنظرية تفيد بأن أكثر أسرارك ممكن بسهولة جدا أن تُطلع عليها الغرباء في ميكروباص أو عيادة دكتور. سليمة جدا و صحيحة مية المية .أحيانا الواحد منا يحتاج أن يعمل عكس ما هو معتاد ، يعنى لو كنت معتادا على الصمت و عدم المشاركة ستجد نفسك تتكلم وتتكلم و ستفاجأ برغبة في البوح و الإعتراف بكل ذنوبك .

لحظتها أنت لا ترى من أمامك ولا تتبين ماهيته ولا يفرق معك من يكون من أساسه، ما يفرق معك بحق أن تتوفر لديه شروط الإصغاء والتي ليس من ضمنها التعاطف أو تقديم الحلول أو حتى النصيحة . تخلق الصدفة الجو المناسب و ترى من أمامك كاهنا ينتظر اعترافك من وراء ستار. و لكن ما يكسبك طمأنينة و أمانا تستطيع معه أن تنام كالأطفال هو حقيقة أنك أبدا لن تقابل من تعرّيت أمامه لتوك.

تغريك تلك الحقيقة للبوح والفضفضة و التجرد من أي هالة زائفة قد تكون أحط بها نفسك اتباعا لعادة خرساء أو اتقاء لشر مجتمع . نفسها تلك الحقيقة تدق تلافيف عقلك بأن لا غرابة ولا استنكار إذا ما تكررت الصدفة ووجدت نفسك وقتها تتظاهر بعدم معرفة من تعرّيت أمامه يوما. أنا اخترت أن أحكي لمنصورة ومنصورة اختارت أن تسمعني. ثم تبادلنا الأدوار.

مع خلاف بسيط وهو أني أبدا لم أكن أنتوي التنصل من معرفتي بمنصورة أو التنكر لها، وإنما مع كل كلمة وكل حرف نتبادله كنت أزداد إصرارا للحفاظ عليها.

لم نشعر بمرور الوقت. حتى حل الغروب برومانسيته، تابعت مبيت الشمس في صمت. حررت يدي ومددت باطن كفاي أمامي في سكون. انتهيت من اعترافاتي و شعرت بخفة تجتاحني. باقي اعتراف واحد تركت لمنصورة حرية اكتشافه.

لمحتها تتفحص الجروح في باطن كفي و شعرت بعينها وهي تتابع الشق الطولي الذي يصل عمقه إلى قلبي. انتظرتها أن تسأل ولكنها نكست رأسها لتشرد في شقوق و خدوش يدها هي الأخرى.

إن كانت أيادينا شوارعا لتشابهتُ ومنصورة بأن باطني كفينا متاهة لحواري و أزقة و حفرات معتمة، ستلتهم كل من رماه حظه العاثر في طريقها. ضممت يدي نحو صدري و دون حاجة مني أن ألتفت أخبرتها بأن تلك طريقتي للشعور بأني حية.

ما لم أقله بأن تلك (كانت) فأنا وبحق هذا الغروب الذي جمعني بها وبحق الحضن الذي نلته من أبواي أقسمت بألا أعاود فعلتي. لم تستوضحني ولم أقل المزيد.

غابت الشمس و شعرت بجسمي كله يتكسر وبمعدتي تأن من الجوع. خفت بأن أعلن عن جوعي أمام منصورة. وكيف لي أن أدري إذا ما كانت تأكل عندما تجوع؟ أنا آكل عندما أجوع- ولفترة طويلة كنت آكل دون أن أشعر بأي جوع- لأني أملك فعل هذا. أما هي فلا تملك سوى ما (تستلتقطه) من هنا وهناك.

قبضت على معدتي أسكتها و تثائبت. أعلنت عن رغبتي في الذهاب ولكن منصورة أخبرتني بأن السهرة لم تنته بعد. ذهب عني التعب فجأة و توارى الجوع خلف ستار من الحماسة و الفضول اللذان انتاباني لمعرفة نوع السهرة التي حضّرتها لي منصورة. في الحقيقة ظننت أنها قد نسيتني هذا الصباح ولكنى ظلمتها. كيف تنساني وقد جهّزت لي سهرة مخصوصة؟

جذبتني من يدي تنفض عني الكسل واتفقنا أن نعود لعمارة صابحة كي أسترد ملابسي. شعرت بانقباض حينما تذكرت. انتهت (الفسحة) وعلي أن أزيل تنكري لأستعيد جلدي. ولكن لا، لقد شعرت بحلاوة لا رغبة لي في التنازل عنها أبدا. استبدلت ثيابي وعدلت من وضع طرحتي ولكني لم أتنازل عن روح المغامرة في عيني. وحينما تفحصتني ميم اطمأننت حيث رأيت انعكاس إصراري باديا في عينيها.

سألتها عن وجهتنا وفاجأتني بأننا وصلنا. رأيتها تتجه نحو ثلاثة يفترشون الرصيف و يتحلقون حول نارا يستدفأون بها و يشوون عليها كيزان الذرة. تقلصت معدتي من الجوع.

تشاغلت بمتابعة الثلاثة وللحظة الأولى خفت و انكمشت وراء منصورة حين أدركت بأني قد عدت لملابسي وجلدي. حين دققت النظر عرفتهم من وصف منصورة السابق.

هذه المرأة التي تحمل رضيعها هى صابحة. وهذان الرجلان أحدهما حرامي الفراخ و الآخر لا أذكر اسمه. اه تذكرته من فيلم اسماعيل يس، اسمه الباز أفندي. ذهب عني خوفي و سرت خطوة بخطوة مع منصورة. عرفتني على ثلاثتهم.

بالفعل هذا الضاحك المبتسم يكون صلاح و هذه صابحة و المتجهم الباز أفندي. هو ليس متجهما ولكنه فقط يحاول فرض سطوته. لكن على من؟ منصورة تطغى على الكل. عرفتني عليهم أو عرفتهم علي فأنا أعرفهم بالفعل من كلام ميم عنهم.

و فورا شعرت بالألفة تجتاحني. تمجلست بين صلاح والباز تقابلني ميم و تحيطني بعينها. صلاح ودود يتكلم دون انقطاع. يخرج من موضوع ويدخل في الآخر بسلاسة تجذبني. ناولني الباز كوزا من الذرة و قبل أن يحذرني من سخونته كنت قد أعملت أسناني فيه. من أين أتوا به؟ هل هذا موسم الذرة؟ لا يهم، أنا جعانة جدا.

ميم تحمل الصغير وتلاعبه. ما بال الأطفال يظهرون جانبك الحنون؟ وما بال الآخرين يدفعون مستر هايد للهرب من شقوق روحك؟ خضار عينيها رائقا لا تشوبه شائبة حنق أو غضب. لديها كل ماتحتاج بين يديها. تهدهد الصغير بحنو الدنيا كله، حتى هو لا يمكنه الهرب من دفء الأمان بصدرها فيستسلم لهدهداتها وينام.

بلى،فاقد الشئ يعطيه ونصف. و جاء دور الشاي. ماذا أحتاج أكثر؟ اه نسيت تماما الآن أن كل هذا يحدث على الرصيف. تابعت الشيشة التي تجهزها صابحة. رائحتها نفاذة، والغريب أني لم أنفر منها. لكني ارتبكت حين ناولنيها الباز فأخذتها ميم بسرعة دون أن تعلق على ارتباكي.

ما الذي ينقصنا؟ اه حديث عن الحب طبعا. دون مقدمات يفتح باب الحب و أحتد و أجادل و أتكلم وأتجرأ فأجرب نفسا و أسعل و تطلب مني –لا بل تأمرني منصورة بالتوقف وأنا أذعن و أرضخ. هل (انسطلت) من دخان الشيشة حولي؟

اه ومنه لله أدهم صبري. و سامحه الله د. نبيل فاروق على غرس مبادئ الرجولة وأخلاقها بنا نحن البنات. ماذا تتوقع ممن تفتحت أعينهن و قلوبهن على احمرار خدود منى توفيق حينما يقترب منها أدهم و يكتفي باحتضان كفيها،فقط كفيها؟ و حينما تتجرأ وترمي هي نفسها بين يديه يبعدها هو بنبل عوضا عن أن ينتهز الفرصة. ااه أفلا ترحمون عزيز قلب حبّ؟

تعلمنا الدرس يا دكتور و كبرنا نبحث عن أدهم صبري. بحثنا وبحثنا دون جدوى. وكلما مر الوقت كلما ازددنا عنادا واشتياقا فتطبعنا بطباعه و تسلحنا بأخلاقه. ليرانا أشباه الرجال (مسترجلين). وأنا لا أنكر، فأنا و كثيرات غيري أكثر رجولة من ذكور كثيرين.

من صغرنا ومجتمعاتنا تلوح في وجهنا بكثير من الأفكار العطنة. تسكبها في ملعقات وترمي بها لجوفنا نشربها كارهات و نتجرعها مرغمات .وملعقة بعد ملعقة نألف مرارتها و تؤتي بمفعولها،فلماذا إذن تنصدمون عندما نتحول رجالا. أليست البنت بمائة رجل ؟ تمام، كبرت البنت وتخرجت بأعلى الدرجات. تفوقت التلميذة على أستاذها وصارت رجلا بحق. أكثر رجولة منه نفسه.أليس هذا ما أردتموه لنا من البداية كي ننول رضاكم وتختموا لنا شهادة تسمح لنا بالتجول في أرضكم!

أنهيت كوز الذرة واحتفظت به معي. لن أرميه في النيل. منذ قابلت منصورة لم أعد زبّالة.

ثم ما هو الحب؟ عمى اختياري و استغلال للظروف يا ترى؟ ثم أصلا هل يمكن حصره في تعريف واحد؟ أم يختلف باختلاف الأشخاص و طباعهم و نشأتهم وحالتهم؟ هل أرى الحب الآن كما كنت أراه من سنوات عشرة فاتت؟ هل الحب يُرى أم يُحس؟ الحب له طعم ولون ورائحة. قد يكون مرا علقما و قد يكون عسلا حلوا، ورديا حالما تتفتح معه أبواب روحك لتطل على جوانب في نفسك لم تعي وجودها قبلا، أو أسودا كئيبا يمتص طاقتك و قوتك كثقب أسود لا يبقي ولا يذر على روحك مهما صرخت واستنجدت.

للحب الصادق رائحة لا تخطئها الأنوف الزكية التي اعتادت الياسمين و العنبر، أو قد يكون كالمطر حين يعانق ذرات التراب. أما حينما يختلط الزيف بالوعود الكاذبة وتطفو على السطح حلقات من الخسة ،تغزو المكان رائحة نتنة تحيل حياتك جحيما.

هل للحب صوت؟ صوت منصورة يفوق حنان عينيها حين تداعب رضيعا. يا الله على جماله. نعمة أخرى تملكها و تفاجأني بها. كلمات رائعة غنتها لنا و تبعناها كلنا نصفق و ندندن ونردد. حتى الشارع انضم لنا في سيمفونية بديعة. تمام، إن تحررت أكثر من هذا سأطير. خفتت النار ولم تخفت حماستي. قمت وقد تركت قلبي معها.

لا أعرف كيف وصلت. كيف لم أرى أحدا أثناء قدومى! انتشرت الناس في الشوارع ولكني لم أر أحدا منهم. كنت خفيفة. أمسك بنفسي كي لا أتراقص ثم شيئا فشيئا أطير.

شعرت ببعض قطرات المطر تضرب وجهي. اكتملت لوحة الجمال. لاح سور البيت، تقافزت على درجات السلم ودفعت الباب الخشبي. يمتد المدخل لبضعة أمتار. كانت عمتي تخرج للجلوس هنا هربا من حر الصيف في المنزل المقفل.

أدرت المفتاح في ثقب الباب و أنا أدندن بالكلمات التي كانت تغنيها منصورة. وهناك لمحته متكورا في الركن على الكنبة القديمة و يغط في خفوت. حرامي؟ أراد أن يسرق البيت؟ ولماذا انتظر؟ اه لم يجد المفتاح في الباب فقرر انتظاري و نعس؟

ليس هذا وقت استظراف يا نجوى. سأتصل بمنصورة. يا سلام! منصورة ستأتي من آخر الدنيا لتوقظ الحرامي؟ ستغضب بالتأكيد و ستطلب مني أن (أسد وداني) ثم من الممكن أن يصحو قبل مجيئها و حينها ستسبني أنا.

- ثواني ميم أصلا معندهاش تليفون، عاوزة أبقي اسألها ليه أو اجيبلها واحد.

التفت للحرامي النائم

- تفتكر يا عمو الحرامى منصورة هتوافق إني أجيبلها تليفون؟

لم يبد أنه سمعني. هل أصرخ أم أوقظه برفق؟ أنا شخصيا لا أستلطف فكرة أن يوقظني أحدهم لأي سبب. اعتدت الإستيقاظ وحدي. ولكن أعتقد أن هذه الحالة تعتبر استثناء. هززت كتفي

- معلش مضطرة أصحيك ياعمو الحرامي.

اقتربت بخوف، و رفعت يدي المرتعشة أزعم هزه لكن أراحني هو و تقلب ليكشف عن وجهه.

- حسام!"

عودة مفاجأة لأرض الواقع. أتى أخي في زيارة مفاجأة و نام على الكنبة. امتدت يدي نحو جيبي أخرج هاتفي

- لازم رن على كتير.

- خمستاشر مرة حضرتك.

جفلت

- كنتي فين يا نجوى؟

وقف يتمطى وهو يفرك عينيه. فعلا أكثر من خمسة عشر اتصالا، مها أيضا راسلتني و كلمتني، ووفاء أيضا. لم أشعر بأي من هذا. عدت من شرودي على سؤاله المكرر بحزم أكبر

- أبدا خرجت بس من أول اليوم ولسه جاية.

لم يرد، تفحصني بعينه. طرحتي متسخة في عدة مواضع، قميصي قد تكرمش والجيبة كذلك. أما الكوتشي المسكين فلم يعد بني في بيج وإنما أسود في طين. اه مظهري ليس جيدا و يرسل رسالة خاطئة بالتأكيد

- كنت مع ناس صحابي.

تلعثمت. هرش رأسه و تنهد.عاد نحو الكنبة و ارتمى عليها، يبدو متعبا. هل فقد بعضا من وزنه؟ لم أره منذ..لا أعرف بالضبط. بعد أن ماتت عمتي طلب مني العودة للبيت لكني فضلت البقاء هنا علّ الريف يبطئ من نوبات جنوني.

في الحقيقة أنا من تتحاشى لقياه. وحينما يتصل بي أرد مرة وأتجاهله عشرة. اقتربت منه. اه فقد الكثير من وزنه. أشار لي بالجلوس إلى جواره

- أخبار شغلك ايه؟

هززت رأسي

- الحمدلله.

أحكم الجاكيت حول جسده فسألته

- تيجى ندخل جوة من البرد؟

نظر حيث أشير

- لا هنا كويس.

وقعت علبة صغيرة كانت بجانبه على الكنبة إلا أني لم ألحظها سوى الآن، التقطها و وضعها جانبه.تفحصني مرة أخرى

- انتي بردانة؟

- لا لا أبدا.

عدلت من وضع الجاكيت و شددت كمه أداري يدي. تابعني هو و اقترب مني حتى استشعرت الدفء النابع منه. أخذ يدي بين يديه

- لسه إيدك بتبرد زى زمان.

ابتسمت ولم أرد. مشى بيده اليمنى على باطن كفي

- انتي مش محتاجة تتكسفي من جروحك ومش محتاجة تداريها.

أشحت بعيدا

- كلنا بنغلط يا نون.

اه يا حسام لم تناديني هكذا منذ رحيلهما. تضائل صوته

- وأنا غلط لما مفهمتكيش ومستوعبتش إنتي عملتي كده ليه؟

رجفات متتالية تهز جسدي دون استئذان. لا بسبب البرد وإنما بسبب الذكريات التي يطرق أخي بابها بعنف.

- أنا كمان زيك كنت محتاج وقت عشان أفهمك.

أنا نفسي لم أفهم لمَ فعلت ما فعلت حين فعلته. بعدها بفترة ليست بالقصيرة أدركت لم اخترت أن أؤذي نفسي . عندما تفقد من تحب تفقد معه شعورك وإحساسك لتجد نفسك خاويا رخوا. أسألة كثيرة تطرح نفسها. لماذا تركوك ورحلوا؟ متى أصلا، تركوك ورحلوا؟ ثم كيف تبقى وقد رحل الأساس؟ أنت مجرد تابع لهم، صورة و امتداد. كيف بحق الله يرحل الأصل وتبقى الصورة؟ لمَ لم يحترق النيجاتيف بأكمله؟

- أنا بس مكنتش عارفة أعيش ازاى.

قلت بخفوت لم أدر إن كان سمعني. مهما توقعت و استعددت لرحيل من تحب ستنصدم و تنقلع عن جذورك حين يحدث الأمر. ومعي حدث الأمر كله بسرعة. رحلة عمرة لم تكتمل، سافرا و قضى الله أمره هناك. خواء.

فضاء مرعب يجتاح روحك ويحيلها فراغا مصمتا بلا طعم وبلا لون وبلا رائحة. لا شئ يستقر في معدتك. يتساقط الأشخاص واحدا بعد الآخر من عقلك. تلتهمك ظلمة أحلك من الظلمة التي واجهها ذا النون في بطن الحوت. و فجأة تفيق لتجد نفسك وحيدا في هذا الفراغ. تصرخ فلا تسمع صوتك وإن سمعته لا تتعرفه. تبكي فلا تستطعم ملوحة دمعاتك،ولا تشعر بها وهي تمشي في الأخاديد التي حفرتها في وجنتيك.

تتلفت بحثا عن أي أحد حولك فقط لتسأله هل ما زلت حيا أم مت مع من ماتوا؟ ولن تجد أحدا، لقد فقدتهم واحدا واحدا وقت كنت في فراغ ثقبك الأسود.لا تنطبق عليك لفظة على قيد الحياة. فأنت لم تعد مقيدا بها بأي حال. أنت فقط مقيد على لائحة إنتظار الموت. حتى هو أعطاك ظهره. لا أحد سوى نفسك معك الآن. و نفسك ستكون أقسى عذاب تخيلته .

تهرب منها إليها. تخلق هدنة فتنكسها لأن نفسك تعلم بأنك مخادع. و النفس لا تسامح الخائنين. تعاقب نفسك على ذنب لا تدري كنهه. أم تراك تدريه جيدا وتلتحف به مساء ثم تنفضه عنك في الصباح وقد نسيته؟ متلازمة ستوكهلم تتكون بينك وبين ذنوبك فتخشى أن تفارقها.

أو ربما تشعر بحنين لذنبك وتبدأ في سؤال نفسك ماذا وكيف ستكون بدونه وبدون حمله الذي يثقل على قلبك؟ ااخ الألم مرة أخرى.

أريد صلحا. فات الوقت. تغضب و تصرخ و تخمش وجهك. اه لقد شعرت بشئ. ماهذا؟ هو الألم، تجيب نفسك. هو الألم إذن الذي يشعرك بأنك حي لازلت. هو الألم الذي ينجح في جذب انتباه نفسك وإثارة سخطها. فليكن.

أنت وحدك تستحق أن تكون معك حتى تجتاز هذا الإختبار. لن يكون هينا ولكن ستجتازه. عزلت نفسي عن كل ما حولي ومن حولي. ولماذا أظلم آخرين كل ذنبهم أنهم يهتمون لأمري؟ أنا لا أتحمل

نظرات الشفقة ولا نظرات الذهول التي تعتريهم حين يقابلون نفسي الجديدة. اعتادوا على وجهي الصلب القوي و روحي الخفيفة المرحة و عقلي المتوهج بالذكاء.

عندما تعلن الحرب على نفسك تتحول كل تلك التناقضات التي تميزك إلى خلطبيطة بالصلصة. جستو نفسه لا يقدر على فك طلاسم مقاديرها. لا شكرا، أنا أولى بنفسي ونفسي أولى بي. "ثم إن كان في البعد راحة يبقي حي على الفراق!" و فارقت فعلا.

كان صعبا ولكن ليس بصعوبة مواجهتي لنفسي. و أخيرا رضيت عني وقبلت بمواجهتي و نجحت. اجتزت الإختبار ونجحت في عقد هدنة.

- ليه مترجعيش تعيشي معايا؟

سأل وهو يربت على كفي. الهدنة التي عقدتها لم تشر لإمكانية البدء من جديد هي فقط سمحت لي بالمتابعة دون النظر للوراء.

تركت يوما كوب القهوة الزجاجي الصغير في حوض المطبخ. وكانت حنفية المياه بحاجة إلى ضبط، فمهما أدرته لأمنع تسرب المياه عاندتني و تسربت محدثة صوتا رتيبا في أرضية الحوض. بونج بونج بونج نسيت الكوب لبضع ساعات و حينما كنت مارة بالصدفة وقعت عيني عليه لأجده ناصع البياض وقد زالت بقايا القهوة الكثيفة دون أي مجهود مني.

مثل فنجان القهوة أرواحنا، تعلق بها شوائب تتكاثف و تتكوم حتى تظن أن زوالها بات مستحيلا ولكن مع الوقت سيعود كل شئ كما كان. فقط اصبر واعط نفسك كل الوقت الذي تحتاجه.

- مش هينفع.

زفرت بيأس و دموعي الساخنة تبلل خدي

- ليه يا نون؟ انتي خفيتي خلاص و اتعلمتي و رجعتي بنفسك لنفسك و..

قاطعته

- أنا خايفة!

يكمن الخطر في الإختبارات التي تضطر فيها لمواجهة نفسك أنك خسران يا ولدي خسران. أما إن كنت على دراية معقولة بكينونتك فسيمنحها هذا تفوقا كي تسد الطريق على حركاتك ومناوراتك. و إن كنت جاهلا بقدراتك فأيضا سيمنح هذا نفسك الحرية الكاملة للعب بك كقطعة الشطرنج.

الحرب نهايتها واحدة. لتنجح في حرب مع نفسك يجب أن تذوق مرارة الخسارة أولا. حينها فقط ستثق بك نفسك لتستعيد زمام أمورك.

أحاطني بيده و تركت نفسي على راحتها في حضنه تفرغ كل التوتر و الإرتباك و الخوف و القلق

- أخوكي هنا.

طبطب على كتفي

- جنبك هنا.

اه حدث ما كنت أخافه. أنا طرت. من الفرحة طرت. جاء أخي في وقته، دائما في وقته. أتى بعد أن ظننت أنه يأس مني

- افتكرتك فقدت الأمل فّي خلاص.

لكزني معاتبا

- الجسر ممكن يموت لما نبطل نعدى من عليه عشان نوصل لبعض ، لما كل واحد يفضل واقف في مكانه ومصمم و متشبث بموقفه مش راضي يقابل الي قدامه في نص الطريق ، هنا فعلا الجسر للأسف ممكن يموت.

تنهد وضمني

- وأنا عمري مابطلت أعدي الجسر عشان أوصلك, وعمري ما هبطل.

سكنت في حضنه رافضة التحرك

- بصي هو إحنا اخوات وكل حاجة بس لو حد رشق عينه من ورا الباب فده فعل فاضح على الكنبة في المدخل.

ومن قلبي ضحكنا معا.

اتفقنا على أن يمنحني حسام مزيدا من الوقت حتى أتأكد مما أريد. وحتى "ألاقي نفسي." مثلما قلت له. وعدني بأنه سيدعم قراري وبأن بيته هو بيتي و سيبقى مفتوحا لي ليوم الدين. سألني عن أخبار المنحة

- لسه نتيجة المقابلة مظهرتش.

غمزت

- بس أنا جتلي موافقة من حتة تانية وخلاص كده كده مسافرة.

نظر لي مستفهما فحكيت له عن حلم اليوم. ضحك و ضمني إليه

- بابا وماما فرحانين بيكي وأنا كمان."

هززت رأسي في فرح

- مبروك يا نون، أنا واثق في نجاحك من الأول، طول عمرك لما بتحطي حاجة في دماغك يبقي عليه العوض.

لكزته في كتفه

- يا سلام ياخويا!

- وحياة عيلة عبسلام!

- اسمها وحياة السلام يا أهبل.

قطب حاجبيه في غضب مصطنع

- بنت! عيب أنا أخوكي الكبير.

رفعت حاجبي الأيسر لأغيظه

- جايبلي ايه في العلبة دى؟

أمسَكَها

- ومين قال إنها ليكي أصلا؟

- انجز و هات.

ضحك ومد بها إلى

- عارف إنه..

شهقت

- الله فانوس!

تقافزت حوله كقرد صغير. وفشلت كل محاولاته لإعادتي لعقلي. قلت لكم أنا طرت.

19

بِلا حُدود

التاسعة صباحا. أحمل سبت الغسيل بيدي اليسرى و أسنده على جنبي كما كنت أحمل بنت حسام الصغيرة. وضعت كتابا و تفاحة أعلى السبت. ومقشة في اليد اليمنى. بالتأكيد لن أستخدم الدرج.

نزلت بالمصعد للقبو في الطابق السفلي. في بادئ الأمر كنت أخاف من النزول وحدي حيث كان المكان هادئا جدا. بعدها وبعد أن تعرفت على أركانه،و اعتدت على الوجوه و ألفتها أصبحت آتي في أي وقت من النهار أو اليل.

القبو بالأسفل مقسم لثلاثة أجزاء، الأمن و عمال النظافة و حجرة الغسيل. غرفة الأمن مغلقة.

مررت بعربة النظافة وتوقفت لأعيد المقشة التي استعرتها لأكنس غرفتي. ثم تابعت طريقي لغرفة الغسيل. وقعت عيني على الجدران الملونة و المرسومة برسومات جميلة. فتيات سترونج من قمن بطلائها الخريف الماضي في يوم جميل تخللته الكثير من الضحكات و الأيس كريم.

ماتيلدا عضوة في لجنة سترونج. كل بيت سكني في الجامعة له لجنة خاصة من طلابه تهتم به وبشؤنه. تنظم التجمعات و الفعاليات والرحلات.

الخميس الماضي نظمت فتيات سترونج رحلة ترفيهية للملاهي. استمتعنا بنصف يوم من اللعب والجري. تنافس البيت كله في ساحة الليزر تاج. نفس فكرة الطلقات المطاطية أو طلقات الطلاء ولكن أقل ألما.

دخلنا إلى حجرة مظلمة نرتدى فيها الخوذات على رؤسنا و فورا يبدأ المرح. لا أذكر من فاز ولكن أذكر أني استمتعت كثيرا.

تقوم اللجنة بجولات تفقدية في المنزل و تطلب أثاثا إذا ما لاحظت نقصان أو عدم صلاحية كرسي ما أو طاولة. أيضا تتفقد المطبخ و تجرد الموجود و تطلب طقما جديدا من الأواني أو الملاعق.

كذلك كل منزل في فاسار يسكنه أمين أو مشرف. أستاذ أو أستاذة يتقدم للسكن بالمنزل و يتم اختياره كفرد أمن شرفي. إذا ما كانت هناك شكوى لم تتمكن اللجنة من حلها أو شعرت بمماطلة من الجهة المعنية يقومون بمراسلة الأمين، ومع القدر الكافي من الإلحاح و (الزّن) يتم تنفيذ ما يرغبن به بنجاح.

أيضا في آخر جمعة من كل شهر، ينظم الأمين تجمعا في البهو الرئيسي للمنزل. قد تكون أمسية ثقافية تتجمع فيها الطالبات لمناقشة حدث ما أو قضية دائرة.

مثلا الشهر الماضي تجمعنا لنتكلم بخصوص الأفريقي الأسمر الذي يسكن في بوكيبسي ويعمل سائقا لدى إحدى شركات النقل الخاصة. تم إيقافه و التعرض له بعبارات عنصرية و مضايقات عرقية من قبل الشرطة. وهذا تزامنا مع تعرض مجموعة أخرى للتهجم والتعنيف التعسفي من قبل شرطة بالتيمور. امتد ليشمل تراشق بالحجارة وتكسير للمحال وعربات الشرطة نفسها.

انقلب المجتمع الطلابي في فاسار و دشن طلاب الدراسات الأفريقية بالتعاون مع طلاب السياسة و الإقتصاد حملة مناهضة بعنوان " الأرواح السمراء مهمة".

هاجمت الحملة تصرفات بعض أفراد الشرطة غير المقبولة و وزعت ملصقات و خرجت بمسيرات في الحرم الجامعي و امتدت لشوارع بوكيبسي حيث انضم لها المحليون.

وعلى موقع الجامعة قامت مجلة فيزا بنشر فيديو للواقعة التي توضح مدى عنصرية الحادث و علق مجموعة من الأساتذة عليه. طلاب فاسار لم يكتفوا بهذا وإنما قاموا بمراسلة زملائهم في الجامعات القريبة و طلبوا منهم الإنضمام للحملة. و بالفعل اتسعت رقعة "الأرواح السمراء مهمة" لتصل إلى الجامعات في المقاطعات المجاورة مثل نيو جرسي و كارولينا الشمالية.

طلبت لجنة سترونج إضافة مجففا جديدا في الركن الخالي من الغرفة. أحيانا ما تتكدس الغرفة يومي السبت والأحد بكومات الغسيل،واحتراما لوقت الطالبات فقد طلبت اللجنة مد البيت بمجففا آخر ليصبح المجموع خمس غسالات و خمس مجففات عملاقة. الغسالات الخمسة ليست مشغولة فاخترت الأقرب لي. أفرغت الملابس ووضعت المسحوق. واخترت البرنامج.

اتجهت نحو الدارة الإلكترونية في الجدار المقابل. أدخلت البطاقة الممغنطة و أعطيت أمرا على أن تقوم الآلة بسحب دولارا و نصف لدورة الغسيل. تم قبول الأمر.وفورا سمعت صوت الغسالة تبدأ دورتها. الغسالات مصممة لدورة تستمر نصف ساعة. بعدها تخرج ملابسك وتضعها بالمجفف لمدة ساعة آخرى.

أحيانا ما أضع غسيلي و أخرج للقيام بمشوار. أو أقوم بتنظيف غرفتي ريثما تنتهي. أحيانا أخرى نذهب للقلعة. هذه المرة أخذت كتابا لأنهي القراءة الإستباقية التي علي القيام بها لصفي.

ولكن أولا سأحادث الأهل هناك في المنصورة. فتحت اللاب و ضغط زر الاتصال وانتظرت. أخرجت تفاحة أقضم منها. فوّت الإفطار اليوم لأننا اتفقنا على تناول الغداء في مول بوكيبسي الكبير خارج الجامعة. رنين ...

- أهلا يا نون!

قالت سلوى أختي ولوحت بفرح. أرسل لي حسام قبلة

- عاملة ايه؟

- قولي باي لعميتو.

قالت زوجة أخي وهي تمسك بيد بنتها الصغيرة. سلمت على الجميع ودرت بعيني

- بتدوّري على حد؟

أتاني السؤال من عيون خضر تطل علي بمرح. هاه الكل هناك. ابتسمت في راحة

- متجمّعين عند النبي يا اخواننا.

****

أنهت الغسالة دورتها و قمت بنقل الملابس للمجفف. أتت بعض الطالبات لوضع ملابسها. سلمت عليهن وعدت لمكاني بالخارج.

كنت قد أنهيت كلامي مع أسرتي. الجميع هناك اليوم. حسام و سلوى ومنصورة. عزومة غداء حضرتها زوجة أخي. طلبت من حسام ألا يترك منصورة و بأن يتناولا الغداء معا على الأقل مرة واحدة في

الأسبوع. وعدني اخي الحبيب وأوفى بوعده. سلام على من إذا وعد أوفى و من إذا حدّث صدق ومن إذا خاصم ستر. هييح! تعلمك الغربة أن تكون رومانسيا.

خارج غرفة الغسيل. توجد مساحة واسعة بها طاولة كبيرة و عدة كراسي جلدية مقشرة و لكنها مريحة و أريكة كبيرة أمامها طاولة أخرى صغيرة، وتلفزيون.

أتت فتاة لتأخذ بعض مكعبات الثلج من ماكينة صنع الثلج على يميني. هناك أيضا أربع أو خمس ماكينات آلية لبيع البسكويت والشيبسي والأيس كريم والمشروبات الغازية. تقبل الآليات الأوراق والعملات النقدية كما تقبل رصيدا من البطاقة الجامعية الممغنطة.

اه لا بأس من شراء البسكوت و العصير. استرحت على الأريكة، أخذت بضع رشفات من العصير وفتحت الكتاب في يدي .

****

جرى سمير نحوي عندما رآني

- عيد ميلاد سعيد يا نون!

احتضنته

- شكرا يا كتكوتة نون!

- هل تلقيتِ الكثير من الهدايا؟

ضحكت

- نعم لكن أتدري ما هي أحلى هدية ؟

نظر لي في فضول

- حضنك النونو.

طبطب علّي في حنان آسر.

- تأخرتِ خمس دقائق كاملة.

قال أديتي بحاجبين معقودين فأجبته بالهندية كي أنال رضاه

- أعتذر يا مستر كان عندي غسيل .

فضحك. أنا لا أفوت درس الهندية إلا للشديد القوي فعلا. فما أتعمله من أديتي يتخطى الحروف و قواعد النحو. وجوده معي يشعرني بالأمان. (مطرود) آخر يضيف لي و يؤنس غربتي و يروضها.

عندما ننتهي و يكون هناك فائضا من الوقت أسأل أديتي عن قصة تعارفه وزوجته عائشة. سمعتها مائة مرة و لازلت أسأل. وكل مرة يحكيها أديتي بنفس الشوق والحب.

تعرف أديتي على عائشة في إحدى مواقع التواصل الإجتماعي الخاصة بالهند. بدآ بالمراسلة حينما كانت عائشة تسأل عن عنوان مركز ما لتعليم خطوات الرقص الهندية. ومن أكثر دراية بالعناوين من أديتي؟ كانت قد أتت من باكستان لتقضي أجازة الصيف عند خالها بالهند. يسكن خالها على الحدود في منطقة كشمير الجبلية المثلجة.

- توجد كشمير في الهند وكشمير في باكستان و عائشة واحدة و أديتي واحد هنا وهناك.

يقول أديتي كما تردد عائشة على مسامعه دوما. يكمل أديتي

- كنت وقتها هنا في أمريكا وكانت هي في الهند.

لا علم كيف أو لماذا توطدت العلاقة ؟ ولكن هكذا الأرواح المتآلفة لا تهتم للسبب وإنما كل ما يشغل بالها النتيجة. والنتيجة معروفة: القُرب.

بعد شهر واحد من حديثهما و تعارفهما، فكر أديتي في العودة إلى الهند كي يقابلها عند خالها ولكن أجازتها كانت قد انتهت. هل ينتظر للصيف القادم؟ يوطد علاقته بها ويعرفها أكثر ثم يذهب لخطبتها. ولكن ماذا سأعرف أكثر؟ كل ما أعرفه هو أني لا أبدأ يومي دون محادثتها ولا أختمه حتى أسمع صوتها يتمنى لي نوما هانئا.

وفورا سافرت لباكستان لخطبتها. أرحت يدي على قلبي

- اه ووافقوا. وعشتم في تبات ونبات وخلفتم سمير وفي انتظار البنات.

هز رأسه بابتسامة

- على العكس تماما، رفضوني.

ماذا؟! كيف ولماذا؟ انهلت عليه بالأسئلة فضحك. أهلها قلقون. أولا: لايريدون تزويج ابنتهم من هندي. و ثانيا: لا يريدونها أن تعيش بالهند.

- ولكن أنت لم تكن في الهند وقتها.

أومأ موافقا

- بالضبط ولهذا..

رفع ثلاثة أصابع أمام وجهه

- وثالثا: يرفضون رفضا باتا أن تعيش ابنتهم مع هندي خارج الهند.

للأسف استهلكت أجازتي في محاولات عديدة لإقناعهم والتي قوبلت كلها كذلك بالرفض. عدت إلى أمريكا وكلي إصرار على ألا أيأس. و قررنا أن أنزل الأجازة التالية لأقابل خالها في الهند. والتالية لأهلها في باكستان. و الثالثة للهند. والرابعة لباكستان. والخامسة للهند.

- خمس سنوات وخمس أجازات أقضيها بين الهند وباكستان وأخيرا فزت بها.

يتنهد أديتي في راحة كأنما للتو أنهى عدوه بين البلدين. وكل هذا لأجل الحب؟ أسأله في هيام

- لم يكن حبا.

ماذا؟! وإن لم يكن انتظارك لخمس سنوات و (الشحططة) من بلد لآخر حبا فماذا يكون إذن؟

- ماعرفته وعشته معها، أنبأني بأن كل تلك المشاعر التي جمعتنا قبل رباط الزواج ذرة تافهة في كيان عملاق و مهيب.

اه يا أديتي إذن هناك حياة أخرى بعد الزواج؟ وحينما يظفر الزوج بزوجه، وينضمان تحت سقف بيت واحد، لا يقفل الباب في وجه حبهما مثلما يزعمون؟

وماذا عني؟ أما آن للضياع الذي أشعر به أنا أيضا أن ينتهي؟ حبيبي موجود أم ماذا؟ أعترف بأن توهاني خفت كثيرا و تضائل حينما وقعت أسيرة لعينيه السود. ولكني أخاف أن يكون هذا فخا و يكون التيه منتظرا و متربصا بي لازال.

- أديتي!

ناديته بتضرع

- نعم يا قصيرتي.

تلعثمت

- كيف.. كيف أعرف لو.. أني أحب؟

رفع رأسه نحو الرفوف العلوية الممتلئة بالبضائع المختلفة

- تعرفين أنكِ تحبين عندما تبدأين بسؤال نفسكِ هذا السؤال.

عقدت حاجبي

- أنا لا أمزح يا أديتي.

كان يقوم بترتيب بعض الكراتين على الرفوف وتوقف وغمز

- وأنا أيضا. بالمناسبة من الوسيم الأسمر الذي كان واقفا معكِ ليلة الأمس؟

وقبل أن أجيبه أتتني صوت رنة ففتحت هاتفي أتفقده. كان آدم قد أرسل فيديو على مجموعتنا الخاصة. فتحته و لم أقدر على النطق. لا يمكن أن يحدث هذا. هذه مزحة أخرى بالتأكيد. صرخت أنادي أديتي

- تعالى شوف بسرعة.

علّه يقرصني و يخبرني أنه ليس حلما. فتحت الفيديو لأجده امامي بابتسامته الساحرة و يتمنى لي عيدا سعيدا

- عيد ميلاد سعيد عزيزتي نجوى!

ويغمز

- أي شئ من أجل عيونك وعيون صديقي المصري.

- أديتي هل ترى ما أرى أم هذه تهيوءات؟

هززت ذراعه بحماس فضحك

- لا لا حقيقة، أعتقد بأني رأيت هذا الوجه من قبل؟

- جود لو بشحمه ولحمه! واااااو

كتبت ناتاليا

- معنا أحد المشاهير المتخفين يا سادة.

كل سنة وانتي طيبة يا نجوى.

كتب آدم وأرسل غمزة.

أرسل ابتسامة ووردة. سلمت على أديتي وقبل أن أخرج طلبت منه لاصقا قويا

- أريد أن أقوم بلصقه على الشباك.

قررت موجة الصقيع الإمتداد لأسبوعين آخرين.

- والرياح قوية يا أديتي، ووووووه!

قلت مقلدة صوت الرياح فضحك و أعطاني لاصقا رماديا قويا و أخبرني بأن أحيط به إطار الشباك الخارجي كي يحد من دخول الرياح.

- ماذا عن المدفأة هل بها عطل؟

سأل فقلت

- لا أبدا لكن لازلت أشعر بالبرد.

هز رأسه في تعجب

- اه من أفريقيا و أهلها!

نقدته ثمن اللاصق و اتجهت نحو الباب

- لحظة.

استوقفني

- هل عندكِ خطط للعشاء اليوم؟

هززت كتفي

- لا أعتقد، القلعة مع الشباب كالعادة.

- فلتغيري الخطة إذن، عائشة تحب أن تتعشين معنا اليلة، ما رأيكِ؟

- اه أكيد أحب طبعا .

- تمام سأمر لاصطحابكِ من أمام سترونج، لنقل في السابعة؟

أومأت برأسي

- لكِ أن تصطحبي فردا آخر يكون +1 خاصتكِ.

تنهد

- اه سأريحكِ من عذاباتك وأختاره بنفسي.

حك رأسه في تخابث

- فليكن ذلك الشاب الأسمر. موافقة؟

وغمز لي فعقدت حاجبي

- ماذا! فقط أريد التعرف عليه والترحيب به.

هز رأسه في تتابع سريع مدافعا عن نفسه. تنهدت و لوحت بيدي في استسلام.

سلمت على أديتي و على سمير الذي عاد من اللعب بالثلج مع اصحابه في الخارج. دفعت الباب

- متأكد من قوة اللاصق؟

سألته بشك فمط شفتيه

- لو لم يقم بالنتيجة المطلوبة فالأسهل أن تتزوجي.

وضحكنا.

****

كنت سعيدة بالكتب التي اشتريتها. مررت على الكافيه بجانب المتجر وطلبت قهوة.

- مساء الفل، واحد قهوة أنا كمان ينوبك ثواب.

اه آدم ممازحا بالطبع

- متأكد إنك مولود في إنجلترا يابني؟!

أخذنا قهوتينا ومشينا. أخبرني بأن أبيه و أمه كانا يصران على الحديث بالعربية في البيت طوال الوقت، حتى لا ينسى هويته. أيضا وحتى وقت قريب لازالوا يتحلقون حول التلفزيون ليشاهدوا فيلم عربي مساء السبت.

- كمان كنا بننزل أجازات أنا وماما عشان نشوف جدى وستي، بس لما ماتوا أجازاتنا قلّت بس بننزل برده.

آدم ليس عنده اخوة. ولكنه نجح في تعويض وحدته بأن اكتسب الكثير والكثير من الأصدقاء من مختلف الجنسيات. أيضا أسرته على علاقة جيدة بالجالية المصرية في لندن.

- وعلاقتك بجود لو؟

غمزت

- هدّدته ولا عملت ايه بالظبط؟

ابتسم

- ما أنا كنت هقولك بس الكلام أخدنا.

أومأت له مشجعة

- البيت بتاع جدي وستي الي قلتلك عليه فاكراه؟ في سوري.

أومأت

- ده يا ستى الي اتصور فيه الفيلم.

سألت بذهول

- أي فيلم؟

فيلم أجازة الكريسماس الذي حدثني عنه تم تصويره لا في المدينة الريفية وحسب و إنما في بيت جده و سته تحديدا. وقتها كان جده وسته يسكنان في فندق قريب لحين انتهاء التصوير. وكانا قد أقاما حفلة ترحيب لفريق العمل حضره المخرج والسيناريست وكيت وينسلت و جود لو طبعا.

- بس وشفته يوميها وكان محتاج إستشارة قانونية.

ومن الحين للآخر كان يصطحب جده وسته لتفقد أجواء التصوير و يقابل لو إن كان موجودا و توطدت علاقتهما. هز كتفه

- وبقينا اصحاب.

- انت مش متخيل أنا بحب الجدع ده ازاى!

ضحك وهز رأسه في إقتناع

زلت قدمي فجأة واندفعت نحوه فأمسك بخصري يمنعني من السقوط. شعرت بأنفاسه الدافئة تضرب خدي برفق

- تمام؟

هل اتسعت عيونه السود أم كانتا دوما بهذا الاتساع؟ وكيف لكلمة واحدة بحروف أربع أن تبعثرني ثم تعيد جمعي هكذا؟ ت م ا م يقولها و كالعادة لا أرد.

هززت رأسي دون أن أنطق فأفلتني بهدوء ولكنه استبقى يدي في يده.

- عشان لو فكرتي تقعي تاني.

ضحكت بخفوت.

نظمت ماتيلدا مع لجنة سترونج رحلة لمركز التزلج في المدينة أجازة الأسبوع قبل الماضي. خرجنا بالباص الجامعي إلى ملعب الهوكي في بوكيبسي الذي يفتح ساحة تزلجه للعامة في غير وقت المباريات. وطبعا طلاب جامعة فاسار لهم خصم.

قضينا ثلاث ساعات تقريبا هناك، منهم ساعتين قضيتهما أنا على أرضية الملعب. هل تعلم أنه يمكنك التزلج وأنت لم تكمل الخامسة؟ صدقني أنا أعلم لأني لم أسلم من ضحكات كل الأطفال هناك.

- كنست أرضية الملعب من أولها لآخرها يا آدم ياخويا.

حكيت له عن خبراتي الفظيعة في التزلج وطبعا استمع لي بعين منبهرة وضحكات مكتومة.

مشينا نحو سترونج كي أضع الكتب التي اشتريتها ومن ثم نخرج للجالريا. كان الثلج حولنا آسرا. شردت في البياض من حولي وحينما التفت وجدت آدم يرقبني بصمت

- طبعا متربي في التلج ومش جديد عليك؟

هز كتفه

- بس أنا بحب الصيف أكتر.

تنهدت

- أنا بقى بحب الشتا.

بس انتي مش بتستحملي البرد أبدا.

غمز

- ده غير إنك بين كل خطوة و خطوة بتقعي.

رفعت سبابتي معترضة

- على فكرة أنا موقعتش من زمان.

ضحك و أخبرني بأن كازو حكى له عن الوقعة المشهورة أمام القلعة. أصبحوا يحذرون الجميع من تلك البقعة بسبب إنزلاقي أنا بها.

- شفت !يعني أنا بقدم خدمة جليلة للجامعة كلها.

- طبعا طبعا!

ضحك ومرر أصابعه بين شعره

- هو أنت مينفعش تبطل الحركة دى؟

عقد حاجبيه ومرر أصابعه في شعره بارتباك

- حركة ايه؟

ضحكت وأنا أقلده

- دي بالظبط.

هز كتفه في إستسلام

- مش عارف .بس ليه يعنى؟

غمزت

- هقولك بعدين.

لم يزح عينه عني فسألته

- اه على فكرة انت وراك حاجة باليل؟

نجح السؤال في إثارة انتباهه فشرع يخبرني بما كان يفعل ولكنني سرعان ما شردت ثانية

هز كتفه

- تمام جدا اعمل حسابك بقى انى عازماك على العشا.

ابتسم فقلت موضحة

- مش أنا بالظبط يعنى . أديتي الي عزمنا .

حكيت له عن أديتي و عائشة وعن قصة حبهما و كيفية تعارفهما.

- عارف فكرة الحب الي بيتخطى الحدود ده بتأسرني دايما، زى التلج والبراح الي قدامنا ده الي مالوش آخر.

رسمت إشارات وهمية بيدي

- بتخليني أحس إنه إنه..

تلعثمت وتوقفت أبحث عن وصف مناسب

- فيه أمل؟

- بالظبط!

ضربت يدي ببعضها في حماسة و أخذت أثرثر دون حساب.

أنا بحاجة لتلخيص الكثير من الخيبة والتيه في دقائق. الفقد وما يفعله بروحك؟ غياب الأمل والخذلان في مجتمع تشعر به وكأنك دائما ناقص. مهما علوت و كبرت و حققت مراكز علمية أو مادية أنت ناقص. لأنك لم تكمل المعايير التي يطالب بها المجتمع كي يمنحك المرتبة الشرفية و يدعك لتعيش في سلام.

بل يعلن عليك الحرب لمجرد أنك جرؤت وامتلكت أفكارا مخالفة له. أو يمكن لأنك قد امتلكت أفكارا من الأساس. تبعثر الأمل عندي وتحول إلى ألم فقط ألم. قلبي أنهكه الوجع وهدّه الحزن والخذلان. همست بوهن

- قلب مبيعيشلوش حبايب!

والخوف اه من الخوف.أحايله مرة "لنتصالح." فيخبرني "لا صلح مع من قلبه ضعيف." وأهدده مرة. "أسقطك من عقلي الآن." ليرد "إن أسقطنى من عقلكِ وقعت بقلبكِ." اللئيم يعرف بأن قلبي ضعيف." فلتبق في عقلي إذن محبوسا في ركن مظلم." أقول بصوت مرتعش تحاول أوتاره التمسك بحبال القوة فيقطعها هو ويضحك بتشفٍ يأنّ له قلبي "إذن اتفقنا على أني باقٍ." يكشف لي أسنانه الصفراء " ومع أول سقطة لكِ سأقوم أنا."

زاغت عيني تبحث عن مقعد قريب، أشار هو نحو واحد فاتجهنا إليه. أخذ كوب القهوة الفارغ من يدي. ذهب ليرمي بالكوب في السلة ، و ارتميت أنا على المقعد. اقترب و جلس بجانبي زفرت بيأس

- ميزتي ولعنتي في نفس الوقت إني بحس بكل صغيرة وكبيرة بتحصل للي حواليا،بنغمس في المشكلة الي قدامي بكل حواسي وبنسى مين صاحب المشكلة.

نظرلي باستفهام فتابعت موضحة

- يعني لما حد بحبه بيتوجع بتوجع أنا كمان. لو واحدة زميلتي حبيبها خانها مش بس هي الي بتتوجع، أنا كمان بتألم و بقفل على نفسي. و بخاف.

ضحكت بخفوت

- يمكن هي تخف و ترتبط تاني لكن أفضل أنا قافلة الباب على نفسي وخايفة يحصل معايا الي حصل معاها.تحولت لمغناطيس كبير يجتذب كل الوحش و كل الطاقة السلبية.

افتعلت ضحكة

- وكأني تسجيل حد رزل دايس بصباعه على زرار الإيقاف بتاعه.

لا أتحرك قدما نحو مستقبل تلوح منه نجاة، و لا أملك رفاهية الرجوع للماضي حيث أحن لذكريات ولّت ومضت تقفل باب العودة ورائها في عنف. الوقوف في مكانك شعور صعب جدا ومميت. ودون اختيار مني

تحولت وقفتي إلى مزار، انقلبت مقاما يتمسح الجميع به يلقون بحمولهم علي، يتحدثون فأسمع يحكون و يبكون فأطبطب و أواسي و يطلبون المشورة فأنصح ولكن بداخلي ألف دمعة وألف بركان يغلي بانتظار الفوران.

التفت لأجده يضمني بعينيه في عناق طويل

- كملي!

تنهدت باستسلام و فعلا أكملت،أكملنا معا. تحدث هو هذه المرة وأنا سمعت. أسأله فيجيب ويسألني فأجيب. لست أعلم ماذا من الممكن أن يحدث ولا ما الذي يعنيه؟ كل ما يعنيني هو أني أريد أن أتحدث معه و يسمعني، يتحدث إلى وأسمعه.

20

مـيـم

ارتفعت شمس أغسطس تخرج لسانها للشتاء الذي مضى. تلهب بآشعتها كل من راودته نفسه على الخروج لقضاء مصلحة أو مشوارا. لكن البقعة التي اخترتها ظللتها فروع شجرة عجوز كبيرة امتدت ظلالها لنيل المنصورة. استندت بظهري إلى الشجرة

- تفتكري الشجر لو بيتكلم هيقول ايه؟

التفتت نجوى التي أمسكت بكرتونة ورقية طبقتها على شكل مروحة لتحركها يمينا ويسارا أمام وجهها في محاولة يائسة لخلق موجة من الهواء و توقفت لحظات لتفكر

- أيا كان الي هيقوله فهو أكيد بلاوي.

اه محقة أنتِ يا نجوى. خلق الله الشجر و حرمه من الكلام لكن في المقابل منّ عليه بطول العمر. جذع هذه الشجرة التي نحتمي بها يتخطى المائة. أخبرني صلاح أن جده لأبيه كان يملك عربة دندورمة يقف بها هنا بالضبط.

- متبقيش متشائمة كده، أكيد زى ما شاف وحش فهو أكيد شهد على حاجات حلوة كتير.

هزت كتفها وعادت لتحرك مروحتها الصغيرة. متآكدة أن تلك الشجرة شهدت كثيرا من قصص الحب،عشرون أو خمسون أو خمسمائة لا أحد يعلم. ولكن أحب دوما أن أتخيل المحب وهو يحتضن يد حبيبته و يحتمي بها من مطر يناير أو شمس مايو تحت فروعها.

يعيش الشجر على الحب مثلما يعيش على الماء. فمع كل همسة حب صادقة تزهر وردة، ومع كل اختلاجة قلب تنمو وتترعرع . قمت أفتش في جذعها

- بتدوري على ايه؟

- بدوّر على دليل.

قامت نجوى تتبعني بعينها، تبحث هي الأخرى

- طب قوليلي بس بندور على ايه؟

- اهوه!

صرخت بحماسة وأنا أشير للقلب المحفور. اختبأ تحت لحاء الشجرة العجوز و غطاه التراب و فضلات العصافير. مسحته بأصابع مرتعشة، أحاول تبين الحرفين اللذان كتبا بداخله. اقتربت نجوى

- حرف عين و ..

توقفت تحاول تبين الحرف المراوغ الآخر الذي يأبى الخروج من مخبأه

- تقريبا ميم.

- عمرو و ميادة؟

- وليه ميكونش عزيزة ومراد؟

- مراد أفندي وعزيزة هانم.

أومأت منصورة موافقة

- مراد كان بيدرس في المهندس خانة و مستني يتخرج عشان يتقدم لعزيزة.

مطت شفتيها

- بس عزيزة أبوها راسه وألف سيف إنها لابن عمها العطار الي هيراعي عطارة عمه ويخلي بابها مفتوح طول العمر.

عقدت حاجبي في عناد

- مراد مش عيل تافه، حاول مرة واتنين وعشرة.

- بس أبوها برده مش موافق وخلاص حدد معاد كتب الكتاب والدخلة الخميس الي جاي.

اه دائما الخميس القادم و دائما هناك من يعرقل القدر و النصيب. ولكن لا.

- مش هيحصل، مراد وعزيزة اتفقوا انهم يهربوا و ويتجوزوا.

- لا إنتي بنتي ولا أنا أعرفك، امشي اطلعي بره بيتي.

قالت نجوى مقلدة صوت الأب و ضحكت. لكنني لم أضحك. التقطت بعض حصوات من تحت الشجرة و رميتها بسخط في النيل أمامي. طلبت منها أن تسد أذنيها فترددت للحظات ثم أذعنت.

سببت كثيرا محاولة السيطرة على غضبي. اه أرغب بصفعها. ليس معنى أن قصتي لم تكتب سطورها ولم تخرج للنور أن قصص العالم أيضا لابد وأن تكون فشلت. إن فشلت أنا فلينجح العالم على الأقل.
اقتربت نجوى في تردد فهتفت بها

- مش لازم تعقّدي كل حاجة ومتكمليهاش.

توقفت مكانها

- مستسلمة و ضعيفة حتى في أحلامك؟

هاجمتها. نكست رأسها و تسارعت أنفاسها، تحاول السيطرة على انفعالها و لكن يبدو أنها فشلت ، رفعت بعينيها نحوي

- أنا بقولك واقع الدنيا إنما انتي بتحكيلي فيلم أبيض وأسود.

دفعتها في كتفها فارتدّت خطوة

- إنتي بتقولي واقع يخصك انتي.

تابعت بقسوة

- عشان كده انتي لوحدك لحد دلوقتي، عشان رافضة تشوفي واقع غير السواد الي في دماغك. ابوكي وامك ماتوا؟ ما كل الناس دي مات لها ناس. الي مات له ابن أو أخ أو أخت أو زوج أو حبيب أو صديق. ثم ما كلنا على بعضنا هنموت. حبيتي واتسبتي، أو لسه بتدوري على الحب؟ اتفضلي في الطابور. حواليكي خداع وخيانة و وجع؟ ما كلنا في الطين ده.

صرخت

- مش أنا الي لونت السواد ده، هو الي فرض نفسه و أنا..

- وانتي قلتيله أهلا وفتحتيله الباب.

صفقت أمام وجهها بغل

- لا والله برافو على الواقعية.

أزاحت يدي

- أنا مش سوداوية ولا نكدية ولا بحب الوحدة، محدش بيحب الوحدة لكن أنا بخاف من اللّمة المغشوشة.

- اه حجة البليد.

نظرت لي بعينيها البنية، أرى فيهما موجة دموع تجاهد كي لا تغرق وجهها. تعالى لهاثها

- انتي بتهاجميني ولا بتهاجمي نفسك؟

سألت بغيظ فضحكت

- وأنا ه...

قاطعتني

- أيوة بتهاجمي نفسك وبتقولي الكلام ده لنفسك عارفه ليه؟

سألتني فلم أجب ،راقبتها تحاول السيطرة على أنفاسها المتلاحقة

- عشان انتي الي لوحدك مش أنا.وانتي الي في الشارع مش أنا.

و انفتحت البوابة أمام دموعها التي حبستها فأغرقت وجهها وخديها. ارتمت نحو جذع الشجرة تحتضنه علّها تجد فيه حنانا يطغى على قسوة الرصاصات والحصوات التي تراشقناها لتونا.

ترى لماذا خلق الله الحضن؟ وبهذا الشكل بالذات؟ تفتح ذراعيك وتمدهما في شوق ليرتمي حبيبك بينهما في إستسلام. تعد دقات قلبه و يكون هو أقرب ما يكون لضلوعك فتقفلها عليه كي لا يتمكن من الهرب.هششش ،أنت معي الآن . يبكي فتخرج الآهات منك و يسكن فتتنهد أنت. يتوقف الزمن و يخلو العالم من الجميع إلاكما ومنذ هذه اللحظة يصدر صك سماوي بتملك أحدكما للآخر.

جلست بجانبها أسمع أناتها ونهنهاتها. يكفي هذا. ناديتها فلم تستجب. استماتت أصابعها حول جذع الشجرة تأبى مواجهتي. زفرت و بقوة أكبر شددتها وفي حضني أخذتها. تركتها تفرغ دموعها دون أن أحاول تهدئتها.

تركتها تبكي بالنيابة عني أيضا فأنا بداخلي دموع متحجرة تأبى النزول منذ ذلك الشتاء الأسود ذو الأمطار الملتهبة. أدفع نصف عمري وأرتمي في حضن أمي،لأذرف دمعة واحدة. لا تحاول تهدئة من يبكي فقط اتركه لحاله، ولا تقلق عليه بشرط أن تحتويه وتضمه في حضن صادق. إن لم يكن الحضن صادقا فعدمه أحسن كثيرا لك وله.

استكانت ولكن لم تتوقف دمعاتها. اه من أين تأتين بكل تلك الدموع يا نجوى؟ طبطبت عليها أحاول تهدئة جرحي أنا.

- إنتي مش عايزة تسافري ليه؟

سألتها بخفوت فانهمرت دموعها أكثر. تابعت

- أنا عارفة إن الموضوع مش سهل بس انتي تعبتي على بال ما نجحتي، إنتي محتاجة السفر ده، لازم تلاقي نفسك.

ظهرت نتيجة المقابلة وتحدد السفر وفجأة أخبرتني بأنها قررت قرارا لا يقبل نقاشا بأنها ستبقى ولن تسافر. لماذا يا نجوى؟ الكثير والكثير من الأعذار الواهية. قلت مؤكدة

- لا انتي ضعيفة ولا انتي غبية. تنهدت

- انتي تايهة.

مسحت أنفها بكمها و تنحنحت محاولة استدعاء صوتها

- أنا حرة.

كتمت ضحكة أبت ألا تخرج

- ولا انتي بتستسلمي لأي حاجة حواليكي. ده انتي دماغك جزمة قديمة ما شاء الله!

سحبت نفسها من بين ذراعي في غضب طفولي و استندت إلى الشجرة فتابعت

- إنتي أكتر واحدة عارفة انتي محتاجة التجربة دى قد ايه.

لم ترد. زفرت بسخط

- وإنتي أكتر واحدة عارفة ايه نتيجة عدم سفرك.

زاغت عينها وحاولت السيطرة عليها بسرعة قبل أن تنفتح بوابات الدموع ثانية

- أنا مستقبلك الأسود الي انتي خايفة منه و بتحاولي تتفاديه.

التفتت نحوي بجزع فأشرت إليها بسبابتي

- و بإيدك انتي بس تخليه ماضي.

قامت و أخذت تدور كقطة صغيرة

- إنتي.. إنتي..

قاطعتها بحزم

- أنا صح. وعمري ماهقف أتفرج عليكي وإنتي بتتحولي شوية شوية لصورة تانية مني.

لم تتوقف عن الدوران فقمت و بمرح قلت

- يا بنتي دوختيني من القيام للقعاد، ولف ودوران، اتهدي بقى."

أخذت نفسا عميقا وواجهتني

- عاوزاني أقبل المنحة؟

أومأت بتأكيد

- يبقي تسيبي الشارع.

ضحكت

- وأروح فين؟ حد يسيب بيته برده؟

- ده مش بيتك. انتي هتقعدي معايا و هتشتغلي مع عم بلال.

ضحكت فرفعت سبابتها محذرة

- أنا مش بهزر.

بصقت واندفعت نحوها في خطوات غاضبة أضرب الحصوات في طريقي بغل فانكمشت القطة الصغيرة على نفسها

- على فكرة مش معنى إني بكلمك بالعقل و براحة تقومي تسوقي فيها. انتي كده كده هتسافري حتى لو حطيتك في شوال و شلتك على ضهري لحد المطار.

ومرة آخرى انفتحت بوابة الدموع.

****

مجنونة نجوى هذه! تطلب مني و بمنتهى البساطة أن أترك الشارع لأقعد معها. أنا أقعد في بيت وجدران و شبابيك و أبواب وكل هذا يقفل على؟ سأختنق قبل مرور دقيقة واحدة.

روح مشردة مثلي لا يقدر على إحتوائها بضعة قوالب من الطوب. هززت رأسي بعنف و زفرت

- مجنونة!

أوصلتها لعربتها التي كانت قد ركنتها في الجهة المقابلة من الرصيف . ركبت في مقعد السائق

- أول مرة أعرف إنك عندك عربية؟

عدلت من المرآة الجانبية وبفخر أوضحت

- أيوة دى أول حاجة حوشت وجبتها من شغلي، بس مكنتش بسوقها.

نظرت لها بتساؤل فنكست رأسها وهمهمت ببضع كلمات لم أتبينها.

- بتقولي ايه يابنتي!

رفعت لي عيون بنية مليئة بعناد طفولي

- مكنتش بسوقها قلت.

ضحكت ولم أتركها تفلت

- أيوة ليه بقى؟ كنتى مخلصة بنزين طول الشهور الى فاتت ولا ايه؟

تلعثمت

- لا.. أصلي كنت..

- هاه؟

قلت أستحثها

- خبطّ قطة!

أزاحت يدها عن المقود و فركتها في توتر وكأنها تشهد الحادثة لآن. سألت بدهشة حقيقية

- بجد! قعدتي تتمرمطي في المواصلات الكام شهر دول عشان قطة؟

- ايه هي مش بني آدم زينا ولا ايه؟

اندفعت متسائلة بغضب وحين أدركت سخافة ما قالته ضحكت و أضحكتني معها حتى تقطعت أنفاسنا أقفلت لها الباب وتنحيت من أمامها . شددت قبضتيها على الدركسيون

- على الأقل توعديني تفكري في الي طلبته منك؟

قاطعنا صوت كلاكس عالي متقطع لسائق غاضب يريد أن يخلص عربته من ركنتها ويبدو أن سيارة نجوى تضيق عليه

- سدي ودانك ثواني كده.

لم أجب تساؤلها القلق واندفعت نحوه أشمر عن ساعدي

- جرى ايه يا بقف ! يا ابن المتسربعة! ماتهدى في ايه؟

أكملت سبه كيفما تراءى لي فأغلق نافذته بسرعة مخافة من أن أجذبه منها هو و السنيورة التي جلست إلى المقعد الخالي بجانبه وقد نشبت فيه أظفارها من الخوف.

نادت علّى نجوى و لمحتها تحاول الخروج من عربتها فأشرت لها بالبقاء و عدت لها بعد أن توعدته بقطع لسانه وحشره في كابوت عربته إن شعرت بوجوده حتى.

أعدت هندمة ملابسي و ذهبت أهدئ نجوى التي كانت تتكلم و تشوح بيدها

- هشش خلاص اتنيلي اهدي انتي كمان. واحد حمار وكان لازم يتربى.

عدت بناظري إليه لأجده ثابتا في مكانه لا يتزحزح. ابتسمت بانتصار

- المهم كنتي بتقولي ايه؟

اندفعت بسرعة

- تيجي معايا. وإنتي قابلتي حسام و سلوى وهما عارفينك و

قاطعتها وأنا أشير لها بالمضي

- اه اه طبعا طبعا هفكر.

رفعت حاجبها في عدم إقتناع فأشرت بنفاذ صبر

- هووف يا نجوى خلاص قلت. عيب بقى، يلا الحمار عايز يطلع.

أزاحت قدمها عن الفرامل و تحركت وهي تضحك في جنون.

****

أنا يقفل علي باب و قفل ومفتاح، وجدران تضيق على أنفاسي و تسحبها مني وأنا نائمة لا حول لي ولا قوة؟ و أصحو لأجد سقفا يحدق بي و يمنع عني النجوم و السماء والسحاب والمطر والشمس و التراب؟ مستحيل طبعا. مجنونة نجوى هذه!

زفرت بسخط وتلفت حولي. لا رغبة لي في فعل شئ ربما أمشي قليلا أو أطل على صابحة. ربما أقابل صلاح أو الباز في طريقى. وعوضا عن هذا كله قادتني قدماي إلى ميدان المحطة.

ذهبت إلى فرشة عم بلال الذي تفاجأ عندما رآني وضحك فهززت كتفي

- عادي يعني كنت بتمشّى لقيتني جيت هنا.

- لا مش بضحك على كده.

نظرت له مستفهمة فأشار ناحية القهوة

- أصل المطاريد هناك.

عبرت الفرشة إلى القهوة في الجهة المقابلة و هناك على الطاولة وجدت الأستاذ و الشاعر واثنين آخرين لم أتبينهما، و حمو كان يغير حجر الشيشة.

تهللت أساريره حين رآني فأشرت له بالصمت، أريد أن أباغتهم. اقتربت في خطوات هادئة و سمعت عبد الحميد يلقي شعرا باستمتاع. يسحب نفسا من الشيشة و يلقي بيتا . يهز الأستاذ عكازه معجبا بما يسمع و ترتفع آهات الجالس إلى يمينه. وقعت عيني على وجهه الآن، اه إنه علّي ابن عم بلال الذي يدرس الطب ومعه شاب آخر لابد وأنه زميله.

أجمل مكان في الدنيا دى كلها

عاش هنا أجدادنا وفي التاريخ مجدها

تعيش لنا أسوان و يدوم لنا عزها

أسوان أسوان أسوان

يهلل علّي وصاحبه و يضرب الأستاذ عكازه.

- قلتلكوا أنا إني من أسوان؟

التفتوا متفاجأين

- والله أنا كنت عارف إنك هتيجي.

قال عبد الحميد

- كنت عارف أمال ايه صح يا جدو؟

ضرب الأستاذ بعكازه محييا

ضحك علي وقام من كرسيه يستقبلني في حب فبادرته

- ازيك يا دكتورعلوة، موّت كام واحد لحد دلوقت؟

غمزت فضحك و قدم لي زميله كما توقعت

- أبدا والله لسه، زميلي حسن معايا في سنة رابعة.

سلمت على حسن و لكزت علي في كتفه

- شوف الواد بيقولك لسه! يعني ناوي.

ضحك الأستاذ و قال الشاعر

- الأعمال بالنيات أمال ايه؟

- ياسلام ياخويا!

اعترضت فضرب الأستاذ عكازه

- إش فهمك إنتي؟ ثم مجبتيش نجوى معاكي ليه؟

رفعت يدي مستسلمة

- خلاص أنا آسفة! كان عندها حصص فمشيت. ثم النهاردة مش معادنا أصلا.

و زعقت على حمو

- واحد سلوم هنا يا حمو.

غمزت للدكاترة الشباب

- اوعوا تفكروا حتى. التدخين مضر بالصحة بس أنا مدرستش الكلام ده عشان كده هو مش مضر بالنسبة لي.

- حضرتك قلتي إنك من أسوان؟ منين في أسوان؟ أصلي أنا من هناك من منطقة صحاري.

سأل حسن بتأدب، قلت بشرود

- مش عارفة بس أمي قالتلى إنها قرية مليانة نخيل.

همّ بسؤال آخر فغيرت الموضوع بسرعة ووجهت حديثي للشاعر

- اه عشان كده بتقول شعر في أسوان؟

أطلق نفسا و سعل

- اه أمال ايه؟ أسوان دي جنة.

غمز للأستاذ

- رحتها في شهر العسل.

سعل و أومأ برأسه مؤكدا

- أمال ايه؟

طبعا أنا من أسوان. أينعم لم تطأها قدماي وإنما سكنتها روحي ولو لعدة ساعات حتى.

تكونت برحم أمي هناك. إذن هناك أصلي و إليها مردودي.

طبعا أنا لم أختر الفرار و ترك الأرض. أيضا لم يختار أبي وإنما أرغم. ترك كل شئ ورائه و سحب أمي تحت إبطه وهربا. هربا من موت إلى موت.

على الأقل دفنا سويا. دفنت أمي إلى جانبه. بحثت عن أخي ولم أجده. لن أنتظر. غسلتها و حفرت قبرها بيدي إلى جانب البقعة التي أشارت نحوها وأخبرتني بأن هنا قبر أبيكِ يا منصورة. تحت نخلة طويلة. علّها تسقط عليهما معا رطبا جنيا إذا ما هزتها أمي من قبرها.

لم يتوقف المطر كانت قطراته تلهبني ولكني لم أتوقف. لم أتوقف حتى لإسترداد أنفاسي وبالتأكيد لم أتوقف لمسح دمعاتي. لا أدري أيهما يلهب أكثر دموعي أم دموع السحاب من فوقي. لا يهم.

لففت جسد أمي الضئيل بملاية بيضاء مهترئة كنا نفرشها أحيانا و نتغطى بها أحيانا أخرى حينما يشتد البرد. انتهيت من الحفر و رفعت جسد امي أضمها إلى صدري. كانت دافئة لازالت. اه بردت من بعدكِ يا امي ولا تدفئني ألحفة العالم كله.

ماتت أصابعي على جسدها. أبت أن تتركها. حتى وأنا أواريها الثرى أهلت التراب وأنا معها في قبرها.غطى التراب وسطي. للحظة فكرت في أن أوارينا اثنتينا معا و لكن لمن أترك أخي؟ اه ليتني تركته.

انتهيت واستندت بظهري إلى النخلة أرقب التراب الذي استوى ورقدت تحته أمي. رفعت رأسي بحنق نحو المطر الذي يتساقط لازال. هل يبكي أمي؟ أم يبكينى؟ اه أكره المطر وأكره كل من يحبونه.

لم أقم حتى جفت دمعاتي. جفت تماما حتى شعرت بالجفاف يسري إلى روحي فيتركها جدباء لا أمل في ارتوائها. ومنذ تلك الليلة لم أبكِ. قرأت الفاتحة لأمي وأبي. و اتجهت نحو غرفتنا.

ساعة أو أقل قليلا و يشقشق الفجر. ولم يتوقف المطر بعد. توقعت أن أجد أخي نائما ولكنه كان بانتظاري خارج الغرفة

- خلاص؟

توقفت عن السير نحوه. كيف عرف؟

- انطقي دفنتيها؟

كان صوته خشنا قاسيا لم أعهده بهذا الجمود، أهي الصدمة؟ اقتربت منه أحاول ضمه بذراعي فدفعني بعيدا عنه

- كنتي عارفة من امتى؟

لم أفهم. دفعني مرة أخرى

- مش بعيد تكوني انتي كمان زيها؟

تلاحقت أنفاسي

- انتي لازم تداري على غلطتك، أنا لازم أرفع رأسي بين الناس.

ضم قبضته ولوح بها أمام وجهي المصدوم

- لازم كنت دفنتك معاها.

و أخيرا نطقت. كلمات متبعثرة لكنني نطقت وسألته عن مغزى الجنون الذي يهذي به. صرخ بي بأنه هو العاقل الوحيد بيننا. و بأنه لا خيار آخر أمامي سوى إصلاح غلطتي. أي غلطة أيها المخبول؟

لقد قتلت من لوث شرف أمنا و انتهك حرمة أبينا. ازداد هذيانه و صرخ بكلمات فهمت منها بأن أمي هي من باعت شرفها بنفسها من أجل حفنة أرز.

رفعت يدي أصفعه فأمسك بها بقسوة ألمتني و دفعني حتى وقعت على الأرض العائمة في بحر من الطين فتلطخت

- انتي وهي مكانكوا الطين.

زفر بغضب مجنون

- لازم تتجوزيه.

فتحت فمي في ذهول. أتزوج من؟ الغول؟ ألا زال حيا بعد ما فعلته؟ إذن أنا لست بقاتلة؟ اه لا أدري هل أشعر بالراحة أم بالخذلان؟ أنا لم أستطع الثأر لأمي. لقد عاش الغول وكتبت له النجاة.

أصبح غولا مشوها وأعورا فقد عينه اليسرى ولكنه أرسل الخفير لأخي يهدده بكشف سر أمه واخته. وبأن يرميني في السجن إن لم أمتثل لأمره. وبأن يرمي أخي كذلك بتهمة التستر على مجرم. من المجرم بالضبط؟ صرخ في

- قومي!

حاولت القيام فانزلقت في الطين. استندت على باطن يدي أحاول القيام، صرخت عندما آلمني إلتهاب يدي الدامي. مددت له يدي فأمسك بها و لواها حتى كاد يكسرها

-هتتجوزيه وإلا هدفنك مكانك.

ماذا! هل جننت يا اخي؟ تريد مني أن أتزوج قاتل أمي ومغتصبها؟ صرخت فيه فلم يسمع. أخبرته الحقيقة ولم يصدق. أين ذهب أخي الذي رفضت أن أدفن نفسي خوفا من تركه وحيدا؟ اه ليتني دفنت نفسي معها حين لاحت لي الفرصة. الآن مطلوب مني أن" أدفن نفسي بالحيا " كي أعيش.

أفلت يدي فصرخت ووقعت في الطين مرة أخرى. لم لا يتوقف هذا المطر اللعين؟ أمهلني حتى يطلع النهار.بعدها سيسحبني من يدي و يرميني له يفعل بي ما يشاء. دخل وأغلق باب الحجرة .و تركني فريسة لذهولي وصدمتي في الطين. أكره المطر وأكره كل من يحبونه.

جريت وجريت ولم أتوقف إلا بعد أن توقف المطر. المكان يبدو مألوفا لي. كما وصفته أمي بالضبط .كوبري القطار و النيل. كنت هنا من قبل. بلى كنت هنا حين اقتسم أبي وأمي تمرة سوداء واختار اسمي.

****

أفقت على جولة شعرية أخرى وتهليل من الدكاترة الشباب.طلبا منه المزيد و لكنه كان عنده استشارة مستعجلة. يريد دواء للأعصاب تقريبا. لم يفهم علي ولا حسن، فغمز وأشار نحوي خفية لأتبادل معه الأماكن. هززت كتفي وقمت أجلس بجانب الأستاذ

- مالك؟

سأل وهو يتفحصني

- ماليش!

قلت بسرعة وأنا أسحب نفسا

- ايه ده الحجر برد!

ناديت حمو بغضب

- جايبلي الحجر من التلاجة ولا ايه يا بقف انت؟

ضحك و أقسم بأيمانات المسلمين بأنه أمامي من نصف ساعة كاملة وحين سألني أن يغيره حينما أتى بالقهوة لجدو، أشرت له بطرف يدي دون أن أنطق.

أه لم ألمح القهوة. ترى أية مصيبة تخبئها القهوة السادة اليوم؟ زفرت

- طب معلش! لو سمحت يا أستاذ حمو سخن الحجر على النار شوية .

ضحك و استبدله بآخر وطلب مني أن أسحب نفسا كي أختبره بنفسي

- عيب ياسطى وأنا هكدبك برده؟

غمزت

- لو طلع بايظ هقوم أجيبك بنفسي من قفاك.

- مش بقولك مالك؟

سأل الأستاذ بنفاذ صبر. أمسكت بالملقط أسوي الحجر متشاغلة عنه

- مالي بس؟ ما أنا زى القرد اهوه. مالك انت بتجر شكلي ليه؟ عايز ايه هاه؟

نجحت التمثيلية في إقناعه فهز عكازه يمينا ويسارا ماطا شفتيه.سمعنا ضحكات الشاعر قليلة الحياء التي نعرفها عن ظهر قلب. يحاصر الشابين بحكاياته عن شهر العسل ولا شك.

- شوف صاحبك بيبوظ أخلاق العيال ازاى؟

هز كتفه وضرب بعكازه

- وانتي إش فهمك انتي؟

ضحكت

- بتدافع عنه طول الخط انت، ماشي يا سيدي.

سحبت نفسا من الدخان و أخذت أثرثر في أي هراء والسلام وفجأة نط من مكانه كمن لدغه عقرب .استوقفته فلم يسمع مني.كان يقفز لا يمشي.

التفت إلى كرسيه فوجدته قد نسى عكازه.لا يستطيع أن يخطو دون عكازه.أمسكت بالعكاز و قمت ورائه ولكني توقفت حينما رأيته يتجه نحو امرآة وقورة في الخمسينات من عمرها تقريبا لكن حمرة خديها كتلك التي نراها على وجه فتاة عشرينية.

اه إن كانت هذه البدر بهذه الحلاوة الآن فكيف كانت إذن في صباها؟ كانت ترتدي تاييرا رماديا مزينا بلآلئ سوداء. واسعا كان لكنه لم يتمكن من إخفاء تناسق جسدها البديع. متأكدة أنها في الخمسينات يا منصورة؟ تبدو أكثر صبا منكِ.

ارتميت على مقعدي والعكاز في يدي لازال. هززت كتفي واستمررت في تفحصها. تخفي وجهها بنظارة شمس وتمسك بيدها اليمنى مظلة. نقلتها إلى اليسرى كي تسلم على الأستاذ. تردد لحظة ولكنه حسم تردده وأخذ يدها في يده و قبل ظاهرها في إحترام وحب.

اعتدلت في مجلسي أقاوم رغبة ملحة في الجري نحوهما. أراهما يتحدثان الآن لكن للأسف لا أسمع ما يدور بينهما.قال لها شيئا أطرقت له في حياء فازداد تورد خديها. يا الله على تلك الخدود.

أشار لنظارتها فأزاحتها عن عينيها و حينما فعلت ارتد هو للخلف.فأمسكت به وكأنما تقيه السقوط.اه إذن كانت عيناها هي من تشبه السماء في ذلك اليوم!

تحدثت وهو يسمع دون أن تصدر عنه حركة واحدة ودون أن يزيح عينه عن عينيها. سألته شيئا ما فنكس رأسه و قبل يدها مرة أخرى و أخيرا تركها.

مر عم بلال بجوارهما لكنه لم يتوقف. اه لمَ لم تتوقف يا عم بلال ألا يشغلك هذا البدر الذي طلع ساعة العصرية؟ أعادت ارتداء نظارتها و أمسكت بمظلتها و مضت.

لم يتحرك . بقى واقفا في مكانه ينظر إليها. اختفت عن ناظري و ناظره لكنه لم يتحرك. هزني عم بلال فنقلت ناظري إليه ثم أعدتها للأستاذ وأشرت

- مين الي كانت مع جدو دى؟

- دي الست سميرة.

نظرت له بتساؤل غاضب فهز كتفه

- مراته!

وفتحت فمي في ذهول.

- لكن هو عمره ما قال إنه كان متجوز!

- هو مبيحبش يتكلم في الموضوع ده كتير.

- أيوة بس هو عمره ما قال إنه كان متجوز!

رددت مأخوذة وأنا أستعيد حادثة القهوة السادة الشتاء الماضي فهز عم بلال كتفه دون أن يرد.

****

كنت قد شاهدت فيلما قصيرا كانت تذيعه القهوة على قناة ناشونال جيوجرافيك. كان البطل يعمل بالإنقاذ. الإنقاذ النهري والبحري على وجه التحديد.قام تقريبا بإنقاذ مائة وعشرين حالة من الغرق. الملفت أن أكثر من النصف كانت بدأت كحالات انتحار.

ونكس المنقذ رأسه بألم حينما قال بأن حوالي ثلاثين حالة غرقوا ولم يستطع إنقاذهم. سأله المحقق الذي كان مسؤلا عن قصته

- وطبعا كل من عجزت عن إنقاذه كانوا من محاولي الإنتحار أليس كذلك؟

فهز المنقذ رأسه بالنفي القاطع

-على العكس تماما. من ماتوا لم يحاولوا الانتحار أبدا.

لست أذكر بقية الفيلم أو ربما قلبوا المحطة لإذاعة ماتش مصارعة. لست أدري لماذا تذكرت الفيلم الآن عندما رأيت الأستاذ مع زوجته التي ظهرت من العدم. ربما لأنه يذكرني بالغريق؟ و ربما لأني أنا الغريق. فالغرقى تتشابه أرواحهم و يتآلفون، صح؟

هل جربت إنقاذ أحدهم يوما ما من الغرق؟ ستتمكن من سحب الغريق فاقد الوعي نحو الأمان بمنتهى السهولة وكأنما تسحب ريشة. يمكنك أن تسحب ثلاثة فاقدين للوعي في دقيقة واحدة إن خصصنا عشر ثوان لكل واحد. ولكن إن كان الغريق لازال بوعيه فمن الممكن أن يُغرق هو ثلاثة على الأقل ممن يحاولون إنقاذه وخصوصا إن لم يكونوا مدربين على ما يفعلون.

وتفسيري المتواضع أن من فقد وعيه فقد الرغبة في المقاومة. أما مازال صاحيا فهو يقاوم باستماتة فإما يموت هو أو تموت أنت أو تموتا معا.

ولذا يلجأ المنقذون المحترفون لضرب الغريق الذي لا يمتثل لأوامرهم بالتزام الهدوء –ضربة غير مميتة بالطبع- ولكنهم يضربونه إما لتهدأته وإما لتشويش مقاومته ومن ثم ضمان السيطرة عليه فيتمكنون من إنقاذه و إنقاذ أنفسهم.

وهذه هي الحالة الوحيدة التي لا يموت فيها أحدا والتي لا تصبح الخسارة فيها كاملة. وللسبب نفسه فأنا أعتقد بأن أكثر من يتم إنقاذهم هم من حاولوا الإنتحار بإرادتهم بادئ الأمر. لا أحد يعلم ما مروا به أو ما قد رأوا بالأسفل. ربما رأوا الموت و تيقنوا من عدم إستعدادهم لملاقاته ومواجهته. أو ربما أدركوا أن الصعب الذي مروا به لا يقارن بصعوبة الغرق نفسه.

تفيد الدراسات بأن الغرق يقع على رأس قائمة الميتات البشعة و أصعبها. ليس بإمكانك أن تقف مكتوف الأيدي عندما ترى من تحب وهو يغرق.حتى وإن أردت لن تستطيع التجاهل.

إن أشحت بعينك بعيدا تشنجت عضلاتك وأعادتك قسرا و غصبا نحوه. أنت تحبه. أنت أخذته بين ذراعيك وتملكتما بعضكما و أمام الله تعاهدتما على البقاء. إذن فأنت باق إلى أن يجذب أحدكما الآخر نحو الأسفل. هو يشدك مرة و تجذبه للأعلى مرة. هو أقوى وجراحه مثخنة، تضعف أمامها وتأنّ فيشدك أكثر.

تعاود الصعود لسحب بعض الأنفاس التي تعينك على الحياة في الأسفل. و يشدك و يشدك حتى ينفذ الأكسجين وتنفذ قدرة عضلاتك على التحمل. تناشده أن يتركك فيرفض. سأذهب للأعلى فقط كي أتنفس وأعود لك فيرفض. أعدك بروحي أن أعود لأجلك فيرفض.

يشدك للأسفل أكثر وأكثر. لكن لا، أنت عنيد ومقاتل لن تسمح له بشدك ولن تسمح لنفسك بأن تنتهي معه. ستجذبه أنت للأعلى. تهزه بعنف فلا ينتبه. أنت تخنقني -تصرخ فيه- أيضا لا ينتبه.

استحال وجهك إلى الأزرق و روحك تخضبّت بالأسود، لا مفر. تضربه و توجعه، تلوح عليه الصدمة. اه هناك أمل إذن. توجعه أكثر وتقسو عليه أكثر فيتشتت ويتركك أخيرا لتتنفس.

اه أنت حر. تجذب نفسا عميقا و تحمدالله على نعمة الحياة ونعمة الحرية. أنت ترى الألوان الآن هي باقية بالرغم من عزوفك عنها. بعضنا ينسى وعده وقد تنفس الصعداء وبهرته الألوان على السطح. بعضنا يخاف العودة فلربما هي رحلة بتذكرة واحدة.

بعضنا يزهد المحاولة، من بالأسفل سيبقى بالأسفل. و قليل منا يسمح لنفسه بالمحاولة ثانية و بالنزول للأسفل مع أمل ووعد بالصعود. ولكن الألوان تلوح لك وتهمس،هي باقية وبانتظارك.تقطب حاجبيك في إصرار.لا، بانتظاركما معا.

تجذب نفسا أخر و بكامل إرادتك تنزل للأسفل ، مستعدا لجولة أخرة من الشد و الجذب. تجده مستكينا ونظره ثابتا نحو الاعلى. نحو النجاة. نحوك. أنت وعدته وسمعك. إذن كان ينصت حتى عندما كان يقاومك و يشدك معه للأسفل كان ينصت.

تقبض على يده فيتركها تستسلم ليدك. توجهه و تجذبه معك للأعلى لتتنفس عن كليكما نفسا عميقا تستشعر فيه حلاوة الحياة وحلاوة الصعود. وفيت بوعدك. نجوتما.نظرة التقدير والعرفان في عينيه تنسيك ملوحة المياه التي ابتلعتها. و مرارة الطعنات التي تسربت لرئتيك. الحب المستسلم والواثق في عينيه ينبئك بأنه قد ملّكّك نفسه ما بقي لكما من العمر. وحتى ما بعد ذلك.

قمت وفي يدي العكاز نحو الأستاذ الذي ظل مستندا إلى الجدار لا يتحرك. انتبه الشاعر من حديثه الجانبي و أتى مع بلال إلى صاحبه. وضعت يدي على كتفه من ناحية و عبد الحميد الشاعر من الأخرى.

أخذ عم بلال العكاز من يدي و رفع يده يمسكه إياه.لم يتحرك أي منا حتى خطا هو فخطينا معه.

وخطوة بخطوة كان يرفع همته عاليا و يتنفس و يعيش. أجلسناه على كرسيه برفق. أشار عم بلال لابنه بأن يقوم مع زميله. استئذنا في خفوت وانسحبا. وبقينا ثلاثتنا.

يدي على كتفه من ناحية وعبد الحميد من الأخرى و عم بلال يمسك بيده على العكاز. تنهد ودار بعينيه بيننا و ابتسم. اه يا لحلاوة ابتسامته. بالتأكيد ابتسم الأستاذ أمامي من قبل و ضحك وسعل و احمر خداه ودمعت عيناه ولكن هذه الإبتسامة مختلفة. إنها ابتسامته الأولى في حياته الجديدة بعد أن طفا على السطح و أبصر الألوان في خديها.

الست سميرة، المنقذ العنيد. منذ عشرين عاما وعدت بالعودة و عادت. وكان هو مستكينا ومستسلما بإنتظار يدها التي تسحبه وتشده إلى السطح. التفت نحوي

- قلتلك إني حاولت ومقدرتش.

أومأت في رهبة

- سميرة كانت أصدق محاولة قمت بيها. تعبتها كتير وهي تعبتني كتير. حبيتها بصدق وهي حبتني بصدق. أشدها مرة وهي مرة. نعمل هدنة و نرجع تاني. تاخد نفس وترجع تاني. أشدها وتشدني.

ضحك باستمتاع فضحكنا نحن كذلك كالمجانين

- كانت أكتر حد وجعني، وأكتر حد فوقني و ردني لنفسي. كنت صغير في نظر نفسي قوي. قلت لها أطلقك. إنتي تستاهلي أحسن كتير.

ضحك ثانية فضحكنا نحن أيضا

- قامت ضاربني حتة قلم..

وضع يده الحرة على صدره

- لسه معلم في قلبي لحد دلوقتي.

تنهد

- وبنفس الايد الي ضربتني حطيتها على بطنها مكان ما ابني أو بنتي بيتخلق، و ضحكت ضحكة بترن في وداني لحد دلوقتي.

ضحك وضحكنا

- عارفين لولا القلم ده ؟ كان زماني ميت لحد دلوقتي. القلم ده خلاني أدعي ربنا و أرجع أكلمه بأدب و بثقة وبإيمان تاني. و خلاني برده أقرر إني أبعد.

لم أفهم

- لكن انت قلت إنه فوّقك وإنك..

قاطعني موضحا

- حسيت قد ايه أنا صغير وهي كبيرة. عينيها كان فيها رجاء. كانت بتقولي أرجوك سيبني أتنفس وأعيش لابننا الي جاي. حسيت بقد ايه أنا تعبتها ووجعتها عشان كده قررت أوجع نفسي بإيدي.أشوفها من بعيد

لبعيد وأتابعها من غير ماتحس و أموت وأنا عايز أترمي في حضنها أو آخدها في حضني ومقدرش، لحد ماربنا يقبل توبتي.

ضحك وضرب بعكازه

- وربنا قبل توبتي النهاردة لما هي جتني.

سأل

عارفين أنا كنت بدعي بايه؟

سألنا كلنا في نفس واحد

- بإيه؟

ضحك

- بإن ربنا يمد في عمري لحد ماشوف أحفادي.

تقافزنا على مقاعدنا فرحين

- يعني.. يعني..

قال من وسط لهاثه

- أيوة. سميرة جت تعزمني على سبوع بنت بنتي الخميس الي جاي.

غمز

- وانتوا التلاتة معزومين يا أوباش.

ااخ يا جدو ااخ. إذن جدو أصبح اليوم جدو فعلا. ضحكت. أريد أن أخبر نجوى الآن. اه لو كان معي هاتفا. ترى من منا سيشد الآخر يا نجوى؟ لمَ أشغل نفسي؟ هل علي أن أنتظر عشرين سنة أخرى ليقبل الله توبتي؟ ثم من قال أني أذنبت أصلا؟ تم قبول توبتك بالفعل يا أستاذ وامتدت لتشملني أنا أيضا.

قمت فجأة و جريت نحو الفرشة أخبر عم بلال بأني سأعمل معه منذ الغد لا بل منذ الليلة. سأذهب لنجوى و سأقبل بالبيت وبالجدران وبالسقف. سأقبل بالأسرة قبل أن تمضي الفرصة. لن أشد نجوى معي للأسفل و إنما سأسلم لها يدي تجذبني كي أرى الألوان. سنوقع على هدنة أنا وهي.

و حدث الأمر فجأة. طرت حتى أني قرأت لافتة الدكتور وحيد عادل المتخصص في القلب والأوعية الدموية والموجودة عيادته في الدور الثاني. ثم زحفت لما يقرب العشرين مترا حتى وصلت لشحاتة حنفي للأحذية الممتازة. اه هناك خصما على حذاء قبيح من اللون الأحمر الفاقع. اللون يبهر عيني سأغمضها قليلا.

****

فتحت عيني وقد أرحتها للحظات ولكني لم أتمكن من معرفة قيمة الخصم على الحذاء الأحمر القبيح. أدرت عيني فلم أتبين معالم الشارع. هل أصبت بالعمى؟ اه لا أنا أرى جدارا أزرقا و .. مهلا هل أرى جدارا؟ وقعت عيني على الجبس الأبيض الذي يمتد من كعبي وحتى أعلى فخذي اليمنى. حاولت رفع رأسي فتأوهت. هرعت نجوى نحوي

- الحمدلله الحمدلله ! فاقت. فاقت يا حسام، فاقت يا عم بلال.

اه لمَ تصرخ تلك المجنونة هكذا؟ تمام، من الواضح أني كسرت رجلي ولكني لم أصب بالصمم.

- ما براحة يا نجوى! طب قوليلي سدي ودانك حتى يا شيخة.

بللت وجهي بدمعاتها. لاح عم بلال أمامي واقترب مني يطمأن على سلامتي.

أخبرني فعلا أن تاكسي صدمني و بعدها فقدت الوعي فورا. و أخبره الناس بأني من أخطأت فقد قمت مندفعة من القهوة للخارج .

- وراح فين البقف الي خبطنى؟

ضحك عم بلال

- انتي زى الفل الحمدلله. ومتقلقيش انتي مبطلتيش شتيمة طول ما كنتي مغمى عليكي.

شعرت بالخجل منه ولكنه أنقذني بسؤاله

- صحيح انتي كنتي جاية ورايا بتجري ليه حصل ايه؟

- كله من الست نجوى!

نظر حسام بفضول و قطبت نجوى في قلق، فغمزت وقلت لعم بلال دون أن ألتفت عنها

- موافق تشغلني معاك يا عم بلال؟

صرخت المجنونة و اندفعت نحوي تحضنني فصرخت من الألم و من وسط لهاثي قلت

- سدّوا ودانكم بقى.

21

رَجُل أَبْيَض وَآخَر أَحْمَر
ومَغنَاطِيس أسْوَد

السابعة مساء، في طريقي أنا لحضور فيلم وثائقي خاص بصف الدراسات الأمريكية. أنهيت عشائي في القلعة مع كازو و ناتاليا وكاوري وبعدها تركتهم ومشيت.

أصلا لم آكل ولكن ذهبت فقط كي أثرثر معهم قليلا. فكما أخبرتني زميلتي و أكد علّى أوتوي أن الأكل في الأمسية خاصتنا تم طلبه من مطعم جستو. وعندما سألت أوتوي في تخابث

- لكن أنت يابني لست معنا في هذا الكورس؟

هز كتفه

- وعدت توماس بالحضور.

ضحكت

- اه توماس بلّس ون إذن.

لم تحضر آن ولا ماتيلدا لانشغالهما بصفوف مسائية. آدم أيضا لم أقابله طوال اليوم. كان مشغولا بمحاضراته.

استضاء الحرم بنجوم السماء التي أطلت في عناد من وراء السحب لتضفي جوا رومانسيا على المكان كله. لسعة برد أخرجت بلسانها لتذكرنا بآخر أيام الشتاء.

آخر شتوية و آخر موجة برد وبعدها يأتي الربيع. أسبوع على الأكثر ونودع كل هذا البياض. توقفت قليلا آخذ صورة فوتوغرافية أحتفظ بها في قلب قلبي.

كاميرا الهاتف لن تحتفظ بتفاصيل الشعور الذي أشعر به الآن. ستكتفي بطبع خارطة لأبعاد المكان و طوله وعرضه و ألوانه. لكن الصورة لن تتضمن كّم الحنين الذي أشعر به.

فعلا سأفتقد هذا الصفاء والسكون. ترى هل سأراه مرة أخرى؟ أم سيكون هذا أول و آخر شتاء مثلج أشهده في حياتي؟ لربما إن تم قبولي في أحد برامج الماجستير أوالدكتوراة التي تقدمت لها في لندن، لفعلت.

و لكن الأمل يتضائل. لا أقصد أن أتشائم أو أي شئ فأنا إنسانة جديدة الآن لا مكان للفظة تشاؤم في قاموسي. كل ما في الأمر أن ثلاث جامعات من أصل عشرة قد أرسلوا بردهم و أبلغوني آسفين بعدم توافر مكان لي في برنامجهم الدراسي.

لطفاء الأمريكان و الأوربيون، لا يصيغون خطابات الرفض على أنها خطابات رفض و إنما يقلبون الموضوع و يتأسفون لعدم قدرتهم على استضافتك. أرغب كثيرا بالدراسة هناك بعد هذا الرفض الحنون. أخبرني أصحابي بأن هذا طبيعي جدا. يبدأ الطلاب هنا في مراسلة عشرات وعشرات من الجامعات و الشركات و المشروعات وغيرها حتى يتم قبولهم.

لا مجال لليأس. صديقي تقدم لأربعين جامعة و آخر تقدم لخمسة وثلاثين منحة. وآخرين وآخرين، هم مثل توماس إديسون ومصباحه الكهربي تماما.

سترايدر عندما سأل وأخبرته بتحرج

- ثلاثة من عشرة ردوا بالرفض.

غمز لي

- الأكثر دقة هو أن سبعة من أصل عشرة لم يردون بعد.

صرخ أوتوي بمرح وهو ينكزني في كتفي

زفرت بقوة وتابعت المشي. أتجه نحو مركز السينما في الجامعة. إلى جانب متحف الأحياء، يمتد مبنى كبيرا من طابقين. في الطابق الأول السينما والتي تتسع قاعتها لمائة وخمسين فردا. والطابق الثاني يضم قاعات دراسية للطلاب في قسم الإعلام.

لاح مدخل المركز و تعرفت وجوه بعض زملائي فانضممت لهم واتجهنا للداخل. الفيلم كما لخصته لنا مولي، يحكي بلسان قبيلة من السكان الأصليين وكيف تعرضوا لأصناف عديدة من خيانات و أخطار الرجل الأبيض.

امتدت طاولتان للطعام في صفين وطاولة أخرى للمشروبات الغازية. خرجت مولي من قاعة السينما. وقعت عيني أول ما وقعت على بطنها وقد زال انبعاجها. ولدت بنتا جميلة جدا أسمتها ديلاماي كما أخبرتنا.

أعلنت في أسف بأن هناك مشكلة تقنية يعمل مهندسي الإلكترونيات على حلها و بأننا لن نتمكن من دخول قاعة السينما. صدرت همهماتنا معترضة فتابعت بسرعة بأنه قد قامت وبمساعدة بعض زملائنا بإستغلال قاعة من القاعات الدراسية التي تحوي شاشة كبيرة للعرض.

ولكن سيكون علينا مشاركة المقاعد و الأرضية و إستخدام الطاولات و بعض قطع الأثاث الأخرى. لا مشكلة المهم أن لا يضيع علينا الفيلم. جزء من مشروع البحث النهائي سيعتمد على المعلومات المقدمة فيه. غمزت مولي

- وبما أننا لن نستخدم القاعة بإمكاننا ملء أطباقنا و أخذها معنا إلى الداخل.

- اه أكل و حملقة ،أحمدك يارب.

أنا جعانة جدا. وقفت في طابور الأكل. كل يملأ طبقه كيفما تراءى له و يتجه إلى الحجرة على اليمين. تململت في وقفتي. و أخذت أبحث بعيني عن نافذة أرقب منها الثلج

- بتدوري على ايه؟

- آدم! بتعمل ايه هنا؟

سألت بدهشة وأنا ألتفت لأواجهه. كان ممسكا بطبق ورقي ويقف في الصف إلى جانبي. ضحك

- واحد من طلابي عزمني وجيت.

- يا سلام!

قلت غير مصدقة، فغمز

- وكمان قال إن الأكل تحفة.

ضحكت. ملأنا أطباقنا واتجهنا للحجرة .معظم المقاعد تم شغلها بالفعل.

- روحي اقعدي هناك.

أشار آدم نحو مقعد شاغر

- وانت؟

دار بعينيه

- أنا هقعد على الترابيزة الي في الجنب.

هززت كتفي و تبعته. قرفصنا جنبا إلى جنب و بدأنا في أخذ لقيمات من المكرونة

- جميلة صح؟

سألته وأنا أقرمش بعض البطاطس المحمرة بعد أن غمستها في المايونيز. أومأ بابتسامة ومد إصبعه يمسح بقعة الصلصة في جانب فمي

- شكلك جعانة.

- مكلتش من ساعة الفطار. وكان عندي تدريس ومحاضرات و فيزا. يوم ملحمي.

قلت دون أن أتوقف عن المضغ فضحك. أنهيت قطعة المكرونة خاصتي فناولني باقي طبقه

- مش جعان؟

- هكمل فاكهة.

أعملت شوكتي في المكرونة و بعد دقائق كنت قد أنهيتها. رفعت رأسي أتفقد الحضور. اه أوتوي وتوماس هناك لوحت لهما. لم يتمكنا من تخطي الناس والقدوم لنا فتقاسما مقعدا بجانب الباب.

باقي خمس دقائق و يبدأ الفيلم. التفت عندما شعرت بعين تراقبني. كان آدم يرقبني في حنان يروي عطشي ويشبع روحي الجائعة. اه شبعت.

ذاك الحنان لم أسمح لنفسي باستشعاره و السباحة في فلكه مع أى أحد من قبل. عيناه تعملان كمغناطيس يجذبني و الأغرب أني لا أقاوم. ترى هل تعبت من المقاومة؟

هناك فترة تعلن فيها نفسك التمرد عليك وعلى كل محاولاتك للسيطرة على مشاعرك. تصرخ فيك أن كفى سيطرة. سنوات عمري الثلاثين تسألني بعناد إلى متى تهربين ومما تهربين أصلا؟

قبلا كنتِ تتحججين بأن لا وقت للمشاعر والحب. كيف أحب وأنا لم أعرف بعد ما الحب بالضبط؟ هل عرفتي الآن؟ ثم هل هناك سنة تخرّج للحب؟ شهادة مختومة تخبر الناس بأهلية حاملها و قدرته على ممارسة الحب؟

اعترفي يا نجوى أنتِ كنتِ تتهربين وحسب. لم تقابلي من يرغمكِ على مواجهة نفسكِ و فهم مشاعرها. أما الآن وقد وجدتيه يرقبكِ بعيونه السود فقد نسيتي كل شئ.

و كفرتي بكل ما كنتي تؤمنين به من سيطرة و تروي وتحليل وغيرها من الخزعبلات التي ساهمت في خلق الشرنقة التي أحطي بها نفسكِ. لسنوات طويلة كنتِ أنتِ المغناطيس الذي يجذب الأرواح المتعبة ليلقوا بحمولهم ومشكلاتهم على كتفك. يرموها بلا اكتراث و يبدأوا حياتهم مع غيركِ.

الآن تنجذبين أنتِ لمغناطيسه يا نجوى. الآن دوري في فلكه و اغرقي في بحوره و أنتِ مطمئنة. أزيحي الأتربة وافتحي ستائر قلبكِ فأنتِ تستحقين. اه سلام على من يدقون باب القلب فيوقظوه دون مراعاة فروق التوقيت.

- آدم!

همست، فدنا بوجهه مني.

- انت جيت عشاني؟

تنهد حتى شعرت بأنفاسه الدافئة تغمرني . لم يزح عينيه

- أيوة يا نجوى!

أظلمت الحجرة وبدأ الفيلم.

****

استمعت له وهو يحلل الفيلم و يشارك بالمناقشة التي أجريناها بعد انتهائه. استغرق الفيلم ساعة تقريبا واستمررنا بالنقاش لثلاثين دقيقة أخرى على أن نستكمله في صفنا القادم.

كان صوته آسرا. لو قمت الآن وارتميت في حضن صوته هل يتهمونني بالجنون؟ هووف وما بالي بهم؟ هم لا يعرفون أن أحسن ما في عناق صوته أنه لا يُبطل الصيام. هو حب من أول همسة إذن.

هززت رأسي أسيطر على أفكاري وتابعت حركات أصابعه التي تؤكد كلامه و تقوي وجهة نظره. لغة جسده كلها تأمرك بالانتباه فتطيع. عيناه تجذبك فتخر ساجدا متعبدا في حرمها.

كأنما يترافع أمام قاض ومستشارين جهز قضيته وراجع أوراقها جيدا. جمع الدلائل والمستندات. و قدم مرافعة نالت إعجاب الجميع. علّق بثبات

- سياسة أي مستعمر عموما، تكررت بحذافيرها في فلسطين.

أومأ كثير من الحضور في موافقة. ثم تحدثنا عن الرجل الأبيض الذي تعثر بأرض جديدة بالصدفة ثم أصدر قرارا بتملكها.

- بالضبط وعد من لا يملك لمن لا يستحق.

رد طالب فأكد آدم على كلامه

- في البداية حاولوا يتمسكنوا، إحنا ضيوف وساعدونا لكن بعدين..

أكملت طالبة أخرى

- كشروا عن أنيابهم و بدأوا في المطالبة بحقوقهم.

- أي حقوق؟

سألت مولي فأجاب توماس

- قاموا بالضغط على قائد القبيلة و أمروه بتوفير طعامهم وشرابهم وإلا اضطروا لإستعمال أسلحتهم.

- وهكذا تحول الضيف الطيب إلى آخر وقح وما كان أمام السكان الأصليون إلا طردهم.

علق طالب آخر. أكمل آدم

- المشكلة أن الرجل الأبيض متفوق في الأسلحة و في العدد لإنه أحضر معاه أوبئة وأمراض من أوروبا و سببوا عدوى للأصليين الي مش متعودين على النوع ده من الأمراض وبالتالي تناقص عدد الأصليين بشكل كبير.

أكدت مولي كلامه

- بالإضافة إلى الأمراض التي كانوا يتسببون بها عن عمد. كما قد ناقشنا في محاضراتنا سابقا، كان الرجل الأبيض يقدم المساعدات على هيئة أدوية و ألحفة . أما الأدوية فكانت بلا مفعول و أما الألحفة فكانت مشبعة بمرض التيفود.

- والمعاهدات التي أخلفوها و الأوراق التي وقع الأصليين عليها من غير أن يعرفوا محتواها.

قلت بسخط فردّ أوتوي

- فعلا اعترف قائد القبيلة بأنه قام بتوقيع اتفاقية كان الهدف منها توفير بعض المعادن والجلود في مقابل الحصول على السلاح ، هذا ما أفهموه ولكن الحقيقة أنه كان يوقع عقد بيع أرضه.

وغيرها وغيرها من جرائم الحرب غير الأخلاقية و أهمها الإبادة الجماعية وشطب الهوية. أسموهم الهنود الحمر وهم ليسوا هنودا ولا حمرا .

- بعد الفيلم الذي شاهدناه لتونا و النقاش القصير المثمر هذا، في رأيكم ما أوجه الإختلاف والشبه بين الرجل الأبيض هنا و الرجل الأبيض في فلسطين؟. الصف القادم ملتهب ولا شك.

أنهينا اللقاء، ومضينا نمشي على مهل نحو البيت.

- ايه رأيك في عزومة أديتي امبارح؟

أخذ يثرثر و أنا أنصت باستمتاع. صوته يملأني بالدفء. حركات أصابعه التي يمررها في شعراته وكأنما يعزف البيانو تلعب على أوتار قلبي فيتقافز في لحن مرح وجميل.

- انتي تهتي فين؟

سأل وهو يلوح بيده أمام وجهي. فيك. صرخ قلبي فكتمت دقاته. و قلت أداري ما بي

- الفيلم كان حزين ومثير للغضب جدا.

غمزت

- كويس إني أكلت قبل ما أشوفه وإلا كانت نفسي اتسدت.

ضحك. اه ضحكته سحرية تهدم كل سدود العزلة التي بنيتها. تزيحها عن آخرها وأنا لا أعترض.اه لو تعرف كم شعرت بالوَحشة دونك؟ فعلا وحشتني.

مشينا كثيرا ولم نشعر بالتعب. هو يتكلم وأنا أسمع. أتعمد سؤاله حتى يتكلم فأسمعه. وأسأله ثانية فيجيب بدون ملل.

صوته سحري ينثر بذور الحب في قلبي ويسقيها بقطرات العسل المنساب من شفتيه. تتشبث بذوره بقلبي معلنة سيطرتها على أرضه و تذيع في الأرجاء أن قد تم الإقتحام بنجاح، و أن لا وقت أفضل من إستقرارها في وطن جديد.

أما براعم الزهر في نبراته الشجية فتزيح خيوط العنكبوت التي تسلقت جدران قلبي وجعلته غلف. وأخيرا تنهدم الجدران نفسها و تذعن لصدى ضحكاته فتركع خاضعة ، فاتحة الباب لنور الشمس يضيء أركان قلب قد نال كفايته من الظلام.

لا خوف من وجع يقبع بركن قلبي الضعيف الآن فقد استقوى القلب بك. الآن أسقطه من عقلي فلا يجد مكانا بقلبي وقد احتللته أنت ونصبت به راية ترفرف باسمك عاليا وإن كُتب لها الكلام لصرخت بحبك. توقف عن حديثه وسأل فجأة كمن سمع صوت أفكاري

- قلتي حاجة؟

احمرت خدودي وكأنما تم ضبطي متلبسة فهززت كتفي وتلعثمت . وقفنا أمام البيت ولا رغبة لي بالدخول

- ناخد لفة كمان؟

سأل بابتسامة وفورا هززت رأسي بالموافقة.

22

نــون

الجمعة ما قبل الأخيرة من أغسطس، اليوم صباحا أنا هنا، و أسافر الليلة مساء إلى هناك.

فتحت عيني في التاسعة تقريبا، أنا لم أنم أصلا. بحلقت للسقف في شرود. ظاهري هادئ و داخلي يغلي. أنا خائفة. أعلم بأني أنا من تريد السفر و بأني أحتاج تلك السفرة لإستعادة اتزاني و للتأكيد على الصلح الذي بدأته مع نفسي و أقسمت بالحفاظ عليه.

لازلت خائفة. هنا أم هناك؟ هناك أم هنا؟ اااه روح هائمة أنا بين هنا وهناك. أسأل نفسي و أتقلب على حقل شوك من الإحتمالات.

ماذا إن بقيت، تلحّفت بجبني و بقيت؟ وماذا يحدث إن خرستي قليلا ونمتي؟ هووف لا أستطيع النوم. قمت أواجه المرآة. فقط أخبريني بأني سأنجح و بأن لا داعي للخوف. لا رد؟ أنتِ تعانديني إذن.

عمّ تبحثين؟ سلامكِ و أمنكِ وقد وجدتيهما مع منصورة ماذا تريدين أكثر؟ أيضا لا رد؟ لماذا تقسين علي هكذا؟ أنا أنتِ فلا داعي لكل هذا التيه وكل هذه القسوة.

شددت قبضتي حول إطار المرآة الخشبي. حسناً سؤال آخر وحسب. زفرت نفسي ولوّحت لي في نفاذ صبر. هل سأنجح؟ أعرضت عني وهي تشيح بغضب.

ناديتها فلم تسمع. هل أنادي منصورة كي تسبكِ؟ هددتها فلم تكترث. وعلى سيرة منصورة أتت تدق على باب حجرتي وتفتحها دون استئذان. ميم تعيش معي منذ وضعت رجلها في جبيرة. أخيرا وافقت و أذعنت. ليس الجبس ما يبقيها بالطبع و إنما أنا. أنا من أبقيها و هذا يشعرني بالأمان. ترى هل سأنجح؟

- هنضيع اليوم بقى في الفرجة على المراية؟ فعلا الي من غير أم حاله يغم!

عرجت إلى

- يلا يابنتي مش فاضيين للهجس بتاعك ده.

واجهتها بعيون متضرعة

- ياني يامّه! تاني هتقوليلي للمرة الدشيليون مش عايزة أسافر؟ و هقولك بطلي هبل بدل ماديكي على وشك.

زفرت في إستسلام و اتجهت للحمام.

سألتها من الداخل

- الخطة ايه النهاردة؟

- امبارح سلمنا على شلة الشارع والنهاردة فاضل شلة القهوة.

ردت فقلت

- تمام يبقى القهوة. بس أنا محضرالك مفاجأة.

- ياترى ايه؟

فتحت الباب

- هتعرفي في وقتها.

وغمزت في غموض.

****

خرجنا بسيارتي و اتجهنا لجامع الشيخ حسانين لصلاة الجمعة مثلما اعتادت منصورة. سنخرج منه لقهوة الميدان و بعدها سأخطفها منهم لتنفيذ المفاجأة التي انتويتها. قلت بلوم

- مش كنتي اتعلمتي السواقة عشان تاخدي العربية لما أسافر؟

- والرخصة نجيبها منين ؟ والجبس ده هعمل في ايه يا أم الذكاء ؟

ردت و هي تضرب على جبيرتها التي ارتفعت لما فوق فخذها فهززت رأسي في تفهم

- معلش معلش. الورق مسيره يتظبط. والجبس اهوه الدكتور قال هتفكيه كمان أسبوعين.

تحشرج صوتي

- حسام هيبقى معاكي.

هزت كتفها وتجاهلت الدموع في نبرتي

- تحبي نفطر ايه بعد الصلاة؟ .

تشاغلت بمتابعة الطريق

- لا أنا هاكل متأخر النهاردة أصلي مش جعانة.

رفعت حاجبها

- ايه مضربة عن الطعام حضرتك؟

افتعلت ضحكة

- لا أبدا هناكل وكل حاجة بس بعدين.

غمزت

- طيب ما تسدي ودانك كده ؟ عايزة أقولك حاجة مهمة.

وهذه المرة ضحكت من قلبي. اه يا ميم اه.

أنهينا الصلاة و خرجنا بالسيارة. أرادت منصورة أن أتركها مكانها لنمشي و لكني ذكرتها بجبيرتها فرضخت مضطرة. أنزلتها أمام القهوة لتسبقني حتى أصف السيارة و أرجع. الطاولة كما هي و الوجوه

المحبة أيضا. الشاعر و عم بلال وحمو يدور بين الزبائن ولكن أين الأستاذ؟ لمحتني منصورة فلوحت لي بحماس و ابتسمت.

تبالغ في مرحها كي تخفي عني حزنها لرحيلي. أيضا كي تقفل الباب أمام ترددي، أفهمها جيدا. هتفت مازحة

- الناجح يرفع إيده.

وضعت يدي في جيوبي و أخرجت لها لساني

- لا!

فضحكت. سلمت عليهم و سألت

- أمال جدو نبيه فين؟

- زمانه جاى متقلقيش.

ردت منصورة .

- هتوحشينا يا دكتورة.

قال عم بلال بحنان أبوي صادق

- خدي بالك من نفسك.

قال الشاعر وغمز

- هبقى أديكي اسم دوا كده مقوي للأعصاب و..

قاطعته منصورة بنكزة في ركبه

- مقوي ايه ودوا ايه! ماتتهد بقى.

فضحك بخبث.

- إش فهمك إنتي يا بنت؟

أتى السؤال من الأستاذ الذي وصل و سحب كرسيا ثم شد على يدي بقوة

- ربنا يوفقك يا حبيبتي.

طفت بعيني في المكان أحتفظ بكل ركن فيه في ذاكرتي. لماذا نصبح عاطفيين في أواخر الأمور؟ لم لا نكون عاطفيين في بوادرها أيضا؟ كيف كنا لنكون لو ولدنا ونحن نعلم ساعة موتنا؟ هل كان هذا ليكون أفضل لنا؟ هل كانت إنسانيتنا ومشاعرنا لتتضاعف حينها أم أن العكس يحدث و نزداد توحشا؟ هززت رأسي أطرد الفكرة.

يترك الفراق بصمة لا تمحى في روحك. جزء من قلبك يقتطع و يرمى به في غياهب عالم المفقودات. مثلث برمودا يستحوذ على ركن من مشاعرك. ثقب أسود التهمها و رمى لك بالعظام. قلبك ينقصه شريان و كلما دق كلما شعر بالوجع. وهذا الوجع لا يسكن إلا عندما يمّن عليك آخَر بجزء من مشاعره. حينها فقط تعود لقلبك دقاته بلا وجع.

أخذوا يتحدثون عن الفروق بين هنا وهناك

- فيه وحش هنا وفيه وحش هناك. وفيه حلو هنا وحلو هناك.

غمز الشاعر

- لا! أحلى هناك.

ضحكت

- بصوا، هو الواحد ميسلمش دماغه للناس وخلاص.

- أيوة متعمليش زى جحا.

- ضحكت فقالوا ألا تحتشم؟ بكيت فقالوا ألا تبتسم؟

قال الشاعر مستشهدا بأبيات الشافعي فردّت منصورة

- اه الي هو عايزين مني ايه يا أولاد الجزمة بالظبط؟!

نظر لها عم بلال بعتاب فرفعت يدها

- ايه ! ولاد الجزمة أصلا مش شتيمة.

بقينا معا لساعة أخرى وبعدها تركوني مرغمين. أخذنا السيارة و انطلقت أنا و منصورة

- هاه على فين؟

قلت بهدوء

- هنجيب شوية حاجات.

- حاجات ايه تاني؟

التفت لها أجيبها فلم أنتبه لسائق التاكسي الذي كسر علّي و أطلق سبة. قطبت حاجبيها

- سدّي ودانك!

- خلاص يا ميم مش..

صرخت غاضبة

- اسمعي الكلام بقولك.

رفعت يدي عن الدركسيون وسددت أذني حتى انتهت هي من وصلة ردح معتبرة و سمحت لي بإشارة من يدها بالعودة لطريقي. ثم سألت بابتسامة واسعة

- هاه حاجات ايه بقى؟

****

الشوارع مزدحمة. وكلما اقتربنا من منطقة الجامعة كلما ازداد الزحام أكثر.

- إحنا رايحين على الجامعة ليه؟ كنا هناك لسه امبارح.

اعترضت فتشاغلت عنها بالطريق. أين سأجد ركنة محترمة الآن؟ قطبت حاجبي أبحث بعيني عن مكان

- قلتلك عاوزة أشتري شوية حاجات بس.

فهزت كتفها بإستسلام. أمسكت يدها أساعدها على صعود الدرج

- لازم يعني المكان أبو زفت سلم ده؟

مطيت شفتي

- معلش بقى مافيش وقت نلف وهو ده الى هتلاقي عنده حاجات حلوة.

- أنا هستناكي هنا.

قالت بارتباك. سألتها عن السبب فأشارت للمكان ولملابسها الرثة في توتر. قبضت على كفها

- متشغليش بالك.

همهمت ببعض سبات أثناء صعودها فربت كفها في رفق .تركتها حتى أفتح الباب و ساعدتنا العاملات بالداخل حين رأيننا.

- خلاص يا ستى وصلنا.

زفرتْ بحنق و التفتت محدثة البنت

- لازمته ايه السلم التسعين متر ده يا ماما! ما تفرشوا في الشارع وانتهينا.

رفعت البنت حاجبيها فتضاحكتُ

- بتهزر معاكي.

افتعلت البنت ضحكة واستأذنت كي تأتي لمنصورة بكرسي. تمجلست و أشارت لي بيدها أن أبدأ فتركتها و أخذت أتفحص المعروضات.

أمسكت فستانا طويلا باللون الزيتي. سيتماشى مع عيون منصورة الخضراء. كماه الطويلان مزينان بنقشات من الورود الصغيرة. يضيق من الصدر وحتى الخصر ثم ينزل باتساع للأسفل. صدره مزين بلآلئ تدور كالعقد وترتفع للعنق.اه سيبدو رائعا عليها.

- وواسع مش هيضايقها عشان الجبس.

همست و قلبت نظري بينها وبين الفستان أحاول اختيار المقاس المناسب

- انتي بتكلمي الفستان علّى ولا ايه؟

سألت متهكمة فضحكت. انتقيت واحدا و لوحت به

- يلا!

- مش هتقيسيه؟

- لا إنتي الي هتقيسيه.

أجبتها بهدوء. تسمرت وقد أخذتها المفاجأة

- أقيس ايه انتي اتهبلتي؟

لم أرد فتابعت

- يلا نمشي بلاش تضييع وقت.

انتفضت من على كرسيها غاضبة لكننى لم أتحرك. اقتربت مني تشدني من يدي فأمسكت بها

- منصورة!

قلت بحزم فتوقفت

- أنا هجيبلك الفستان وانتي هتقيسيه ولو معجبكيش هنشوف غيره.

همت بالإعتراض فأوقفتها بأن وضعت سبابتي على فمي

- هس! وبعدها هنروح نتعشى أنا وإنتي قبل ما نروّح.

همست بأنفاس متلاحقة

- نتعشى فين؟

ابتسمت

- في المطعم الي كنا بنتمشى من تحته امبارح ووقفتي تشاوري عليه وتسألي ياترى بياكلوا في ايه؟

مددت لها بالفستان بمرح

- هنعرف كمان شوية بقى.

عيناها الخضراوان تلمعان بشكل أخاذ. نكست رأسها و أخذت مني الفستان دون كلمة و ذهبت لتجربته. سألتها

- ميم! إنتي بتلبسي حجاب؟

لم ترد. دائما ما تلبس طاقية صوف تحت الكاب حتى ونحن في الصيف. لذا أعتقد بأنها محجبة. هززت كتفي و اتجهت للركن أبحث عن طرحة ملائمة ووجدتها.

أزاحت الستارة و عرجت في ارتباك للخارج وهي تسب في توتر. توقفت أنا والبنت التي كانت تساعدني في إنتقاء طرحة مناسبة لها مشدوهتين.

الله! أين كنتِ تخبئين كل هذه الأنوثة يا ميم؟ اه عرفت تحت أكوام من الملابس الرجالية الرثة. أشرت لمرآة قريبة دون أن أنطق فالتفتت هي نحوها و ارتدّت للخلف. إن كنا نحن بالخارج قد أصابتنا الصدمة فماذا عن داخلها هي. لابد وأن براكينا تغلي هناك.

انتقيت طرحة واقتربت منها. وبتمهل ، أزاحت الكاب و الطاقية الصوف. خصلات شعرها الأسود لم يجرؤ الشيب على الإقتراب منها . أخذت تنقل بصرها بين المرآة وبينها و بيني

- أنا حاسة إني..

تلعثمت و نظرت لنفسها مبهورة

- إني..

تلعثمت مرة أخرى فأكملت وأنا أناولها الطرحة

- إنك بنت.

لم تحسن لف الطرحة فساعدتها ووقفت هي مستسلمة لي . انتهيت. أخذنا نحملق في المرآة. و في عينيها هاجت رياح عاتية في غابتها الخضراء فأثارت بحرا من الدموع الحبيسة لسنين طوال. ثار البحر وعلا موجه حتى انساب في خطّين من الؤلؤ على خديها الناعمين.

****

تململت منصورة على كرسيها. أشعر بتوترها من طريقة فركها لكفيها كل دقيقة. يبدو ارتباكها واضحا في أنفاسها المتلاحقة و حركة عينها السريعة التي لا تفلت شاردة أو واردة لأي مار أو عابر.

لحسن الحظ لم يكن المكان مزدحما. ستأخذ على الجو سريعا أنا متأكدة. ابتسمت لها مطمأنة فهزت رأسها في حركات سريعة.

كان المطعم جميلا ويطل على نيل المنصورة. مقسوم لقسمين، واحد للمدخنين و آخر بدونه. وطبعا جلسنا في قسم المدخنين. أي شئ لأجل عيونها.

كنت أتابعها بافتتان. كيف لفستان و طرحة أن يغيراها هكذا؟ منصورة هي منصورة بالتأكيد ولكن أقصد مظهرها الخرجي. تجلس أمامي أنثى كاملة. نظرات عينها وديعة و حالمة. صوتها شجي حنون. لفتاتها ليست عنيفة وكل ما فيها رقيق وهش. همست

- إنتي عارفة أنا آخر مرة عيط امتى؟

ربت على يدها

- عارفة يا ميم!

أكملت

- أنا عمري ما هنسى الي إنتي عملتيه معايا للي باقي من عمري.

ضحكتُ و ضربت الطاولة أمامي بمرح فضمت حاجبيها في إستغراب

- لو فاكرة إن إنتي مدينة ليَ تبقي غلطانة جدا.

تابعت بصدق

- أنا الّي مدينة ليكي بحياتي نفسها.

تنهدَّت

- لولا علبة الكشري الي وقعتيها على كان زماني أنا الي وقعت من زمان.

مسحت بيدي على طرحتي وقلت أغيظها

- الصلصة كان طعمها تحفة الصراحة.

ضحكت باستمتاع

- أنا كنت هقتلك ساعتها على فكرة!

هززت كتفي وابتسمت.

الإنسان مدني بطبعه. عندما قرأتها لأول مرة عقدت مقارنة بين بيت عمتي في الريف وبيت العيلة في المنصورة وهززت رأسي معترضة. فأنا أحب منزل عمتي الريفي على المدينة الصاخبة.

ولكن المدنية هنا لا تقارِن بين الريف والحضر. و إنما تعني بالرغبة في التواصل والمشاركة. نولد ومعنا تلك الرغبة وتزداد بتقدمنا في العمر. لا لضعفنا و لكن للنضج الذي يلّم بروحنا.

وللأسف إذا ما نضجنا في غير أواننا أو تعرضنا لمواقف موجعة، فسرعان ما نفضل العزلة على التواصل كما فعلت أنا وفعلت منصورة. وفعل آلاف غيرنا. الحكمة كلها تكمن في سؤالين: متى نتواصل؟ ومتى نعتزل؟ ما أن تعثر على التوازن بين النقطتين سيعمك سلام داخلي يربت على روحك المتعبة فتسكن. أما هذا التوزان فقد حققناه لبعضنا، منصورة وأنا.

كالصغار نحن، لا نتوقف عن طلب إنتباه من حولنا مهما كبرنا. ينزل الرضيع من رحم أمه صارخا جاذبا إنتباه من حوله. وعندما يكتشف الحيلة لا يتوقف عن الصراخ.

فقط تختلف طبيعة الصريخ ونغمته. يكبر قليلا ليصرخ ضاحكا فيبتسم له من حوله . بعدها يرسم رسمة جميلة فتربت أمه على رأسه و يحتضنه أبوه. اه جميل الإهتمام هذا و سحري.

أدمناه فصرنا نفعل المستحيل من أجل الحصول عليه. لا يهم إن كان ما نفعله خطأ أو صوابا فالمهم هي الغاية لا الوسيلة. حتى في عزوفنا وعزلتنا صراخا مكتوما يجذب أيضا الانتباه لكن لمن يجيد الإنصات فحسب. فيتوقف و ينظر لك بفضول محاولا سبر أغوار روحك و معرفة أسباب صمتك و ما قد يكون قابعا وراء جدرانه.

تتكرر التجربة كل لحظة وكل دقيقة، كل ساعة وكل يوم. نطلب الإهتمام و لكن لا نجده دوما كما تمنيناه فنصرخ أكثر وأكثر. تنشرخ أحبالنا الصوتية و تتقطع أنفاسنا فنتكور في صندوق عزلتنا نتابع بصمت حتى نسترد قوانا ثم نبدأ في الصراخ من جديد. دائرة لا تنتهي. حتى تنجح في الوصول لمسعاك. بعد كل هذا التخبط تسميه صدفة! أنا أعذرك فقد تنقلت بين صناديق عزلتك و بين صرخاتك طويلا حتى فقد عقلك القدرة على التمييز.

الصدفة هي التي جمعتني بمنصورة؟ أم قرار مسبق كتبناه أنا وهي؟ قرار تطوعت لتنفيذه علبة كشري. حتى وإن مشيت معك في طريق الصدفة، فصدقني الصدفة لم تجبرنا على أن نكمل الطريق. أنا من اخترت البقاء مع منصورة وهي من سمحت لي. كلانا اختار ونفذ.

طلبنا أصنافا كثيرة.أريدها أن تتذوق كل شئ.

- مش كتير الأكل ده؟

سألت بقلق فقلت

- لا أبدا أنا جعانة.

ضحكت

- وبعدين مها جاية.

رفعت حاجبيها

- ما كانت معانا امبارح!

غمزت

- ما أنا أصلي قلتلها على الي أنا ناوية أعمله فيكي فحلفت ما تضيع الفرصة دى .

- وأضيعها ازاى!

صرخت مها متفاجأة وهي تتفحص منصورة التي توردت وجنتيها

- هو أنا كنت معفنة للدرجة دى؟

و ضحكنا في جنون. طلبنا شيشة ، منصورة وأنا، و اكتفت مها بمشاركتنا نفسا من هنا ومن هنا. سألتها عن خطتها كيف تمشي ومن بين سعالها ردت

- تمام جدا. أنا خلاص زى ماقلتلك هرجع أكمل السنة الأخيرة.

هززت رأسي في تشجيع

- واهوه ربنا يسهل و أشتغل و أفوق بقى.

غمزت منصورة

- مش كنتي سافرتي من زمان كان حالنا انصلح من بدري؟

ضحكنا

- يا سلام ياختي!

- المهم خدي بالك انتي بس من نفسك و تابعي معانا بقى من هناك.

قالت مها فأشارت منصورة نحوي بإصبعها

- دي ولا هتعبرنا أول ما تدخل الطيارة هتقفل الباب وترمي المفتاح من الشباك أنا عارفاها.

ما أدركته أن ليس مهما متى بقدر كيف. ستبدأ وقتما تبدأ،لكن كيفما تقرر أنت وحدك. ساعات تفصلني عن هناك. فورة حماسة تغمرني و تزيدني قوة وأنا بينهما. لأجلهما وكل من يهتم لأمري، وأولا، لأجل نفسي سأنجح.

نكزتني منصورة تستدعيني من شرودي

- اسمعي!

انتبهت لها

- عند ميت غمر فيه لوحة. معرفش عبقري مين كتبها؟

- لوحة ايه؟

سألت مها بفضول فأشارت لها منصورة أن تصبر.

- لما تحبي تعيطي عشان أنا عارفاكي نكدية..

ضحكت أنا ومها لكنها أكملت بجدية

- تبقي تبصي للوحة دي و تقريها بخشوع.

نظرنا نحوها باستفهام فرسمت بأيديها

- ابتسم، أنت في ميت غمر.

احمرت وجوهنا من الضحك و تابعت منصورة في جدية مصطنعة

- ليه أبتسم بس هاه؟ الضحك ممنوع مثلا؟ ثم ليه ميت غمر بالتحديد؟ ايه الموجود فيها ويدعو على الإبتسام يعني؟ هاه؟

- إنتي بس غيرانة عشان مافيش ابتسم أنت في المنصورة.

زفرت منصورة متصنعة الغيظ. ضحكنا و أمسكنا بأيدي ثلاثتنا في حب.

23

وَفِي الرَّبِيعُ تَتَفَتَّح القُلُوب

بعد أن تقَلَّبَت في فرشتها لشهور، أخيرا سكنت الثلوج بين ذراعي الربيع الذي ضمها في عناق طويل ذابت أمامه عواصفها و موجاتها الباردة.

تثائب الشجر ثم تمطّع ليذهب عنه سبات الشتاء. فاستيقظت السناجب من بيوتها على الشجر و خرجت تتسابق كي تلقي التحية على الزهور التي تفتحت. احمرت خدود الشجر وتوردت أوراقه وتلونت بألوانات الربيع المحببة.

مررت بجحور القوارض.(الوومب وومب) لازال نائما لربما يخرج في الظهيرة عندما تناديه الشمس. أما السناجب تجري هنا وهناك ولها مطلق الحرية فلا يؤذيها ولا يضيق عليها أحد.

يشاع عندنا في قسم اللغة الإنجليزية أن سناجب فاسار ماهي إلا أرواح لمن كانوا يدرسون هنا وتخصصوا في الأدب ثم تخرجوا و لم يستطيعوا الحصول على عمل .

لذا فالمساكين أمثالي الذين أحبوا الأدب و اختاروه، قد عادوا في حياتهم الثانية على هيئة سناجب و اتخذوا من الشجر في فاسار مسكنا. وبالرغم من جهود الزملاء في أقسام الأحياء والعلوم وانشغالهم في إثبات صحة الشائعة، إلا أنه لم يتم التأكد منها للآن.

- سنجاب سنجاب ! أحسن من فأر.

قلتها لنفسي و استرحت على المقعد الخشبي أمام القلعة، اتفقنا أن نتغدى معا. تثائبت أرقب الطلاب الغادون و الآتون في إستمتاع.

سنبدأ في الرحيل واحدا بعد الآخر بدءا من نهاية مايو. سيعود كازو إلى اليابان للبدء في الدكتوراة . و ماتيلدا إلى فرنسا للتدريس. أما آن فستنتقل إلى روسيا للعمل هناك. ناتاليا تلقت عرضا من قسم اللغة الإسبانية و قبلت بالإنتداب في فاسار العام المقبل للتدريس.

أما أنا فسأذهب إلى لندن. تم قبولي للدراسة والعمل بجامعة درهام لمدة سنة. اه نجحت. لم أعد أشعر بالتيه الذي سيطر علّي قبلا. ما عدت أخافه ولا أخاف من الغد.

شعوري بالإنجاز يدغدغ حواسي و يفتح مسامي للحب وللحياة. أم تراه الربيع هو من يتلاعب بعقلي و يؤثر بي؟ ترى ما السر في ازدياد قصص الحب بالربيع؟ وهل من يبدأ في الربيع ينتهي في الشتاء حقا؟ إذن ماذا عمن يبدأ حكاية قلبه في الشتاء؟ تنهدت و أخرجت هاتفي أراسل الشباب

- أين أنتم؟ أنا جعت.

وجه غاضب، إرسال.

هل للحب موسم؟ بدأت بالإعتقاد هكذا خصوصا عندما تلقيت رسالة من مها بالأمس تخبرني بأنها قد حددت موعد عرسها. مها و يا للمفاجأة أخيرا وجدت رجلا. سألتها بتشكك

- راجل يا مها؟

فضحكت ضحكة خرجت من قلب قلبها و قالت

- راجل يا نون، راجل!

في هذا الزمن الخروج في رحلة بهدف العثور على رجل أو العثور على الحب أصعب من رحلة مصطفى محمود من الشك إلى اليقين. أتضحك؟ كيف ونحن يوميا نمر بالمرار نفسه من أجل أن ننجو، فقط ننجو من براثن الغدر.

تتلاحق أنفاسنا كي نكمل اليوم وننام على وسادتنا من دون أن نتعرض لطعنة خيانة هنا أو سهم خذلان هناك. نتصارع ونتقاتل فيما بيننا وحتى بيننا وبين أنفسنا للتمسك بما اعتقدناه حبا وما ظنناه سكنا وأمانا. و بعد أن نكون قد فقدنا بعضا من مبادئنا و الكثير من كرامتنا و قوتنا نفاجأ بأن من كنا على استعداد لبيع روحنا من أجله، باعنا هو بأرخص رخيص.

لا، لم يبيعنا حتى وإنما رمانا تحت قدمه و دعس ودعس ثم مشى دون أن يلقي علينا نظرة واحدة. تبخر و استحال سرابا. لذا من الطبيعي جدا أن رحلتنا هذه تصيب أكثرنا بالشك و يتعرض فيها معظمنا للكفران بما خرج أساسا للبحث عنه فيتيه في طريقه إلى يوم الدين. والآن أخبرني ألازلت تضحك؟

وصلتني رنة من ناتاليا

- أنا قادمة.

و بعدها من آن

- وأنا.

وماتيلدا وكازو أيضا أما آدم فأرسل يقول

- وأنا هنا.

اخ لم يرسلها وإنما ألقاها على مسامعي فرفعت رأسي ضاحكة

- مش هتبطل يابنى حركاتك دي؟ أنا سني ميسمحش بالمفاجآت دى.

أخرج لسانه يغيظني

- ليه يا تيتة؟ ده إحنا لسه محتلفين بعيد ميلادك الخمسين من شهرين بس.

قطبت حاجبي و لوحت بسبابتي

- طب اتلّم أحسن لك.

انحنى قبالتي حتى شعرت بلفح أنفاسه و اشتممت عطره الذي يسحبني إلى متاهة من العنبر، وغمز

- وإن ماتلّمتش؟

بسرعة قلت

- هتبعتر معاك والي يحصل يحصل.

رفع حاجبيه في مفاجأة ومن قلبي ضحكنا معا.

ما الذي يحدث لي؟ أتفوه بحماقات غريبة في حضوره. أشعر بأن الكلمات ليست لي، حتى صوتي يرق وأنا إلى جانبه. جلس بجواري وتفحصني بعينه

- أخبار دروسك ايه؟

- ماشي الحال، معنديش امتحانات الحمدلله كلها مشاريع تخرج ومقالات.

هززت رأسي في تتابع سريع مثلما يفعل أديتي وضحكنا. لحظات و قمنا نقابل باقي المطارید ودخلنا للغداء.

****

- هاه لنراجع الخطة.

قالت آن

- حفل سترايدر الراقص في الخامسة.

أومأ كازو في حماس

- سأحضر بالتأكيد.

قلت ساخرة

- ماهذا يا كازو! لا شغل ولا عمل؟ هل أنت مريض ؟

قلت وأنا أمسد جبينه بيدي محاولة قياس درجة حرارته . قطب حاجبه فأخرجت له لساني .

جلسنا على طاولة في المنتصف. آن وماتيلدا وناتاليا من ناحية و كازو وأنا و آدم في الأخرى. سألتني ناتاليا

- هل ستحضرين؟

- أكيد طبعا لابد أن نرى سترايدر وهو يرقص باليه . أنا أحلم بهذا اليوم منذ زمن.

وغمزت أضايقها فرمتني بحبة طماطم تلقفتها بخفة و أكلتها. أعادت السؤال على آدم فأجبت

- طبعا هييجي.

رفع يده مستسلما

- ما رأيكم أن نمر على حديقة شكسبير في طريقنا؟

صفقت آن بجذل. فكرة رائعة خصوصا وأن زهور التيوليب قد تفتحت. أتى أوتوي و توماس فلوحت لهما كي يجلسا معنا .تحدثنا عن صفوفنا و عن إستعدادتنا للإمتحانات النهائية وخططنا لأجازة الربيع

- سنذهب إلى فلوريدا توماس وأنا.

أعلن أوتوي في فرح.

اتفقنا على الذهاب في النصف الثاني من مايو. انتهينا من حجز تذاكر الطيران لكن واجهتنا مشكلة . أسعار الفنادق باهظة وحتى النزل الخاص بالطلبة يتعدى الأربعين دولارا لليلة وهذا سيلتهم نقودنا بالكامل.

- طب مانجرب نأجر كنبة عند أي حد؟

سأل آدم. فرقعت ناتاليا إصبعيها

- ممتاز!

تنتشر هذه البادرة في الكثير من أنحاء العالم couch surfing . خصوصا أوروبا و أمريكا. موقع مختص بعرض المنازل التي لا يمانع أصحابها من مشاركتها مع الطلبة أو مع أي مسافر في مقابل رمزي. يؤجرون غرفة لا يستخدمونها أو العلية في بيتهم إن كان على دورين مثلا. أو حتى الأريكة في الصالة إن لم تسمح مساحة منزلهم بأكثر من هذا.

الكل يعلم بأن الطالب الجامعي لا يمتلك ما يؤهله لإستئجار غرفة فندق والكل يعلم أيضا أن هذا العائق لن يوقفه عن السفر و الإستمتاع أبدا. لذا انتشرت الفكرة و تبنّاها الكثيرين.

يعرض صاحب البيت صورا للمكان المتاح عنده و يكتب المزايا خاصته. مثلا إن كان قريبا من محطة الباص أو من السوق وهكذا. أحيانا ما يسمح لك صاحب البيت بمشاركته الطعام إن أحببت. أما المقابل فيكون لا شئ سوى حفاظك على المكان نظيفا ومرتبا مثلما دخلته. أو مقابل مادي لا يكاد يذكر. أما الأهم فطبعا وضعك تقييما جيدا على الموقع كي يتشاركه غيرك.

وفعلا جربنا الموضوع عندما كنا في بورتلاند. تصفحت البنات الموقع و اخترن منزلا يقدم العلية خاصته و هي حجرتان واسعتان. بهما مدفأة كبيرة، و سريرين وحمام منفصل صغير. وكم يطلب صاحبه في مقابل أسبوعا كاملا؟ سلة خبز أو ورد ستكون كافية.

كان البيت لزوجين يسكنان وحدهما بعد أن تخرج أولادهما من الثانوية وسافرا للدراسة بجامعة الولاية. كانت السيدة الطيبة تترك لنا طعام الإفطار و تذهب لعملها. فنأكل نحن حينما نستيقظ و نقوم بغسل المواعين و شكرا.

اشترينا لها سلة مملوءة بالبسكويت و المخبوزات الطازجة قد تكلفت خمسة عشر دولارا. و أضافت البنات زجاجة شمبانيا. لازلت أكتب لها وتكتب لي إلى الآن.

الحديقة رائعة في هذا الوقت من العام. تنتشر زهور التيوليب في ألوانها البديعة الأبيض و الأحمر و الأصفر و الأرجواني والتي أرسلت فاسار في طلبها من إنجلترا خصيصا.

عندما قام المؤسس ماثيو فاسار بشراء الأرض للجامعة كانت جرداء بلا شجرة واحدة تقريبا. أما اليوم فحرم الجامعة ممتلئ بشجر البلوط و الزان والدردار والقيقب. أيضا شجر الصفصاف الباكي وحتى شجرة زيتون روسية والكثير والكثير من الأشجار النادرة.

في منتصف القرن التاسع عشر، 1868 تحديدا شهد ذلك العام على زرع أول شجرة عندما اختار الخريجين وقتها شجرة بلوط بيضاء لزراعتها أمام ممشى المبنى الرئيسي. وبعدها صارت زراعة الأشجار طقسا مقدسا في الجامعة.

في تلك السنوات كانت زراعة الشجر تتم في سرية تامة، حيث يذهب الأستاذ مع نخبة من تلاميذه لزراعة الشتلة الصغيرة ووضع تذكارا باسمهم و باسم صفهم مع البذرة. لازال هذا الطقس ساريا ليومنا هذا ولكن بسرية أقل.

يختار رائد الفصل شجرة قديمة من الموجودات كي تعمل كشجرة ذكرياتهم. أو يقوم وزملائه بزراعة شجرة جديدة في منطقة يختارونها. يزخر مشجر الجامعة بأنواع عديدة لكثير من الأشجار والنباتات التي لن تجدها في أي مكان آخر، ويأتي لزيارتها الكثيرين، كما و يحرص على دراستها و تنميتها بستانيون متخصصون ومحترفون .

حديقة شكسبير ثاني أقدم حديقة في الولايات المتحدة. تم بنائها إحتفالا بالذكرى الثلثمائة لرحيل الكاتب الكبير ويليام شكسبير. تحوي الحديقة كثيرا من الأشجار التي قد ذكرها في أعماله. أيضا يقوم الطلاب في قسم المسرح بعرض مسرحياتهم في الحديقة. بالأسبوع القادم سيتم تقديم مسرحية حلم ليلة صيف إحتفالا بالربيع من ناحية وبتخرج طلاب المسرح وقرب إنتهاء الدراسة من ناحية أخرى.

تلاحقت أنفاسي في إنبهار وأنا أنقل خطاي بين الشجرات العتيقة.أكثر من 230 نوعا من الأشجار و النباتات المختلفة تضمها الجامعة في مشجرها ومزرعتها اليوم. تبعثرنا في الحديقة و قد بهرتنا بورودها و أشجارها. تحمل كل شجرة ملصقا باسمها وعمرها.

- يااااه الشجرة دى من سنة 1950.

قلت مبهورة وأنا أحاول إحاطة جذعها بيدي فلا أقدر. ضحك علّي كازو وآدم. استمرينا في المشي. نادت ناتاليا

- وصلنا إيميل تحذيري من الجامعة بإحتمالية تواجد دب في نطاق الحرم ناحية ملاعب الجولف حيث تم الإبلاغ عن رؤيته.

أخرجنا هاتفاتنا نتأكد. ليست مزحة. يحذر الأمن بالجامعة من وجود الدب و يذكرون بعض الخطوات الوقائية إذا ماحدثت مواجهة وشددوا على ضرورة الإبلاغ عند الإشتباه برؤيته.

- بالأمس رأيت غزالة مع صغيرها.

هز كازو كتفه. صفقت آن بمرح

- اه إنه الربيع و الكل استيقظ من سباته الشتوي.

قطّب كازو

- أفضل التعامل مع الغزالة !

اتجه كازو نحو البنات يخبرهم عن الغزالة وبقى آدم معي. سرنا جنبا لجنب بين صفوف الشجر و حيضان الورد وتذكرت وقت ذهبت مع سترونج في إحدى رحلات عطلات الأسبوع الخريفية لقطف التفاح. حكيت لآدم عن اليوم الجميل الذي قضيناه في المزرعة.

تنتشر مزارع التفاح في وادي هدسون كله و يأتي إليها الناس من كل المدن في حضن الوادي في فصل الخريف بدءا من سبتمبر وحتى نوفمبر ليستمتعوا بطقوس قطف التفاح. ذهبنا لمزرعة تدعى دريسل. جنة تمتد لربعمائة فدان تفتح أبوابها للزوار و تمنحهم منتجات طبيعية ومصنوعة من خيرات الطبيعة . الخضرة والشجر و الجمال الربّاني الطبيعي يحيط بك من كل صوب.

أقفاص الفراخ و الإوز و البط. السناجب والعصافير حرة على الشجر. إن لم يكفِ هذا فلتعلم أنه لك أن تأكل ماشئت بالمجان،طوال فترة بقائك في الجنة، أقصد المزرعة.

- وأنا صغيرة رحت رحلة مع المدرسة لمصنع الكوكاكولا. و بإختصار الرحلة كلها جلها تلبك معوي من كتر الي شربناه.

ولكن لا يمكن لكل هذا الجمال أن يلبك معدتك مهما التهمت منه. نزلنا من الباص و دخلنا المزرعة. لارسوم للدخول ولا شئ. تأخذ دلوا لتضع به تفاحاتك إن أردت الشراء. وإن لا، فلك أن تستمتع بتذوق قدر ما شئت من على الشجر وتستمتع بالجولة وبالطبيعة وبالكثير من التفاح.

أكثر من عشرين نوعا من التفاح. تفاح ماكينتوش ،و ليدي، و بولدوين ، و موتسو المعروف أيضا بالتفاح الأخضر، وتفاح الزنجبيل الذهبي وتفاح الحرية وغيرها وغيرها من التفاحات التي لم أرها من قبل.

أيضا يوجد مركزا لتذوق النبيذ الذي تنتجه المزرعة. و في الخريف يتواجد نكتار التفاح. يصنعون منه الدونات أيضا و يأتي لطلبها الجميع تقريبا. أيضا تنتج المزرعة المربى ،مربى اليقطين و المشمش و الفراولة. وبعض جبن الماعز المميزة. و في أكتوبر يذهب العامة لجلب ثمار اليقطين من أجل الاحتفال بالهالوين. اه كان يوما رائعا بحق.

أخذنا نثرثر و نثرثر دون إنقطاع. أتعب أنا فأتوقف ليكمل هو.

- عارفة المكان ده ناقصه ايه؟

سأل بجدية فضممت شفتي معترضة على الفكرة

- بتهزر صح!

و فردت ذراعي أشير للجنة التي تضمنا فأخذ كفي بيده واحتضنه. وبيده الحرة أزاح حقيبة ظهره و فتحها ليخرج منها علبة بلاستيكية متوسطة الحجم. حاولت سحب يدي

- متهربيش!

قال دون أن ينظر لي وقد كان يحاول فتح العلبة بيد واحدة فضحكت بخفوت وتركت كفتّي تستكين في حضن يده. و أخيرا نجح فرفع رأسه يضمني بعيونه السود

- ناقصه نخلة.

ضحكت فمد بالعلبة لي و اتسعت عيني في مفاجأة

- مش كان بلح أسود برده؟

سأل بحنان. لم أرد فقط نقلت عيني بينه وبين علبة التمر

- وكنت بأكلهولك بإيدي صح؟

ترك يدي ليمسك بإحدى التمرات من العلبة و يقسمها نصفين. مد بنصف لي فمددت يدي أتناوله مشدوهة فهز رأسه نافيا

- في الحلم كنتي بتاكليه لوحدك؟

هززت رأسي دون أن أنطق فمدّ يده ثانية ووقف منتظرا بصبر. امتلأت عيني بالدموع

- أنت هنا؟

سؤال سخيف حقا ولكنه فهم معناه تماما كما قصدته داخلي فأومأ مؤكدا

- وهفضل هنا.

بعدها اقترب مني أكثر ورفع يدي يضعها على صدره

- وإنتي هنا.

تسارعت دقات قلبه تحت كفّتي وتنهد بعمق

- بحبك.

مد يده نحوي بنصف تمرة أطعمنيها في فمي و أكل هو النصف الآخر. همس

- حلوة يا نون؟

أومأت بالإيجاب. حلوة حلاوة لم أذق مثلها في حياتي،و أما سوادها فلم أر في مثل لمعانه بإستثناء لمعة عيونه السود.

استكملنا جولتنا وبعدها ذهبنا إلى مسرح الجامعة الرئيسي. وقفنا في الطابور. أبواب المسرح لم تفتح بعد. تفرق الحضور على المقاعد المنتشرة. تحدثنا في أمور عدة. وقعت عيني على تاريخ اليوم في الإعلان الدعائي الخاص بالحفلة

- ثواني هعمل تليفون وآجي.

سأل آدم

- لمصر؟

أومأت موافقة فاستأذن

- ينفع آجي؟

- طبعا!

و خرجنا معا. أرغب بمكالمة منصورة.

- ممكن أكلمها معاكي؟

ضحكت للفكرة. ولمَ لا؟ سيكون عليهما أن يتحادثا عاجلا أو آجلا. ويا لحظي لقد ردت من أول رنة. عايدتها وأخبرتني أنها أمام القصر فعادت ذكراه لي وضحكت. كنت قد حكيت لهم عن هدية عيد ميلادي التي قدمتها لي منصورة

- تخيلوا قعدت تقرأ كتب و تجهز عشان تفاجأني؟

هز كازو رأسه في إعجاب و علقت ماتيلدا

- لم أعلم بأمر هذا القصر وعندما أخبرتيني قمت بالبحث و انبهرت عندما رأيت تصميمه الرائع.

- قلتلك إنه هيعجبك.

أفقت على صوت منصورة تسألني بماذا يدور في بالي. أخبرتها بأمر قبولي في منحة الدراسة ومنحة الحب. ووافقت على محادثة آدم.

أرقبه يحادثها الآن وأنا أفرك يدي في قلق. لماذا أشعر بكل هذا التوتر؟ آدم يبدو مرتاحا نبرة صوته هادئة وعينه ثابتة علي. ماذا هناك؟ ارتبك و أدار ظهره عني، هل تشتمه يا ترى؟

مر بأصابعه في شعراته، لماذا توتر هكذا فجأة ؟ استدار نحوي وأخذ نفسا عميقا ثم ثبّت عينه علّي وهمس

- اه..قوي.

استشعر قلبي ما قاله فدقّ بقوة وصخب . وتوردت خدودي في وله. بعدها عاد آدم لهدوئه و تحدثا قليلا حتى أشرت له بضرورة الدخول لبدء العرض فسلم عليها وأنهى المكالمة. هووف وأخيرا،تمت المهمة بنجاح.

****

مسرح الجامعة رائع ومجهز بإمكانيات مرعبة. مسرح كبير وضخم يتسع لمائتين وأربعة وأربعين فردا ويمتد لمسافة خمسمائة متر. وعليه تتم كل عروض الرقص و بعض من المسرحيات الخاصة بطلاب الجامعة. أما عرض الرقص السنوي فيحضره الكثيرين من خارج الجامعة أيضا.

في إبريل ستقوم الجامعة بعرض رقصاتها في مسرح المدينة. الإضاءة و الديكور و أجهزة الصوت والسماعات، كل هذا وأكثر مصمم لخدمة خشبة المسرح. كي نحظى نحن –الجمهور- بتجربة جميلة وممتعة لأي عرض من العروض التي تجرى على خشبته.

لازالت الناس تتوافد. هذا هو اليوم الأول للعروض التي تتوالى لثلاثة أيام. يأخذ الناس مقاعدهم بهدوء وانتظام. رأينا المطاريد فاتجهنا لهم كانوا قد جلسوا وتركوا لنا كرسيان .

أطل مدير القسم على خشبة المسرح الواسعة ورحب بالحضور. تكلم قليلا عن العرض و وعدنا بالاستمتاع برقصات ستبهرنا و تمتعنا كثيرا. تحدث عن بعض القوانين السريعة مثل خفض الصوت و ضبط الهاتف على الوضع الصامت وغيرها من الأمور التي قد تزعج الجيران أو الراقصين أنفسهم.

خفتت الأضواء في تلك اللحظة تنبيها للجمهور بقرب العرض. همست ناتاليا بحماس

- الراقصون وراء الستار.

همس آدم

- هاخدك مسرح برودواي بعد الإمتحانات،موافقة؟

أومأت بحماس فغمز

- بس بشرط أنا الي أختار المسرحية.

أخرجت لساني أغيظه. شدّ على يدي بحب وابتسم. أظلمت القاعة وفتح الستار.

24

مـيـم

ازدحمت فرشة الكتب بالزبائن. البعض يسأل عن الكتب المدرسية ويمشي. و البعض الآخر يتلكّع لتصفح أغلفة بعض الكتب المفروشة على الأرض أو على الرفوف الخشبية.

انشغل عم بلال باستلام طلبية جرائد في الجهة المقابلة أمام القهوة. تثائبت و تململت في قعدتي على الكرسي.الجو حار بعض الشئ خصوصا و مارس في العشر الأواخر يقارب على تسليم الراية لأبريل. وبعدها مايو، الحّر كله على غرار الست.

وعند ذكرى العرق وموجات الصهد أمسكت كتابا أستخدمه كمروحة. سألت أم عن قاموس عربي إنجليزي صغير فأشرت لها أوجهها إلى مكان القواميس دون أن اقوم من مكاني.

انقضت العصرية في رتابة وملل. أقل من ساعة ويحل المغرب. أنا أنزل من البيت في السابعة صباحا و أغادر في السابعة مساء. كل يوم ما عدا الجمعة آتي بعد العصر لأن الجمعة ميعاد محادثة سكايب جماعية مع نجوى وحسام وسلوى. و ميعاد عزومة الغداء الأسبوعي الذي يصر عليه حسام بتوصية من نجوى طبعا.

طوال الأسبوع تقريبا أنا هنا بين الكتب. ولكن أحيانا كثيرة أستأذن لأطل على أصحاب الشارع. أمر بفرشتي السابقة و أتحسس الموضع الذي كنت أنام به. أقعد مع صابحة ندردش. كبر رضيعها. صلاح والباز ينضمان لنا أو أذهب أنا لهما. لم أخبر نجوى ولكن مرات أرتدي القميص والبنطلون وآخذ أي مقشة و أكنس و أكنس حتى أتعب. بعدها أغير ملابسي و أعود لفرشة عم بلال.

نادتني الزبونة التي تبحث عن القاموس فقمت. أشارت إلى قاموس برف علوي، فصعدت على السلم الخشبي و ناولته لها. تصفحته لدقائق و بعدها سألت عن سعره ثم دفعت ومشت. أخذت النقود وقبلت ظاهر يدي وباطنها ووضعتها في الدرج. قمت بتقييد اسم القاموس الذي بعته في الدفتر. وعدت ثانية إلى مقعدي. اتسخت ملابسي حينما تسلقت السلم. أزحت التراب عن الجيبة التي أرتديها و عدلت من طرحتي أغطي شعري.

عم بلال حنون ولا يضيق الأمور علي، يسمح لي بأن أستأذن فأمشي حتى توجعني رجلي التي كانت قد كسرت فأقعد على الكورنيش في أي بقعة. بالتأكيد يمكنني أن أتأخر في الإستيقاظ و الذهاب في العاشرة مثلا ولكن أنا اعتدت الإستيقاظ باكرا وعندما أصحو فأنا لا أستطيع البقاء حبيسة بين الجدران خصوصا وإن كنت وحدي بلا نون. جذبتني الفكرة فتخيلت اسمي بلا نون و قمت بحذف الميم أيضا فتبقت "صورة". أنا فعلا صورة بلا روح ونون هناك وأنا هنا.

مقسومة أنا بين ضدين. فقداني لها والوحشة التي أشعرها دونها من ناحية. و فخري و فرحتي بها خصوصا عندما رأيتها في الأجازة- من ناحية أخرى.

كانت قد تبدّلت تماما. تغير كل شئ فيها، بالرغم من أنها هي نفسها. عيناها البنية احتفظتا ببريقهما ولكن لمعانهما ازداد حتى فاض من بين رموشها الطويلة. وجهها استنار كبدر التمام. هالة من الراحة والسلام تحيط بها فتجعلها خفيفة كالريشة.

كنت ممسكة طوال الوقت بيدها خشية أن تطير إن انشغلت عنها. مرحها تضاعف و ضحكتها اتسعت لتشمل كل من يحيط بها فتنقل إليه عدوى سعادتها. اه صغيرتي نجحت في تحقيق الصلح. هي ونفسها رضيتا عن بعضهما أخيرا.

لذا كانت تستحق المفاجأة التي حضرتها من أجل عيد ميلادها. أكدت علي بأنها ستأتي لتحتفل بعيدها معي. ستترك الخواجات وتأتيني .لم تنس إذن، فلتمت بغيظك يا عبد الحميد. لم يسرقوها مني، الحمدلله.

وفعلا حافظت على وعدها ومن يومها أمازحها

- إنتي أرجل من رجالة كتير يا نون عشان كده مرتبطيش لحد دلوقتي.

هززت رأسي في إستمتاع للذكرى. وحين أرسلت لي صورة لقلادة مكتوب عليها بالإنجليزية تخبرني أنها هويتي لحين إصدار أوراق لي، قمت بطباعة الصورة ووضعها في إطار على الكومودينو بجوار السرير. وكل ليلة أحتضنها قبل أن أنام.

بنت في الثانية عشرة تقريبا اقتربت مني و سألت

- لو سمحتي يا طنط هو عدد 51 من رجل المستحيل موجود؟

قهقهت ضاحكة. رجل المستحيل مرة أخرى؟ يبدو أن أدهم مصمم على كسب المزيد من قلوب الفتيات. لا تخف أبدا على بنت كان أدهم صبري أول حب لها. قمت أساعدها بحماسة في العثور على العدد الذي تبحث عنه. وعندما مشت أمسكت أنا الأخرى بعدد وبدأت في قرائته.

حلّت السابعة وأتاني عم بلال

- هاه مش يلا؟

سأل وهو ينظر لما في يدي بفضول فضحكت

- أعمل ايه؟ حنيّت لسي أدهم تاني.

ربت على كتفي في حنان

- عقبال ماتقابليه في الحقيقة يا منصورة.

رفعت حاجبي فتابع

- وليه لا؟ طول ما لسه فيكي نفس يبقى فيه أمل.

احمر خداي وتلعثمت. تشاغل بكتاب أمسكه بين يديه وقال كي يقيني الحرج

- يلا عشان إنتي تعبتي النهاردة.

أومأت موافقة وبسرعة قمت.

ماهذا الذي حدث منذ لحظات؟ أنا خجلت! بإمكاني أن أشعر بالخجل حين يلوح أحدهم أمامي بسيرة فارس الأحلام؟ يا الله ما الذي يحدث لي؟ هززت رأسي لأستعيد صلابتي.

للأسف مجتمعنا يسقينا بالملعقة أهمية الرجل وظله الذي يغني عن ظل الحائط. فنتحول من كائنات تنتج إلى كائنات تنتظر.

لم يعد في وسعي فعل أي شئ، وحتى إن فعلت كل شئ فهو ناقص إلى حين ظهور ظل الرجل. وحتى يحدث ذلك فأنا أنتظر و أنتظر. ومع طول انتظاري يبدأ شعورى بالنقص يتفاقم و يتضخم ليلتهم كل آمالي وطموحاتي.

وبعدما كنت أنتظره بشوق ولهفة بتّ أترقبه بخوف و كراهية. نعم فأنا كرهت من كان السبب في شعوري الدائم بالنقصان. أحدث المجتمع المريض خللاً في بنيتنا النفسية. نجحت المعايير الإنفصامية والتقاليد الميتة في جعلنا نكره الشئ الوحيد الذي أحببناه من قبل لقياه حتى.

كرهنا الرجل و شعرنا بأنه دليل على النقص الذي لا يترك المجتمع فرصة إلا وذكرنا به في شماتة. وتضخم ظله حتى غطى بسواده على كل نجاحاتنا وطموحاتنا.

قالت لي نجوى بأننا ينطبق علينا وصف المستضعفين في الأرض، وبأن الحل الوحيد للنجاة من الظلم الذي لا طاقة لنا به هو الهرب بعيدا للحفاظ على ما تبقى من نفوسنا المهدرة.

إن حدث وقررتي الهرب فلا تهربي للصين. أخبرتني نون أن إحدى صديقاتها الصينيات أسرّت لها بأن الصين يقام بها سوق يذهب إليه الآباء والأمهات للوقوف وعرض ميزات بناتهن على لائحة كبيرة بحثا عن الخطّاب.

أخبرتها أيضا أن كبرى المطاعم في الصين يقدمون لحم الأجّنة في قائماتهم. وكلما كان الجنين صغير العمر كلما علا ثمنه. ييعع! أنا أصلا لست مرتاحة لأي شئ صنع في الصين.

- وهي مصر والصين ايه مش واحد؟

على الأقل هناك يأكلون الكلاب ويعرفون أنها كلابا. هووف فقدت تركيزي. ما الذي ذكرني بالكلاب؟! ااه النقص.

وللأسف ساعد أنصاف الرجال على تأكيد هذا النقص، فبدلا من أن يؤدي دوره التكميلي الذي انتظرته طويلا، تنصّل منه وهرب. فشل بأن يضمني بين ضلوعه مثلما فعل أبوه آدم. أصبح هو الآخر يعايرني بأنه أنقذني من المجتمع والناس. و طالبني ببجاحة غير مسبوقة بضرورة الشعور بالعرفان و تقديم القرابين للغازي الأبيض الذي حرر الإماء من المجتمع الشرير.

و هل يكون الإنقاذ إنقاذا إن التُقّط بغلظة من (الوِحِش) لأقع فريسة بين أظفار الوَحْش؟ أنا كفرتُ بالرجل ولم أعد أؤمن بوجوده. وبناء عليه فقد قررت قرارا لا رجعة فيه ،وحفاظا على كرامتي فقد كبحت إحتياجي للرجل و خجلت من رغبتي في التقائه. وداعا أدهم!

لا رغبة لي في النوم لذا سأمشي حتى يهدني التعب. قادتني قدماي هناك. حيث أخذتها أنا ليلة عيد ميلادها. كانت كالفراشة في حركتها و ضحكتها وكل شئ بها كان جميلا.

أنهينا السهرة مع حسام و قطعنا التورتة . وخرجنا لأكل جاتوه مع من بالقهوة. بعدها أكلنا مزيدا من الجاتوه مع مها. و أخيرا حبسنا بالشيشة و الشاي مع صابحة و الرجال.

- عملنا دماغ من كتر السكر.

قالت بمرح وضحكت ثم تثائبت

- لا يا ماما متفكريش في النوم. لسه فيه أهم حاجة.

- يا منصورة ارحميني هو أنا ههرب؟

قاطعتها بنفاذ صبر

- ماليش فيه. بقولك أهم حاجة.

تنهدت و رفعت يدها مستسلمة

- حاجة ايه حضرتك؟

غمزت

- هدية عيد ميلادك يا نونتي.

فصفقت و تقافزت حولي بمرح. قلت متخابثة

- ولا أقولك؟ خليها بعدين بقي شكلك تعبان.

- ايه! مين قال؟ يلا يلا!

دفعتني أمامها بقوة فضحكت و أخذتها تحت ذراعي ومشينا.

اتجهنا للمشاية السفلية و تمشينا حتى وصلنا للبارون فصعدنا الشارع المتجه للأعلى و سحبتها يمينا .سألت بفضول

- إحنا رايحين فين؟

- هتعرفي دلوقتي.

قلت و أنا أرقب الطريق. اقتربت الساعة من التاسعة مساء. الجو برد و ينذر بسقوط أمطار لذا قلّ عدد المارة في تلك البقعة. الجامعة اسكت هس. رائع!

- انتي بتتلفتي كده ليه؟ هو إحنا هنقتحم بيت ولا ايه؟

التفت لها بدهشة

-عرفتي منين؟

ضحكت

- لا بجد قولي بقى.

- ما أنا بتكلم بجد. بس إحنا مش هنقتحم بيت.

فغرت فاها فأشرت للمبنى على يميني

- إحنا هنقتحم القصر ده.

رفعت رأسها تنظر حيث أشرت ولم تنطق.

قصر الشناوي تحفة معمارية تقع في أهم شوارع المنصورة. أجمل قصر بتصميم وأيادي مهندسين إيطاليين خارج إيطاليا وذلك بشهادة خبراء الهندسة وشهادة موسوليني نفسه .

تم بناء القصر عام 1928. كان تحفة ووجهة لكبار الزوار من ساسة و أمراء و مشاهير الفن. وعلى امتداد طابقين، وقف وحده في عشرينات القرن الماضي يطل على نيل المنصورة.

أما الآن ففي الشارع المقابل من واجهته امتدت جامعة المنصورة وزحفت البيوت والمحال التجارية حتى أحاطت به من كل جانب. تم التخلص من ملاعب التنس التي امتدت حتى شط النيل، ولولا حديقة صغيرة أبقوا عليها و أحاطوها بسور، كان ليتم التهامه بالكامل.

محمد بك الشناوي رجل الأعمال و أحد زعماء الحزب السعدي إبّان الإحتلال. كان قد تقلّد وساما تقديرا من الدولة واعترافا بكونه عضو بارز في مجلس النواب و الشيوخ. قام ببناء القصر ليكون وجهة ومركزا لإجتماعات الحزب.

نزل به الملك فاروق. وأيضا سعد زغلول ومصطفى النحاس وعقدت به كثير من إجتماعاتهم ،لذا فقد أطلق عليه أهل المنصورة بيت الأمة.

شددتها من يدها و اتجهنا جانبا إلى بقعة بعينها من السور كان الباز قد أخبرني بها. دققت النظر حتى وجدتها

- هي دي الحتة الي هندخل منها.

أشرت نحو فراغا بين عمدان السور الحديدية ووضعت يدي على رأسها حتى عبرت القضبان. عبرت ورائها و وقفنا نتلفت على الشارع من خلفنا. لم يلاحظنا أحد.

نافورة كبيرة في المنتصف لكنها لا تعمل. تخيلتها وهي تنثر رذاذها في إحدى الأمسيات العطرة و المصحوبة بنغمات عود عبد الوهاب. صعدنا السلم الرخامي و أشرت للحجرة على اليسار، حجرة الضيوف.

- عارفة مين كان بينزل هنا؟

سألتها فهزت رأسها نافية .

- عبد الوهاب والنحاس باشا.

أجبتها فزفرت في انبهار.

أرضية التراس التي نخطو عليها كسيت برخام من نفس الرخام الموجود بقصر المنتزه.

- أما دي بقى تبقى أوضة المكتب بتاعة الشناوي بيه.

قلت وأنا أشير للحجرة على اليمين. اتجهت للباب وحاولت فتحه، بالتأكيد لا يفتح.

- هنحاول نفتحه من جوة.

- ايه؟ ازاى هو احنا هندخل؟!

ضحكت وجذبتها ورائي.

الباب الرئيسي مغلق كما أخبرني الباز. اتجهنا للباب الخلفي. دفعت الباب بهدوء فانفتح وقبل أن نخطو للداخل توقفت و أخرجت الموبايل الذي اشترته لي و أنرت كشافه. أمسكت بيدها المرتعشة و دخلنا.

ساد الظلام فرفعت الكشاف أمامنا يكشف لنا أين نخطو. صعدنا درجا صغيرا و واجهنا بابا آخر دفعته دون أي مجهود فانفتح.

دخلنا بهو القصر الواسع ذو التصميم الخلّاب. بهو سداسي الأضلاع، وكل ضلع فيه يحفل بزخارف وتحف رائعة. لازال يحتفظ بأثاثه القديم الفاخر.

مشت نجوى بيدها الحرة على الأعمدة المرمرية الخالصة وإيطالية المنشأ التي انتشرت في أرجائه. وجهت الكشاف للجدران التي استندت إليها لوحات زيتية جميلة جدا وكثيرا من التحف الرخامية لتماثيل تحمل عبق الزمن القديم .

أما السقف فقد تزيّنت حوافه بزخارف صممت و صنعت بأيدي إيطالية محترفة وجمعت في أصالتها مزيجا رائعا بين الذوق العربي و الأوروبي في العمارة والبناء .

ثريا ضخمة و هائلة الحجم بها مئات من القناديل الصغيرة تتدلى في بهاء و تحتل جزئا كبيرا من السقف.

- شغل نقاشة عالي قوي.

نكزتها في كتفها

- عقبال ما نعملك شقتك يا أختي.

لم ترد فقد كانت مشغولة بتفقد المكان و قد بهرها تماما.

-عبد الوهاب وسومة كانوا بيلعلعوا هنا.

هزت رأسها في انفعال فقلت أستفزها على النطق

- أنا الي هغنيلك في فرحك بقى؟

هزت كتفها وهي تقلب عينها فيما حولها وأيضا دون أن تنطق.

دخلنا الصالون الذي لا يقل روعة عن البهو. أعمدة رخامية وحواف مذهبة

- وكله إيطالي تقفيل بلده.

لوحة زيتية كبيرة تصدرت الجدار لرجل ممتلئ بعض الشئ يرتدي بدلة تبدو عليها الأبهة. يضع يده بجيبه في رفعة وحول كتفه تعلق وسام أخضر ذو حواف حمراء. يعلو الوسام هلال ضم ثلاث نجمات.

رمز علم الدولة وقتها.

- ده أكيد صاحب المحل!

أشرت أنبهها للوحة. فراقبتها لحظات ثم رفعت رأسها للسقف و شهقت في إنفعال. ثبت كشافي حيث تنظر و ابتسمت

- عارفة إن لوحة السقف دي هتعجبك.

كانت لوحة مرسومة على غرار لوحة مايكل أنجلو في كنيسة سيستينا . ثلاث فتيات ملائكيات يطفن في السقف وعلى وجههن ابتسامات حالمة. غمزت

- البنوتة الي هناك دي شبهك يا نون.

فشدّت على قبضتي

- والي هناك دي شبهك انتي.

اتجهنا جانبا لحجرة الطعام الكبرى. مائدة كبيرة تراصت الكراسي حولها. و أعمدة رخامية بيضاء تلمع تحت وهج الكشاف الصغير. أشارت للصالون

- هناك قعدوا.

و تلفتت بعينها تلتهم الغرفة حولها

- حاسة إني لسه شامّة ريحة الأكل.

همست بمرح وهي تتحسس بطنها. فضحكنا بخفوت وخرجنا.

أشارت للسلم ترغب بالصعود فتقمصت دور المرشد السياحي

- وفي مركز البهو نرى سلّما من خشب الأبنوس الخالص الذي لم يُدق به مسمار واحد و إنما أتى خصيصا من إيطاليا في قطعة واحدة و تم تركيبه هنا.

تنحنحت

- عبدالحميد الشاعر قالي إن أبوه كان واحد من العمال الي ركبوا سلالم القصر ده يا نون.

التفتت لي بانبهار فسألتها مغيظة

- هو انتي اتخرستي يا بنتى؟

همست

- يلا نكمل.

ابتسمت لها بحنان و شددت على يدها نصعد للطابق الثاني.

باب مقوس عند نهاية السلم فتحته نجوى وخطينا للداخل نحو غرفة المعيشة. تزينت جدرانها باللوحات الزيتية الجميلة.

هذه لوحة لطاووس يرعى في مروج خضراء جميلة. وتلك لأولاد وبنات يجرون وراء الفراشات.

- بصي دى!

جذبتني نجوى من يدي مشيرة إلى كسوة الكعبة الشريفة التي تصدّرت الجدار المقابل فاتجهنا نحوها مشدوهتين.

- ياني يامّة!

همست و أنا أفكر بستي وجدى. ترى هل تمكنا من الوصول والطواف بالكعبة؟ واثقة بأن نون أيضا كانت تفكر بأبيها وأمها

مددت أصابعي أتحسس الكسوة برفق و تمتمت بدعوات رجوت فيها الله أن يريح قلبي و قلب من أحب. و استرقت السمع لنجوى فوجدت شفتيها تتحركان هي الأخرى بدعاء هامس.

دخلنا إلى صالون آخر صغير وحجرة طعام أصغر من التي بالأسفل

- دول مخصوصين بأصحاب القصر، الأسرة بتاعته يعني.

هزت رأسها في تفهم. سمعنا جلبة بالأسفل فانتفضت يد نجوى القابعة في يدي

- ده من الشارع؟

قطبت حاجبي عندما تكررت الجلبة

- لا دي من هنا.

شهقت نون وكتمت فمها بيدها.

- القصر شكله مسكون!

قلت بخوف فتشبثت بعنقي

- يادي النيلة! هنعمل ايه؟

افتعلتُ ضحكة

- يابنتي صدقتي؟ ده أنا بهزر.

ثم زفرت بيأس

- دي تلاقيها الشرطة.

- يا صلاة النبي!

هتفت فكتمت فمها بيدي وهمست

- إنتي اتجننتي؟ علّي صوتك كمان شوية خليهم يقبضوا علينا والنبي!

هزت رأسها ورفعت يدها بإستسلام فأفلتُّها.

- هنعمل ايه دلوقتي طيب؟

سألت بصوت مرتعش. هززت كتفي

- عادي هننزل. لو بوليس هيتقبض علينا."

وكتمت ضحكة إلا أنها لم تلحظ

- يادي النيلة ! يا منصورة هتسجنيني قبل ما سافر؟ لا وسفر ايه بقى ما بح كده خلاص.

أخفيت فمي بيدي أداري ابتسامتي التي تأبى ألا تطلّ منه

- إن شاء الله ميبقوش بوليس.

- ولو عفاريت يبقى عادي يعنى؟

سألتني بفزع فاصطنعت اللامبالاة

- هنشوفهم عايزين ايه ونحل الموضوع.

نكزتني في كتفي

- ايه البرود ده؟

- طب خلاص خلاص، يلا!

أمسكت يدها ونزلنا السلم في بطء. تتلفت حولها في كل ثانية. الباب الذي دخلنا منه على بعد خطوات فاتجهت نحوه ولكني جذبتها

- استني أنا افتكرت حاجة.

نظرت مستفهمة

- أنا وعدت عبدالحميد إني هدور له على حاجة في أوضة المكتب.

- نعم يا اختي وده وقته وعد ايه؟ بس و..

- مين هناك؟!

صرخت نجوى حين سمعت الهتاف ، و حينها لم أعد أقدر على كتم ضحكاتي فتركتها تصدح في القصر الخالي.

اقترب رجل ضخم الجثة يفتل شاربه في تكاسل وبالرغم من ضحكاتي فلم تفلتني نجوى من قبضتها الفزعة حتى قال الضخم

- ايه رأيك يا ست منصورة عجبتك؟

نقلت نجوى نظرها بيني وبين الضخم

- مية مية يا سباعي!

- عجبك القصر يا ميس؟ اه صح كل سنة وانتي طيبة. هابي نيو بيرس!

صدرت همهمات غير مفهومة من نجوى

- اه هي اتبسطت قوي و بتشكرك بالإنجليزي يا سباعي.

فتحت فمها بذهول فضحكت لمرآها و تابعت

- الميس بس عايزة تشوف أوضة المكتب.

فتل سباعي شاربه

- بس دي مقفولة.

غمزت

- ومين معاه المفتاح؟

ضحك بتناحة

- أنا اه.

- هنشوف بس المكتب ونمشي على طول و الميس هتدعيلك بالإنجليزي.

- لا أنا مش عايز دعوة هنا.

- أمال فين؟

رفع يده وفردها و ضم شفتيه مقلدا صوت الطائرة

- هناك في بلاد برة.

- اه اه طبعا يا سباعي أول ما الميس تسافر هتبعتلك .

هرشت رأسي وغمزت

- بس هو إحتمال الفيزا تتأخر شوية على بال ما يتحروا عن شنبك، ما تحلقه يا سباعي؟

ضحكت باستمتاع والتفت لنجوى لأجد أمارات الفهم والغضب واضحة على محياها فأشرت ناحيته

- اشكري سباعي بالإنجليزي يا ميس.

لم ترد لكن وقفة سباعي المستميتة ككلب مخلص أرغمتها

- ثانك يو! يا سباعي.

هز رأسه بابتسامة واسعة تضخم لها شاربه أكثر.

دخلنا الغرفة و أقفلت الباب . المكتب أمامي والكتب كما وصفها عبدالحميد تمام. كرسي جلد أسود كبير وراء المكتب و موضوع عليه الوسام الذي رأيناه في الوحة الزيتية ولكنه بهت و فقد بريقه حزنا على صاحبه لاشك.

نموت و نوضع في التراب وتهترئ أجسادنا و نتحلل فنتبخر تماما إلا من كومة عظام ويبقى سريرنا وكرسينا و فرشاة أسناننا. كراسة العربي من كي جي تو و المقلمة التي خبأتها في كرتونة تحت السرير. قميصك الذي تلبسه في المناسبات.

نوتة تليفونات احتفظت فيها بأرقام العيال في إبتدائي. أملا في أن تكلمهم يوما ولكن يومك أتى و سبقك و قطع الطريق على باقي أمنياتك فتركتها مكومة و متربة تحت السرير.

بأصابع مرتعشة تفحصت الكتب على المكتب. ما اسم الكتاب؟ هووف نسيت. يا للخيبة! سأتفحصها كلها إذن. هناك كتاب بلا عنوان و نسخة من مصحف قديم. بعض مخطوطات قديمة لأفكار الحزب.

نوتة أخرى بالإجتماعات القادمة. الاثنين القادم يستقبل القصرالمطرب الشاب عبد الحليم في سهرة كبيرة إحتفالا بعيد الربيع.

قلبت في النوتة حتى وقعت من بين صفحاتها. صرخت بحماس فأقبلت نحوي نجوى. اه نجوى! لقد نسيتها تماما.

فضضت الورقة برفق كيلا تتقطع وأطلّت علي كلمات شعرية تصرخ بصوت عبدالحميد. إذن لم يكن يهذي. ضحكت بجنون و أخذت الورقة. ثنيتها بتأني لأضعها في جيبي

- بتعملي ايه يا مجنونة؟

سألتني نجوى فقلت بجدية

- دي بتاعة عبدالحميد وهو أحق واحد بيها.

هزت كتفها في إستسلام

- تمام جدا!

ثم أخذت نفسا عميقا و انهالت علي بالضربات فجريت

- يابنتي اعقلي الراجل هيقول علينا ايه؟

لا فائدة تجري ورائي كالمجنونة

- أنا تعملي على فيلم وتقوليلي عفاريت وبوليس؟ و في الآخر يطلع سباعي؟وبعدين عرفتي كل ده امتى وظبطي الدنيا دى ازاى؟

انهالت أسألتها دون أن تتوقف عن الجري حتى حاصرتني في الركن فوقفت وأمسكت بفخذي متألمة ، ترقبني بشك

- بتمثلي طبعا؟

لم أرد فاندفعت نحوي بخوف

- منصورة بجد..

قاطعتها

- بمثل أيوة طبعا.

رفعت يدها تضربني فأمسكت بها

- إنتي الكبيرة بقى خلاص.

هدأت أنفاسها فقلت

- كل سنة وانتي ونفسك طيبين يا نون.

وضممتها في عناق طويل .

***

أخذت أطوف حول القصر أتذكر تلك الليلة الجميلة. أفتقد صغيرتي جدا. أستطيع الدخول ولكن ماذا أفعل بالداخل بدونها؟

وقفت أرقب القصر الشامخ حتى أتتني صوت رنة . يا للصدفة إنها صغيرتي

- حزري فزري أنا فين؟

أخبرتها فضحكت و قد تذكرت هي الأخرى تلك الليلة المجنونة. سألتني عن أخباري و أخبار المنصورة وأهلها. تحدثنا قليلا ثم تنحنحت. تريد إخباري بأمر ما لكنها مترددة

- نتيجة المنحة الجديدة بانت؟

ضحكت

- دايما فقساني كده؟ الحمدلله يا ميم اتقبلت في جامعة كويسة قوي في لندن.

وضعت يدي على قلبي

- الحمدلله يا نجوى!

تنحنحت مرة أخرى. هناك أمر آخر إذن فسألت

- أخبار الواد بتاع البلح ايه؟

ضحكت بانفعال

- إنتي ازاى يابنتي ؟ طيب اديني فرصة أقولك .

ضحكت بدوري و ضربت على قلبي برفق

- يبقى هو.

همست

- اه هو.

- اديهوني.

- حاضر.

ولكنها استبقت السماعة قليلا ثم نادتني

- منصورة!

- نعم يا نجوى!

- أنا بتصل أصلا عشان أقولك كل سنة وانتي طيبة، النهاردة عيد الأم.

زادت دقات قلبي في انفعال ،وبصوت مبحوح رددت التهنئة. فتابعت هي بحب

- ربنا ما يحرمنيش منك.

ضربت قلبي برفق كي أسيطر على دقاته

- ولا منك يا نونتي.

ثم أتاني صوته

- ازيك يا منصورة! .

هادئ ومرح. من الأصوات التي تألفها أذنك فورا فيقع قلبك أسيرا للحنها و نبرتها.

- بتحبها؟

سألته مباشرة فتلعثم

- اه ولاّ لا؟

- اه

وسكت لحظات يسيطر على أنفاسه، ثم أكّد

- قوي.

فتنهدت و أخذنا نتكلم معا بهدوء. تحدثنا لفترة وحين هممت بإنهاء المكالمة تذكرت أمرا

- طبعا مش محتاجة أقولك إنك لو جرحتها أو أذيتها أو فكرت مجرد تفكيرإنك تعمل ده أو ده أنا هعمل فيك ايه؟

سمعت صوت أنفاسه وقد انقطعت في ترقب فأكملت أنا بهدوء

- هطلّع...

قطعت كلامي و غمزت محذرة

- سد ودانك الأول.

25

بُـحَيـرَة الـغُـرُوب

أخذت قضمة من التفاحة في يدي وأكملت كتابتي المحمومة على جهاز الكمبيوتربالمكتبة. مكتبة تومبسون، وهي المكتبة الرئيسية بالجامعة.

وتعتبر من أعرق المكتبات و أقدمها بالولايات المتحدة الأمريكية كلها. ويرجع تميزها إلى عدة عوامل منها التصميم القوطي الفريد الذي يأخذك في رحلة إلى عبق الماضي ما أن تخطوا بقدميك إلى المكان.

و أيضا ترجع قوة المكتبة في إمتلاكها ما يقرب من مليون كتاب ومخطوطة. وتعتبر المكتبة حصنا ضخما لكثير من المطبوعات للكتب النادرة و المخطوطات القديمة غير الموجودة بأي مكتبة أخرى، كما تحوي نماذج لعديد من الجرائد والمذكرات و الحقائق المأرشفة الأصلية.

وعراقتها هذه لا تعني أبدا ضعفها في المجال التكنولوجي، فعلى النقيض تماما المكتبة الرقمية والموقع الإلكتروني الهائل يربط كل هذا عبر نظام إتصالات قوي ومتطور، لا يستهان به.

تمتد المكتبة لثلاثة طوابق بالإضافة إلى القبو الذي يعج بالكتب و المخطوطات المختلفة. تصميم المكتبة من الداخل لا يقل أبهة عن خارجها. كل دور من أدوارها الثلاثة به طاولات عديدة للإطلاع و مقاعد فردية لمن يفضل العمل وحده. بالإضافة لإمتلاكها أعدادا كبيرة من الطابعات الورقية التي يحتاجها الطلاب و يستخدمونها لطبع الأوراق أو تصوير الكتب.

القبو يضم أجهزة الكمبيوتر التي يتصل كلا منها بقاعدة بيانات لكل ورقة ومخطوطة صغيرة بالمكتبة. أما الطابق الأول فيضم حجرات فردية أكثر خصوصية للدراسة. نسميها بالشرنقة و عادة لا تفتح إلا لطلاب السنة النهائية .

ما يميزها حقا أن تصميمها يضمن لك الهدوء والراحة التامة. فهي عبارة عن أريكة مستديرة كبيرة، ترتفع لتقفل عليك إلا من جهة واحدة تطل على مشجر الجامعة.

وإن لم يكن كل هذا كافيا لحثك على الإستذكار فالمنظر الطبيعي أمامك سيفعل. فإلى جانب إمتلاك الجامعة لأكثر من مائتي نوع من الأشجار النادرة، فقد دخلت فاسار موسوعة جينيس لإمتلاكها شجرة بعينها يمتد فرعها أمام مكتبتها لمسافة ثلاثين مترا تقريبا.

شجرة الحياة أو السيكامور الأمريكية، وهي شجرة هجين،تفخر الجامعة بضم واحدة منها والتي تحمل بين فروعها أطول فرع في العالم تم تسجيله في جينيس.

معي ربع ساعة باقية. أنهيت كتابة آخر سطر من مشروع التخرج. راجعته و قمت بضغط زر الإرسال. اه انتهيت. أخذت أرقب شجرة السيكامور الممتدة أمامي. فرعها يمتد طويلا متحديا ومخرجا لسانه لعوائق عديدة. يعاند الجاذبية ويبقى معلقا دون يأس . يعاند الرياح في الشتاء، تسقط أوراقه ربما، فيعود وعلى ظهره براعم جديدة مزهرة في الربيع. ولكن لا يقع.

تنهكنا شتاءات كثيرة ، تسقط أوراقنا وتهز جذعنا بعنف حتى تكاد أن تقتلع روحنا. بعضنا يستسلم حتى تذروه الرياح فلا يبقى له أثر وبعضنا يبقى. وأما أنا فباقية.

لملمت حاجياتي و أخذت المصعد للقبو. سأنزل إلى الحجرة الصامتة. بالضبط مثلما فهمت تماما، مسموح فيها بأي شئ إلا الكلام.

تقف صامتا و متحلقا في دائرة مع آخرين أتوا لنفس السبب الذي أتيت لأجله: التخلص من أي مما يوترك أو يسبب ضغطا عليك. و التأكد من أنك لست وحيدا. أيا كان ما يؤرقك فأنت لست وحدك.

تقف لأي وقت تريده وبعدها تخرج. لا أحد هناك. أغمضت عيني و وقفت فاردة ذراعي أتنفس بتؤدة وعمق. لست أدري لكم وقفت ولكني شعرت بيد تمسك بيدي ففتحت عيني و ابتسمت لصاحبتها التي بادلتني الابتسام. وقفت معي للحظات و بعدها خرجت. بقيت واقفة في مكاني لازلت. أنا أتنفس.

****

خرجت و قد شعرت بالجوع فجأة. سأعرج على أستاذي أولا. عندي مقابلة شخصية للمناقشة وتلقي ملاحظاته على أوراقي . كل طالب من حقه ربع إلى نصف ساعة مع أستاذه. و إن احتجت أستاذك لأي موضوع آخر في أي وقت فبإمكانك مراسلته وحجز موعدا والذهاب في وقت ساعاته المكتبية.

حدد لي موعدا في الرابعة والربع وقبلت. الساعة الرابعة الآن موعد زميلي الذي يسبقني قارب على الإنتهاء. وصلت إلى فصل ساندرز وصعدت للطابق الثالث حيث مكتبه. تسربت همهماته مع الزميل الذي يناقشه. انتظرت خارجا.

أتتني رنة رسالة

- الغداء الأول بعد الإمتحانات؟

سأل كازو

- في الخامسة؟

- هووف وأخيرا انتهينا.

- لم نتجمع منذ بدأت الامتحانات يا مطارید دائما ما نقص منا واحد أو اثنين لتضارب المواعيد.

كتبت ناتاليا و أرسلت وجها عابسا

- اه منذ ليلة الصرخة!.

ليلة الصرخة من التقاليد المجنونة التي تزخر بها فاسار و الخاصة بفترة الامتحانات. في الجمعة الأخيرة التي تسبق شهر الإمتحانات النهائية يتجمع الطلاب بعد العشاء ويبدأون في التوافد أمام القلعة لنصرخ صرخة رجل واحد. صرخة نتخلص فيها من التوتر و الضغط وكل ما يؤرقنا. صرخة تمكننا من اجتياز فترة الصمت الإمتحاني بأمان. إجراء وقائي ممتع جدا في الحقيقة.

- سأنهي المقابلة وسنتجه إلى البحيرة أنا وآدم ، بعدها نلحق بكم.

وجه آخر باسم، إرسال.

الرابعة والربع، خرج زميلي و أقفل الباب ورائه. تنحنحت و دققت الباب

- تفضلي يا نون!

جلست على المقعد المقابل لمكتبه. حجرة صغيرة ولكن مريحة. تمتلئ بالكتب و الأوراق و المخطوطات ولكن كل في مكانه. لا فوضى ولا هرجلة.

استرخيت وسط رائحة الكتب. ابتسم لي

- إذن النقاش الأخير هاه؟ ما رأيكِ؟

هززت رأسي

أمسك بأوراقي و حدثني عن بعض ملاحظاته المهمة. كما واستفسر مني عن بعض الملحوظات. أكملنا النقاش لربع ساعة أخرى وانتهى وقت مقابلتي فشكرته و اتجهت نحو الباب أفتحه

- هنفضل نتكلم لما أسافر صح؟

رد بابتسامته المشجعة مؤكدا

- ومن غيري سيقرأ قصصكِ التي تكتبينها في درهام إذن؟

بادلته الابتسام وفتحت الباب وخرجت.

****

اه و أخيرا. تقافزت على السلم. وجريت كي ألحق بآدم . وحشني. وحشوني كلهم جدا و أنا للصراحة جعانة جدا جدا.

لماذا يشعرك النجاح دائما بالجوع؟ ليس جوعا للأكل فحسب وإنما جوع لمزيد ومزيد من النجاح. أكلة دسمة لا تزيد من وزنك و إنما من طموحاتك. الأكلة الوحيدة التي كلما أكلت منها جعت.

ينتظرني آدم أمام البناية. جريت نحوه في فرح ومشينا للبحيرة . البحيرة قد خلعت ثوبها الأبيض الثلجي وارتدت آخرا ربيعيا مزهرا و مشجرا أظهر تضاريسها وركع أمام روعة حرمها في تقديس.

جلسنا على المقعد الخشبي. تناثر الطلاب هنا وهناك. يفترشون المروج الخضراء و يمددون أجسادهم تحت الشمس في تكاسل. تنهدت فرفع يدي نحو صدره و ضمها في عناق طويل

- وحشتيني.

حاولت سحب كفّتا يدي فاستبقاهما

- متهربيش.

أشحت بعيني فضم حاجبيه

- قلقانة ليه؟

نكست رأسي ورغما عني تقوست شفتاي إستعدادا للبكاء فعضضتهما في غضب. اقترب مني و ضم كلتا راحتّي بيد ، وبالأخرى رفع رأسي حتى واجهته

- طيب ممكن أفهم؟

و من بين أنفاسي المرتعشة قلت

- البرنامج الجديد .. سنة..بعيد..إحنا..أنت..أنا..أنا..

و أخيرا غلبتني دموعي لكني فوجئت به يضحك فدققت صدره بغضب ودفعته أحاول تخليص يدي فما كان منه إلا أن شدد قبضته عليها فاستكانت له مرغمة. ربت على رأسي كمن يصالح ولدا صغيرا

- طيب خلاص حقك علّي.

استمررت في نهنهاتي فأردف

- خلاص بقى أحسن هبوسك والله!

نجح تهديده المشاغب في تهدأتي ووجدت نفسي أضحك بخفوت فغمز هو وأردف

- أقل من ثلاث ساعات!

نظرت له مستفهمة فأوضح

- بيني وبينك.

تنهد و بأصابعه الطويلة مسح دمعاتي

- ثم فكرك يعني ثلاث ساعت أو ثلاثين تقدر تبعدني عنك؟ حتى لو كنتي رجعتي مصر كنت هروح وراكي.

قبض على يدي و مشينا جنبا إلى جنب. وعلى المرج الأخضر مررنا بمجموعة من الطلاب الذين يتقافزون على مجموعة من المكانس والمقشات في مطاردة محمومة للحصول على كرة من الإستيل. أخذت أشرح لآدم في حماس و أخلق بيدي إشارات و أشكال. من إذن سيضم بين فرقه الرياضية فريقا خاصا برياضة الكويديتش، أشهر رياضة في تاريخ السحر كله؟

من غير فاسار الحبيبة؟ ثم وهل مدرسة هوجوارتس للسحر أفضل منا في شئ؟ بالطبع لا. الفاساريون أهل السحر و فقاعة فاسار ملاذنا السحري.

الشباب فعلا يطيرون ليرموا بضغوط مقالاتهم التي يجب تسليمها قبل الميعاد النهائي. و يتناحرون مزحزحين التوتر من فوق أكتافهم. هذه البنت طارت فعلا للحاق بالكرة الصغيرة. هل تقترب مني أم...دفعني آدم بعيدا ولكن طالتني الكرة فصرخ

- نجوى!.

- يا الله هل ضربتكِ الكرة؟

- هل فقدت الوعي؟

سمعت أسئلتهم الملتاعة وقد جروا نحوي. حاولت القيام فترنحت. برفق أقعدني آدم وأراحني على صدره

- فيكي حاجة بتوجعك؟

أمسكت برأسي. مترنحة أنا من ضربة الكرة أم من ضربات قلبه الفزع؟ ضرباته سريعة ملتاعة و عيونه السود يتقلب فيها موج قلق.

قرّبني منه وطبطب بيده حيث أشرت فأغمضت عيني مستسلمة لتربيتاته

- أنا كويسة!

همست.

- هل تستطيعين القيام؟

سأل واحد على مقشة فضحكت. سند آدم ظهري بيد وبيده الأخرى أقامني بروّية دون أن يفلت يدي وسألني بهمس

- تمام؟

هززت رأسي له مطمئنة. أعادوا علي ألف سؤال

- بتهزروا يا جدعان؟ ده أنا ضحكت عليكم وكسبت.

قلتها وجريت من وسطهم بالكرة الإستيل الصغيرة التي يتقاتلون من أجلها. وتعالت الصرخات المرحة. لا اعرف أيا منهم ولكن وجوههم مألوفة. كذلك لا أعرف قواعد الكويديتش ولكن كل ما أعرفه هو أني أطير. أنا أحلق عاليا و هم يحاولون اللحاق بي.

****

مياه البحيرة انفكت من جمودها فانسابت حرة تعكس آشعات الشمس التي تستعد للنوم. أسراب البط و الإوز يسيرون ووراءهم أفراخهم.لست متأكدة مما إذا كانوا يقومون فرحانين من النوم لكني أراهم يعومون ويبلبطون أمامي. اممم أعتقد أنهم فرحانين.

- عارف ايه الحاجة الي كل ما ناخد منها تكبر؟

حك رأسه

- ثواني! أنا عارف الفزورة دي.

ضحكت فتابع

- ثواني بجد. اه افتكرت الحفرة صح؟

- تؤ

أجبته بمكر.فمرّ بأصابعه بين خصلات شعره مفكرا.

- مش قلتلك تبطل الحركة دى؟

سألته بغضب مصطنع.

رفع يديه مستسلما ولكني كنت قد سبقته . وقفت على أطراف أصابعي و بيدي قمت باللعب في شعراته حتى نكشتها تماما وبظفر قلت

- كده أحلى بكتير.

ضحك

- يا مجنونة!

رفعت حاجبي وضممت شفتاي

- مش هقولك حل الفزورة.

- لا خلاص نعكشيه و فركشيه براحتك بس قولي.

رفعت يدي نحوه فأحنى رأسه و دنا مني كي أتمكن من الوصول له. مررت بأصابعي أعيد ترتيب شعراته واستسلم لي كتلميذ مطيع

- بقى يا سيدي الحاجة الي كل ماتاخد منها تكبر هي...

همست و أنا غرقى في عيونه السود

- حبي ليك.

ارتفع حاجباه في مفاجأة وضم يدي إلى صدره في حضن طويل. ااه لمّي فتافيتك يا نجوى فلا مزيد من الهرب والوجع . هتف بمرح

- طب أنا كمان عندي فزورة.

نظرت له مستفهمة

- عرفتي سمّوها بحيرة الغروب ليه طيب؟

سأل بتخابث فضحكت

- عرفت ياخويا.

غمز واقترب بوجهه مني

- طب ايه؟

رفعت سبابتي

- ايه انت؟

- مش هننفذ التقليد المتبّع يعنى؟

قلت مهددة

- اتلّم يا آدم!

غمز يغيظني

- ولو متلمّيتش يا نجوى؟

أعرضت عنه بظهري

- حاسس بابتسامتك من غير ماشوفها على فكرة.

التفت أواجهه بابتسامة خجلى توردت لها وجنتاي. و بحب فتح لي يده فناولته يدي يضمها، ومشينا.

****

تحلقنا حول الطاولة في القلعة. امتلأ المكان عن آخره بالضحكات و الصرخات المرحة فرحا بإنتهاء الإمتحانات.

- لماذا تأخرتما؟ أين كنتما يا ترى؟

غمزت آن بتخابث، فضحكت

- كنا في ماتش كويديتش سريع .

- كويديتش ؟!

سأل كازو بفضول وخبّرته ناتاليا بماهيته فضحك . عوّضنا ما فاتنا من ثرثرة. يااه أوحشتني لمّتنا و جمعتنا و أحاديثنا التي لا تنتهي. هتفت ماتيلدا

- هيا لنلحق دق الجرس.

****

و دق الجرس طقس خاص بطلاب السنة النهائية . نصعد لسطح المبنى الرئيسي لدق الجرس إحتفالا بإنتهاء الدراسة. جرينا نحو المبنى الرئيسي. استقلّينا المصعد. واستقبلنا الطلاب المنظمون.

لخمس دقائق ندخل اثنين باثنين فهذا ماتسمح به المساحة الآمنة حول الجرس المعلق. زحفنا في ممر ضيق يفضي إلى مربعا من الجدران الخشبية والتي انتشرت عليها توقيعات وكلمات لمن كانوا هنا. ودون اتفاق منا أمسك آدم بالقلم و كتب

- وبين هنا وهناك سيتواجد دوما المكان الذي تشعر فيه بالحب مع من تحب. توقيع: المطاريد.

قرأتها في همس وابتسمت له. اتجهنا نحو سلم من الخشب. اعتلى آدم درجاته واحدة بواحدة ووقف في الأعلى منتظرا إياي .تلقفتني يده واقتادني نحو الجرس.

مشهد رائع للجامعة كلها من أعلى. نسمات من الهواء البارد تلفحني فتتخضب لها خدودي بدماء الحياة. أم هي يد آدم التي تبعث في جسدي كل هذا الدفء؟

اقتربت من الحافة محتمية بيده التي تشدني و تثبتني مكاني. مختبئة بين ضلوعه والتي حين أتبعثر تلملمني بحنّو. نظرت للأسفل فوجدت النقاط الصغيرة للغادين والآتين وقد تفرّقت في أرجاء الحرم من تحتنا. سحابات بيض تحوم فوق رؤسنا كقطع من غزل البنات، أمد يدي فلا أكاد أصل. أشب على أطراف أصابعي فأتعثر و يسندني آدم بيديه . أشير إلى البحيرة تبرق مياهها في ألق سحري حين تنعكس عليها شمس الغروب. وتعالت دقات الجرس تزغرد بفرح.

خَـاتِـمـة . .

منذ لحظات أخبرت ميم بأنها قد صارت جدة. طارت من الفرحة. تقافزت و أوقعت اللاب توب. بكت و ضحكت و أطلقت الزغاريد. ضحكتُ وآدم حين زغردت . ولكن الممرضة فزعت حين (رقعت) منصورة الزغرودة. فاستأذنت و خرجت. اه هل لفرحتي حدود؟ بالطبع لا. لامزيد من الحدود والحواجز. هل أطمع بشئ آخر؟ رفعت عيني نحو آدم ومشيت بأصابعي بين شعراته فقبلني قبلة طويلة ذبنا فيها معا. صرخت فينا منصورة "اختشوا يا أولاد! أنا هنا." كانت قد عدلت من اللاب توب الذي وقع. ضحكنا. لا ، بالتأكيد لست أرغب بشئ آخر. اه ربما شيئا واحدا فحسب "اختاري اسم للبنوتة يا ميم." قلت و أنا أضمها بيد و أضم آدم بالأخرى. فتحت منصورة ذراعيها تستقبل نور الصباح الذي انتشر حولها في غرفة نومي القديمة وابتسمَت. اه نون أخرى تأتي للعالم إذن. ولكن هذه المرة لن تتوه أبدا. فأنا وأبيها إلى جانبها هنا من ناحية. و جدّتها هناك من الناحية الأخرى. أحاط بنا آدم وأخذني وصغيرتنا في حضنه. قربت إصبعي من كفتّها الصغيرة فتشبثت به تلتمس مني الأمان والدفء. فلتخطِ بأمان نحو النور يا نُور.

المحتويات:

مقدمة

(بداية)
1- بحيرة الغروب
2- ميم
3- القلعة
4- نون
5- 124 جادة رايموند
6- ميم
7- المطاريد
8- نون
9- موسم الهجرة إلى أين؟!
10- ميم
(صعود)
11- طبع أم تطبع؟
12- نون
13- كي تعبر الجسر

14- ميم

15- أصحاب الحلم

16- ميم

17- مملكة الحب

(وصول)

18- نون

19- بلا حدود

20- ميم

21- رجل أبيض و آخر أحمر و مغناطيس أسود

22- نون

23- وفي الربيع تتفتح القلوب

24- ميم

25- بحيرة الغروب

خاتمة